## Ek-1 Te'sisu Kavâidi'l-akâid alâ mâ Senehe min Ehli'z-Zâhir ve'l-Bâtın mine'l-Fevâid adlı eserin tahkîki

### Tahkîkte Takip Ettiğimiz Yöntem

1. Mollâ Halîl'in yazdığı eser, torunlarından Şeyh Selim'in ifadesine göre Medine'de kendisinin yanında bulunmaktadır. Aslına ulaşamadığımızdan yine torunlarından Şeyh Cüneyt'in 1949 yılında istinsah ettiği eseri esas aldık ve bu nushayı آ ile gösterdik.
2. Kimin istinsah ettiği belli olmayan el yazmalı eseri de ب ile gösterdik.
3. Esas aldığımız nüshanın varaklarını sayılarla beraber أ veya ب şeklinde gösterdik.
4. Müellif başlık vermediğinden kendimiz başlıkları oluşturduk.
5. Tüm Ayetleri tespit ettik.
6. Tüm Şiirlerin kaynağını tespit ettik.
7. Metni paragraflandırdık.
8. Hadislerin çoğunun tahricini yaptık.
9. Bazı müellif ve mezhepler hakkında bilgi verdik.
10. İçindekiler kısmını oluşturduk.

# تأسيس قواعد العقائد على ما سنح من اهل الظاهر و الباطن من الفوائد

# فصل في المعرفة والوجود

## الإشتغال بعلم الكلام ولزومه وتطوره

### بسم اللّه الرحمن الرحيم وبه نستعين

قال بعض من برع في العلم الظّاهر والباطن: **لو أدركتهم لمنعتهم عن [1]تدوينها رأساً**. وقال كثير من أهل الدراية: **لا حجر في ذلك** فالماهرون من أهل الشريعة يحملونها على مجازها الخليقة، ويؤولونها بما هي عليه في الحقيقة وهم إنما فعلوا ذلك رفقاً بالخلق ورحمة بهم وشفقة عليهم، فقد يكون منهم من لا يعرف ما هم فيه، فلم يقبله وينكره عليهم فيُحرَمُ فضلَهُمْ أبد الآباد. فحفظوا علومهم من الضياع بالتدوين ورمزوا أسرار الله عن المحجوبين.

**اَلَا إنَّ الرُّمُوزَ دَليلُ صِدْقٍ عَلَى الْمَعْنَى الْمُحَنَّى فِي الْفُؤَادِ**

**وَكُلُّ العارِفِينَ لَهُمْ رُمُوزٌ وألغَازٌ تَدُورُ عَنِ العَوادِي**

**وَلَولا الكُفرُ كَانَ القولُ كُفْراً وأدَّى العَالَمِينَ إلَى الْفَسَادِ**[2]

لكنهم أيضاً غير معصومين عن الزّلّة فما خالف من كلامهم ظاهر الكتاب والسنة ولم يوجد له محمل بالتأويل الموصى به إلى نحو سبعين مرة فهو مدسوس عليه بلا شبهة. كان **مالك**[3] رضي الله عنه يقول: **كلٌ مؤاخذ بكلامه إلا صاحب هذا القبر.** مشيراً إلى الروضة المطهّرة. بل هم في الحقيقة كغيرهم متحيرون في بيداء ساحل بحر حكمته العمّان عاجزون عن إدراك كنه حقيقته وجلال ذاته وصفاته، لا يحيط به تفكر وبيان جلّ الإله المنزه المقدس أن يكون الإله الذي أدركه عقل العاقلين وتصَوّرَهُ فهمُ العارفين، وأن يكلف خلقه أن يعرفوه كما عرف نفسه، فكيف يحاط به ويدخل تحت حكم المخلوقين.

ألا يرى إلى قول سيّد الأبرار مقتبس علوم الحقيقة والأسرار مع إحاطته بعلم الأولين والآخرين بل بكل ما كان ويكون إلى أبد الآبدين: **سبحانك ما عرفناك حق معرفتك**[4]. {**وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً** }[5] {**وَلَوْ كُنْتُ**

---

[1] ب:عن ذلك بل عن تدوين علومهم رأسا

[2] راجع **الفتوحات المكية**، لابن عربي،455/1 لكن هناك

**ألا إن الرموز دليل صدق على المعنى المغيب في الفؤاد**

**وأن العالمين له رموز وألغاز ليدعى بالعباد**

**ولولا اللغز كان القول كفراً وأدّى العالمين إلى العناد**

[3] هو ابن انس ابو عبد الله إمام دار الهجرة،وأحد الأئمة الأربعة، وتنسب إليه المالكية، ولد في المدينة وتوفي بها سنة 71/93. من مؤلفاته الموطأ، والرد على القدرية 128/6.

[4] لم أجد هذا الحديث في كتب الصحاح.

[5] الإسراء:85

**أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ**}[6] وقد مثل لهم **الغزالي**[7] من أجلّ رجالهم، بعميان بُعثُوا للتفحص عن أحوال الفيل، ففتشوا بأيديهم ووقعت يد كلّ على عُضوٍ من أعضاء الفيل، فلما سُئِلُوا قال أحدهم: هو مجرد خرطوم أملس، وقال الآخر: هو أسطوانَةٌ غليظة طويلة، وآخر: أنه مثل تُرْس واسع إلى غير ذلك.

وقال **ابن عربي**: ذات الله لا يعلمها أحد من خلق الله، فهو وراء كل معلوم والحكم عليه بأمر دون أمر جهل عظيم. وقال **الإسفرائني**[8]: جميع ما قاله المتكلمون في التوحيد يجتمع في كلمتين: اعتقاد أن كلّ ما تصوّر في الأوهام فالله بخلافه، واعتقاد أن ذاته ليس شبيهة ولا معطلة عن الصفات. وأكد ذلك بقوله: { **وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ**}[9] تنزيهه سُمع في الشرع { **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ** }[10] ولم يوجد في العقل هو المنزه نفسَه بنفسه. وأمثال هذه المقالات في معرفته وتنزيهه وتوحيده منهم كثيرة وأُنْشِدَ في ذلك:

**عِقَالُ عَقْلِكَ بالأَوْهَامِ مَعْقُولٌ قَدْ قَلَّبَ القَلْبَ مِنْكَ القَالُ وَالقِيلُ**

**نَحَتَّ بِالْفِكْرِ مَعْبُوداً وقُلْتَ بِهِ وصُغْتَ عَقْداً بِكَفِّ الحَقِّ مَحْلُولُ**

**قَدْ عِشْتُ قَبلَكَ دَهْراً فِي مُكَابَدَةٍ وَفِي فُؤَادٍ بِهَذا الدَّاءِ مَعْلُولُ**[11] (1/أ)

**مَا وَحَّدَ الْوَاحِدَ مِنْ وَاحِدٍ إِذْ كُلُّ مَنْ وَحَّدَهُ جَاحِدُ**

**تَوْحِيدُ مَنْ يَنْطِقُ عَنْ نَفْسِهِ عَادِيَةٌ اَبْطَلَهَا الْوَاحِدُ**

**تَوْحِيدُهُ إِيَّاهُ تَوْحِيدُهُ وَنَعْتُ مَنْ يَنْعَتُهُ لَاحِدٌ** [12]

---

[6] الأعراف:188.

[7] الإمام الغزالي هو ابو حامد محمد بن محمد بن محمد حجة الإسلام الطوسي الشافعي الغزالي ولد سنة 440 هـ وتوفى سنة 505 هـ له مؤلفات كثيرة مثل الإحياء، مقاصد الفلا سفة، تهافت الفلاسفة.....راجع الزركلي

[8] هو:ابو إسحاق الإسفرائيني ابراهيم بن محمد عالم بالأصول والفقه نشأ في إسفرائين، ثم ذهب الى نيسابور، ثم رحل إلى خراسان و العراق. من مؤلفاته الجامع في أصول الدين، رسالة فى أصول الفقه. مات فى نيسابور سنة 418/1027 راجع: الأعلام للزركلي 59/1، و هدية العارفين لإسماعيل باشا البغدادي.8/1

[9] الإخلاص:4

[10] الشورى:11

[11] الشعر لمحمد وفا 765 – 702 هـ / 1302 – 1464 م محمد (وفاء) بن محمد النجم بن محمد السكندري، أبو الفضل أو أبو الفتح، المعروف بالسيد محمد وفا الشاذلي .لكن هناك هكذا:

**عقال عقلك بالأوهام معقول قد قلب القلب منك القال والقيل**

**تهيم في مهمه الأهواء من وله أفاده فيك معقول ومنقول**

**نحت بالفكر معبوداً وقلت به وصنت عقدا بكف الحق محلول**

**قد عشت مثلك دهرا في مكابدة ولي فؤاد بهذا الداء معلول**

راجع ديوان محمد وفا حرف اللام

[12] راجع: منازل السائرين ص:48

ثم معظم خلافيات هذا الكلام من الفرقة الناجية مع الفرق الإسلامية الغير الناجية المشار إليهم بقوله (ص): **«افترق بنو إسرائيل[13] إحدى وسبعين فرقة والنصارى ثنتين وسبعين فرقة وستفترق أمتي ثلاثاً وسبعين فرقة كلها في النار ـ أي من جهة عقيدتهم وإن لم يذنبوا ـ إلا واحدة»، قيل: ومن هم يا رسول الله؟ قال: «الذين هم على ما أنا عليه وأصحابي»** [14] سيما **المعتزلة**[15] التي هي أحد الأصول الشيعة لتلك الفرق السبعة المتفرقة اثنتين وعشرين فرقة وقيل: اثنتي وثلاثين

---

[13] ب:اليهود رواه الترمذي ايمان 2640، أبو داود، كتاب السنة 4596، ابن ماجة الفتن: 3991، ابن حنبل المسند 232/2(بدون كلمة النصاري).

[14] وعلى هذا الحديث حاشية للشيخ جنيد من أحفاد المؤلف، وهي: ومما ينبغي أن يعلم في هذا المقام أنه قد استشكل الحديث بأنه إن حمل الأمة فيه على أمّة الدعوة كما ادّعى بعضٌ ازدادتِ الفِرَقُ على العدد المذكور فيه بكثير لكثرة فرق الكفر جداً وكذا إن حمل على أمّة الإجابة كما هو مقتضى أسلوب الإضافة في أمثاله. وأريد بالفِرَقِ ما يعم الفروع وإن أريد الأصول فهي أقلّ من ذلك بكثير. ودفع تارة بأنه يجوز أن يكون الذين بينهم مخالفة معتد بها من أمته الإجابة بهذا العدد.وتارة بأنه يمكن أنّهم بلغوه في بعض الأوقات وإن زادوا أو نقصوا في أكثر الأوقات. والمفهوم من كلام بعض الأفاضل أنهم بلغوا ذلك المبلغ وبقوا عليه من غير أن يتبدلوا بزيادة أو نقصان حيث حصر أصول غير الناجية من أمته الإجابة في سبقه وفرّعهم بحيث بلغوا مع الناجية العدد المذكور بعينه. فقال: أولاً الناجية واحدة وهم أهل السنّة والجماعة القائلون بأن العالم حادث والصانع واجب وأنه خالق حاكمْ ولا خالق سواه ولا حاكم وهو قديم متصف بالعلم والقدرة. وسائر صفات الكمال «ولا شبيه له» ولا ضدّ ولا ندّ ولا يحلّ ذاته في شيء ولا غيره فيه، ولا يكون محلاً للحوادثْ وليس في حيّز ولا في جهة ولا يجري عليه زمان، ولا يصح عليه الحركة والسكون، ولا الجهل ولا الظنون ولا شيء من صفات النقصان وأنه مرئي للمؤمنين في دار الآخرة بلا انطباع ولا شعاع وخالق لأفعال العباد حسنة كانت أو قبيحة، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وتكليفه ما لا يطاق جائزٌ ولا يجب عليه شيء إن أثاب فبفضله وإن عاقب فبعدله. وليس فعله معللاً بالأغراض والعلل بل هو متقن محكم على حِكَم ومصالحَ راجعة إلى مخلوقاته ولا يتصور منه جور أو ظلم وجميع ما جاء به الشرع من نحو سؤال منكر ونكير وعذاب القبر لجميع الكافرين ولبعض عصاة المؤمنين وتنعيم أهل الطاعة بما يعلم الله ويريد، وإحياء الموتى في القبور والمعاد الجسماني والمحاسبة والحوض والصراط والميزان وخلق الجنة والنار الآن وخلود أهلهما فيهما، كلها حقّ ومرتكب الكبيرة مؤمن والشفاعة المقبولة ثابتة للرسل والأخيار وبعثته الرسل بالمعجزات الباهرة. وأول الأنبياء آدم وآخرهم محمد عليهم الصلاة والسلام، وهو أفضلهم ثبت له المعراج في اليقظة بجسده وجسمه إلى السماء بالكتاب والسنّة والإجماع.

ورسل البشر أفضل من رسل الملائكة ورسل الملائكة أفضل من عامّة البشر وخواصهم غير الأنبياء. وهؤلاء الخواص أفضل من عامّتها والسحر والعيْن ثابتان على التحقيق، وكرامات الأولياء حقّ ونصب الإمام واجب على المكلفين. والإمام الحقّ بعد رسول الله (ص) أبو بكر الصديق، ثم عمر الفاروق، ثم عثمان ذو النورين، ثم علي المرتضى. ولا يكفر أحد من أهل القبلة إلا بسبب نفي الصانع أو الشرك به أو الإنكار للنبوّة أو لما علم مجيئه عليه السّلام به ضرورة أو لمجمع عليه كاستحلال المحرمات الّتي أجمع على حرمتها. ثم قال: والأصل الأول في أصول غير الناجية المعتزلة وهم أكثر نزاعاً وأشد مخالفة للفرقة الناجية فهم كلهم حكموا بأنّ القدم أخصّ صفات الله تعالى، لا يشاركه فيه غيره بنفي الصفات الزائدة على الذات، وبأن كلامه محدث مركب من الحروف والأصوات وبأنه تعالى غير مرئيّ في الآخرة بالأبصار، وبأن الحسن والقبح عقليان وبأن رعاية الحكمة والمصلحة في أفعاله تعالى وثواب المطيع وعقاب العاصي واجب عليه تعالى إلى غير ذلك مما ستسمع في محالّه.

ثم إنهم بعد اتفاقهم على هذه الأمور فرقوا عشرين فرقة يكفّر بعضهم بعضاً.

الواصلية: وهم ينفون الصفات ويسندون أفعال العباد إلى قدرتهم وجوزوا أن يكون عثمان رضي الله عنه لا مؤمناً ولا كافراً وأن يخلّد في النار وكذا عليّ ومتابعوه.

والعَمْريّة: وهم على عقيدة الواصلية إلاّ أنهم زادوا تفسيق عثمان وقاتلِه معاً..

والهُذَيلية: حكموا بفناء مقدورات الله وبأن حركات أهل الجنّة والنار مخلوقة لله تعالى ضرورة ولو كانت مخلوقة لهم لكانوا مكلفين ولا تكليف في الآخرة، وبأن بعض كلامه تعالى في محلّه كالأمر والنهي والخبر والاستخبار وبعضَه في غير محلّه ككلمة كنْ، فإن تكوين الأشياء كان لكلمة كن فلا يتصوّر لها محل إلى غير ذلك من المفاسد.

والنظامية قالوا: أن الله تعالى لا يقدر أن يفعل لعباده في الدنيا ما لا صلاح فيه، ولا أن يزيد أو ينقص من ثواب أهل الجنّة أو عقاب أهل النار. وأن غاية تنزيهه تعالى من الشرور والقبائح لا يكون إلا بسلب قدرته عليهم، فهم في ذلك كمن هرب من المطر إلى الميزاب وأن الأجسام البسيطة مركبة من الألوان والأضواء والطعوم والروائح والكيفيات الملموسة من الحرارة والبرودة وغيرها، وكلها أجسام لطيفة، وأن نظم القرآن ليس بمعجز، والمعجز إخباره بالغيب وأن القياس والإجماع ليسا بحجّة والتواتر يحمل الكذب ولهم مفاسد أخر.

والأسوارية قالوا بما قال به النظامية وزادوا: أنه لا يقدر على ما

أخبر بعمومه أو علم عدمه والإنسان قادر عليه.

والإسكافية قالوا: أنه تعالى لا يقدر على ظلم العقلاء بل يقدر على ظلم الصبيان والمجانين.

والجعفرية زادوا على ما قال الإسكافية: أن من فساق الأمة من هو شر من الزنادقة والمجوس. وأن الإجماع على حدّ الشرب خطأ، لأن المعتبر في الحدّ هو النصّ ولا نص فيه. وأن سارق الحبّة فاسق يخلع عنه الإيمان..

والبترية: جوزوا حصول كلّ من الألوان والطعوم والرّوائح والسّمع والرؤية في الجسم متولّدة في فعل الغير وقالوا بمفاسد أُخَر.

والمزدارية: جوزوا الكذب والظلم على الله تعالى على أنه إن فَعَلَ كان إلهاً كاذباً ظالماً نعوذ بالله من ذلك. وكفّروا من قال أن الأعمال مخلوقة، وأن الله مرئيّ في الآخرة. وكذا كفّروا مَنْ لابس السلطان أنه لا يرث ولا يورث منه، وزعموا أنّ الناس قادرون على مثل القرآن، بل على أحسن منه نظماً وبلاغة.

والهشامية: أنكروا إطلاق اسم الوكيل على الله وتأليفه بين القلوب ودلالة القرآن على الحلال والحرام ومحاصرة عثمان وقتله وخَلْق الجنّة والنّار الآن وانعقاد الإمامة بلا اتّفاق وصلوحَ دلالة الإعراض على خالقيّة الله لها وعلى صدق مدعي الرسالة وإنما الدال عندهم الأجسام.

والصالحية: جوّزوا قيام العلم والقدرة والبصر وسائر الصفات بالميت، وخلّوا الجسم عن الأعراض كلّها

والحابطيّة: زعموا أنّ للعالم إلهين قديم وهو الله تعالى، وحادث وهو المسيح وهو الله الذي يحاسب النّاس في دار الآخرة. وهو المراد في: {وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا *} والذي يأتي في ظلل الغمام والمشار إليه بقوله عليه السلام: «خلق الله آدم على صورته ويضع الجبار قدمه في النار فتقول: قدني قدني». لكن هذا إشراك

والمدبيّة مثل الحابطية مذهباً، وزادوا القول بالتناسخ.

والعمريّة: زعموا أنّه تعالى لم يخلق غير الأجسام وهي تخترع الأعراض إمّا بالاضطرار كالنّار والشمس للحرارة، وإمّا بالاختيار كالحيوان للأكوان، وأنه تعالى لا يعلم نفسَه وإلاّ اتحد العالم والمعلوم، وهو ممتنع.

والتّماميّة قالوا: الأفعال المتولدة لا فاعل لها والمعرفة متولدة من النظر واجبة قبل الشرع، والكفّار كلّهم يصيرون في الآخرة تراباً كالبهائم والأطفال ولهم مفاسد أخر

والخياطية قالوا: المعدومات ثابتة حالة العدم متصفة في تلك الحالّة بصفات الأجناس كالجوهريّة والعرضية والشيئية وغيرها وأن إرادته تعالى في أفعاله بمعنى كونه خالقها وفي أفعال عباده كونه آمراً بها.

والجاحظيّة قالوا: المعارف كلّها ضرورية ولا إرادة في واحد منّا، وأن الأجسام ذوات طبائع مختلفة لها آثار مخصوصة والأعراض متبدلة والجواهر باقية بحالها والنّار تجذب أهلها أنه تعالى يدخلهم فيها والخير والشر من فعل العبد. والقرآن جسد يتقلّب تارة رجلاً وتارة امرأة.

والكمتية: زعموا أنّ فعل الرب واقع بغير إرداته وهي في أفعاله وأفعال عباده كما قالت الخياطيّة.

والجبائية قالوا: إرادة الله حادثة لا في محل وهو مريد بتلك الإرادة موصوف بها كما أنّه متكلّم بكلام مركب من الحروف والأصوات يخلقه تعالى في جسم والعالم يفنى بفناء لا في محل إرادته تعالى.

والبهشميّة: جوزوا استحقاق العبد للذم والعقاب بلا معصية، وقالوا: لله أحوالاً لا معلومة ولا مجهولة ولا قديمة ولا حادثة، ولا يتعلق علم واحد بمعلومين على التفصيل.

ولا توبة لشارب الخمر بعدما عرض له صداع. والثاني من الأصول الشيعة الذين شايعوا علياً وقالوا: أنه الإمام بعد رسول الله بالنص الجلي أو الخفي. وهم اثنان وعشرون فرقة ويكفّر بعضهم بعضاً ضبط لهم ثلاث: غلاة وزيدية وإمامية

فالغلاة: ثمانية عشر فرقة ظاهر كلهم الكفر السّبئية. قال عبد الله بن سَبَأ منهم لعليّ: أَلاَ أنت الإله حقاً، ولذا قال: إن علياً لم يمت وما قتل ابن ملجم شيطان تصوّر بصورة عليّ وعليّ في السبحات. الرعدُ صوته والبرق سوطه وأنه ينزل بعد هذا إلى الأرض ويملؤها عدلاً فهؤلاء يقولون عند سماع الرعد: عليك السلام يا أمير المؤمنين.

والكاملية: قال أبو كامل منهم يكفّر الصحابة بترك بيعة عليّ وبكفر علياً بترك طلب الحق وحَكَمَ بأن الأرواح متناسخة عند الموت وأن الإمامة نور ينتقل من شخص لآخر وقد يصير في شخصٍ نبوة بعدما كان فيه إمامة.

والبنانية: قال بنان بن سمعان التميمي الهندي اليمني: الله تعالى على صورة إنسان ويهلك كلّه إلا وجهه وروحه حلّت في عليّ ثم في ابنه محمد بن الحنفية ثم في ابنه هاشم ثم بنان بن سمعان.

والمغيرية: قال مغيرة بن سعد العجليّ: الله جسم على صورة رجل من نور على رأسه تاج وقلبه منبع الحكمة وحين أن خلق الخلق تكلم بالاسم الأعظم، فطار فوقع تاجاً على رأسه ثم كتب على كفّه أعمال العباد فغضب من المعاصي فعرق، فحصل من عرقه بحران: ملح مظلم وحلوّ نيّرٌ، ثم وقع النيّر وأبصر فيه ظلمةً وانتزع بعضاً منه فخلق منه الشمس والقمر وأفنى باقي الظلّ نفياً للشريك. ثم خلق الكفار من المظلم والمؤمنين من النيّر.

والجناحيّة: قالوا بالناسخ وبأنّ روحه تعالى كان في آدم ثم في شيث ثم في إدريس ثم في الأنبياء ثم في الأئمة حتى انتهت إلى عليّ وأولاده الثلاثة. ثم إلى عليّ بن عبد الله بن معاوية إلى غير ذلك من المفاسد.

والمنصورية: زعموا أن الإمامة صارت لمحمد بن الحسين ثم انتقلت إلى أبي منصور فعرج إلى السماء ومسح الله رأسه بيده وقال: يا بني اذهب فبلّغ عني والرسل لا تنقطع أبداً

والخطابية: قالوا: الأئمة هم الأنبياء وأبو الخطاب الأسدي نبيّ فالأنبياء أوجبوا على الناس طاعته بل هم آلهة لها الخطاب والحسنان أبناء الله وجعفر الصادق إله وأبو الخطاب أفضل منه ومن عليّ. واستحلوا شهادة الزور لموافقهم على مخالفيهم إلى غير ذلك.

والغرابية: قالوا: محمد عليه الصلاة والسلام رجل أشبه من الغراب بالغراب ومن الذباب بالذباب. وقد بعث الله جبرائيل إلى عليّ فغلط في تبليغ الرسالة إلى محمد فاستوجب اللفتة.

والذمئية: ذمّوا محمد لما زعموا أن الإله هو عليّ وقد بعث محمد ليدعو الناس إليه فدعا لنفسه.

وقال بعض منهم: هما إلهان واختلفوا في أيهما المقدم الأفضل. وبعض أن أهل العباء كلهم آلهة.

والهشامية: زعموا كلهم أن الله جسد ثم اختلفوا فقال ابن الحكم منهم هو طويل عريض عميق متساوي الأبعاد كالسَّبيكة البيضاء الصافية يتلألأ من كل جانب وله لون وطعم ورائحة ونبض ليست غير ذاته، وهو عشرة أشبار بشبر نفسه متماسّ للعرش على وجه لا يفضل أحدهما على الآخر.

وقال ابن سالم منهم هو على صورة إنسان بعينة إلا أن نصفه الأعلى مجوّف والأسفل مصمت.

والزرارية: قالوا: صفات الله تعالى حادثة وقبل حدوثها لم يكن متصفاً بشيء منها.

واليونسية : قال يونس بن عبد الرحمن رئيسهم أنه تعالى على العرش تحمله الملائكة وهو أقوى منهم كالكرسي يحمله رجلان وهو أقوى منهما.

والشيطانية: قال رئيسهم محمد النعمان الملقب بشيطان الله نور غير جسماني ومع ذلك هو على صورة إنسان وإنما يعلم الأشياء بعد كونها

والزرامية: قالوا الإمامة بعد عليّ لمحمد بن الحنفية ثم ابنه عبد الله ثم علي بن عبد الله بن عباس ثم أولاده إلى المنصور ثم حل الإله في أبي مسلم وأنه لم يقتل واعتقدوا أنه قد يحل المحارم وترك الفرائض.

والمفوضة: قالوا أن الله تعالى خلق محمداً وفوض إليه خلق الدنيا فهو الخلاق لها وقالت طائفة منهم: فوّض خلقها لعليّ.

والبدائية: جوزوا أن يريد الله شيئاً لم يظهر عليه ما لم يكن ظاهراً له ويلزمهم أن لا يكون عالماً بعواقب الأمور.

والنصيرية والإسحاقية: قالوا: حلّ الله في عليّ وأولاده لتأييدهم بتأييدات متعلّقة بباطن الأسرار وظهور الروحاني في الجسماني مما لا ينكر كظهور جبرائيل بصورة البشر وظهور الإنسان في صورة الإنسان.

والإسماعيلية: قالوا: للقرآن ظاهر وباطن والمراد منه مقصور على الباطن والمتمسك بظاهر معذب بالمشقة في الاكتساب. وقالوا: الرسل سبقه آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام ومحمد المهدي وبين كل اثنين منهم سبعة أئمة يتممون شريعته إلى غير ذلك من مفاسدهم.

وأما الزيدية: من الشيعة فثلاث فرق:

الجارودية: قالوا: الإمامة بعد النبي عليه الصلاة والسلام لعليّ بنص جليّ. والصحابة كفروا لمخالفة عليّ وترك الاقتداء به بعد النبي والإمامة بعد الحسن والحسين شورى في أولادهما، وقال بعض منهم: الإمام المنتظر محمد بن عبد الله بن حسين وزعموا أنه لم يقتل وبعضٌ أنه محمد بن القاسم بن عليّ ابن الحسين أسر في أيام المعتصم.

والسليمانية: قالوا الإمامة شورى فيما بين الخلق وإنما تنعقد برجلين من خيار المسلمين ونصح إمامة المفضول مع وجود الفاضل. فأبو بكر وعمر إمامان وأن أخطاء الأمّة في التبعية لهما مع وجود عليّ وكفروا عثمان وطلحة والزبير وعائشة.

والبتيرية: وافقوا السليمانية إلا أنهم توقفوا في تكفير عثمان.

والإمامية: من الشيعة فرقة واحدة وهم قالوا بالنص الجليّ على إمامة عليّ وكفروا الصحابة ووقعوا فيهم وساقوا الإمامة إلى جعفر الصادق واستقر رأيهم على أنها بعده لابنه موسى الكاظم ثم لعليّ بن موسى الرضي فمحمد بن عليّ التقي فابنه عليّ التقي فالحسن بن عليّ الزكيّ فحمد بن الحسن وهو الإمام المنتظر.

والثالث من الأصول الخوارج : وهم سبع فرق.

المحكمية: قالوا: الإمام الجائر يعزل أو يقتل ولم يوجبوا نصب الإمام بل جوزوا أن لا يكون في العالم إمام وكفروا عثمان وأكثر الصحابة ومرتكب الكبيرة.

والبهيسية: قالوا: الإيمان هو الإقرار والعلم به تعالى وبما جاء به الرسول فمن وقع فيما لا يعرف أحلال هو أم حرام، فهو كافر لوجوب التفحص.

وقال بعضهم: إذا كفر الإمام كفرت الرعية وإن كانوا غائبين ولهم مفاسد أخر وكلهم وافقوا المعتزلة في إسناد أفعال العباد إليهم.

والأزرقية: قالوا: كفر عليّ بالتحكيم وكفر عثمان وطلحة والزبير وعائشة وعبيد الله بن عباس وسائر المسلمين معهم وكفروا المتقاعد عن القتل وإن كانوا مسلمين ولم يوجبوا الرجم على الزاني المحصن ولا الحدّ على قاذف الرجل المحصن. وأوجبوا على قادف المحصنة وكفروا مرتكب الكبيرة، وجوزوا نبيًّا كافراً وإن علم كفره بعد النبوة.

والنجدات المسماة بالعاذرية قالوا: لا حاجة للناس إلى إمام بل الواجب العدل والنصفة بينهم ولهم نصبه إذا رأوا أن ذلك لا يتم بدونه ووافقوا الأزرقيّة في التكفير وخالفوهم في باقي أحكامهم.

والأصفرية: خالفوا الأزارقة في الرأي لكن جوزوا النية في القول دون العمل، وقالوا: المعصية التي فيها حدّ سمّى صاحبها بها فهو سارق أو زانٍ أو قاذف ولا يقال كافر وما لا حدّ فيها لعظمتها كترك الصوم والصلاة كفر فيقال لصاحبه كافر.

والإباضية: قالوا: المتخالفون من أهل القبلة كفار غير مشركين يجوز مناكحتهم وغنيمة أموالهم وكراعهم حلال عند الحرب ودارهم إلا معسكر سلطانهم وقالوا: يقبل شهادة مخالفيهم عليهم ومرتكب الكبيرة موحّد غير مؤمن لدخول في الإيمان ويفنى العالم كله بفناء أصل التكليف وتوقفوا في النفاق أهو شرك أم لا؟ وتردّد في جواز بعثة الرسول بلا دليل ومعجزة وكفروا علياً وأكثر الصحابة وزادت الحفصية منهم أن بين الإيمان والشرك معرفة الله فمن عرف الله وكفر بما سواه كرسول أو جنة أو نار أو بارتكاب كبيرة فهو كافر لا مشرك وزادت اليزيدية منهم أنه سيبعث نبي من العجم بكتاب يكتب في السماء وينزل عليه جملة واحدة ويترك شريعة محمد (ص) إلى شريعة الصائبة المذكورة في القرآن.

وقالت الحارثية : منهم أفعال العباد كلها مستندة إليهم والاستطاعة مع الفعل لا قبله.

والفجاردة: وهم عشر فرق:

فالميمونة منهم نسبوا فعل العبد إليه وجعلوا الاستطاعة قبل الفعل. وقالوا: أنه تعالى لا يريد الشر والمعاصي وجوّزوا إنكاح بنات الأولاد وأولاد الأخوة والأخوات، وقالوا: سورة يوسف قصة من القصص ولا يجوز أن تكون قصة الفسق قرآناً.

والشعبية منهم مثلهم إلا في القدر.

وكذا الخمرية إلا أنهم قالوا: أطفال الكفار في النار.

والحازمية : وافقوا الشعبية والخليفية أضافوا القدر خيره وشره إلى الله لكن ذكروا مفاسد أخرى، وقالوا: أطفال الكفار في النار بلا شرك أو عمل.

والأطرافية: غذروا أهل الأطراف فيما لم يعرفوا من الشريعة إذا أتوا بما يعرف لزومه.

والمعلومية كالحازمية إلا أنهم زادوا أن المؤمن من يعرف الله بجميع أسمائه وصفاته وغيره جاهل لا مؤمن وفعل العبد مخلوق الله.

وكذا المجهولية إلا أنهم قالوا: يكفي في إيمان الشخص معرفة بعض أسمائه تعالى.

والصلتية: قالوا: من أسلم واستجار بنا توليناه وتبرينا من أطفاله حتى يبلغوا فيدعوا إلى الإسلام.

والثعالبية : قالوا: إن الأطفال لهم ولاية ويروى عنهم أخذ الزكاة من أغنياء العبيد والإعطاء لفقرائهم ومفاسد أخر كثيرة. ومع ذلك افترقوا أربع فرق مخالف كلٌّ الأخرى في بعض من ذلك.

الأخنسية والمعيدية والشيبانيّة والمكرمية: والرابع من الأصول المرجئة كلهم قالوا: لا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة. وقيل: لا يقطعون في أهل الكبائر بشيء من العفو والعقوبة بل يرجئون الحكم في ذلك إلى يوم القيامة. وهم خمس فرق:.

اليونسية : قالوا: الإيمان هو المعرفة بالله والخضوع له والمحبة بالقلب ولا يضر معها ترك الطاعة وارتكاب المعاصي ولا يعاقب عليها وإبليس كان عارفاً بالله وإنما كفر استكباراً

والعبيدية: زادوا عليهم أن علمه تعالى غير ذاته وكذا باقي في صفاته وهو على صورة الإنسان لحديث خلق الله آدم على صورة الرحمن.

**والخوارج**[16] المفترقة سبع فرق وقيل: خمس عشرة. و **المرجئة**[17] المفترقة خمساً، و **النجارية**[18] المفترقة ثلاثاً، والجبرية المفترقة فرقتين، و **المشبهة**[19] المفترقة ثلاثاً، والمعتزلة المفترقة عشرين فرقة وقيل: اثنتي عشرة وذلك لأنهم أول فرقة

---

والفسالية: قالوا: الإيمان هو المعرفة بالله ورسوله ومما جاء من عندهما لا تفصيلاً بل إجمالاً بأنه مثلاً فرض الحجّ ولا ندري الكعبة ولعلها بغير مكة وبعث الرسول ولا ندري أهو الذي بالمدينة أم غيره وحرّم الخنزير ولا ندري أهو هذه الشاة أم غيرها.

والثوبانية: قالوا: الإيمان هو المعرفة والإقرار بالله ورسوله وبما لا يجوز من الأفعال وهؤلاء كلهم اتفقوا على أنه تعالى لو عفا عن عاصٍ أو أخرج واحداً من النار لفعل ذلك بمن هو مثله ولم يجزموا بخروج المؤمنين من النار.

والتومنية: قالوا: الإيمان هو المعرفة والتصديق والمحبة والإخلاص والإقرار بما جاء به الرسول وترك بعضه كفر ويقال لمرتكب المعصية فَسَقَ وعَصى ولا يقال لهم: فاسق. ولهم مفاسد أخر والخامس من الأصول:

النجارية: وهم يوافقون أهل السنة في كون الأفعال مخلوقة الله والعبد كاسب لفعله والاستطاعة مع الفعل.

والمعتزلة في باقي الأمور وهم ثلاث فرق:

البرغوتية: قالوا: كلام الله إذا قرىء فهو عرض وإذا كتب فهو جسم.

والزعفرانية : قالوا: كلام الله غيره وكل ما هو غيره فهو مخلوق.

والمستدركة : قالوا: كلام الله مخلوق مطلقاً وأقوال مخالفينا كلها كذب حتى قولهم: لا إله إلا الله.

والسادس من الأصول:

الجبرية: والجبر إسناد فعل العبد إلى الله وهم فرقتان: الأشعرية والنجارية: قالوا كلهم بالجبر المتوسط وهو كون فعل العبد مخلوقاً لله تعالى ومكسوباً للعبد بلا تأثير فيه.

والجهمية: قالوا: لا قدرة للعبد في أفعاله أصلاً، لا تأثيراً ولا كسباً بل بمنزلة الجمادات والميت بيد الفاسل وهو الجبر المحض. وقالوا: أن الله لا يعلم الأشياء قبل وقوعها فعلمه حادث لا في محلّ ولا يتصف بما يوصف به غيره كالعلم والحياة، وأن الجنة والنار يفنيان بعد دخول أهلهما فيهما حتى لا يبقى سوى الله.

ووافقوا المعتزلة في نفي الرؤية وخلق الكلام وإيجاب المعرفة بالعقل قبل ورود الشرع.

والسابع من الأصول: المشبهة : كلهم شبهوه تعالى بالمخلوقات، لكن اختلفوا في كيفيته إلى ثلاث فرق: فمشبهة غلاة الشيعة قالوا: إنه جسم على صورة إنسان بل رجل من نور على رأسه تاج وقلبه منبع الحكمة ويصح عليه الحركة والحلول في الأجسام ومشبهة الحشوية قالوا: إنه جسم لا كالأجسام من لحم ودم لا كاللحوم والدماء وله جوارح ويجوز عليه الملامسة والمصافحة للصالحين الذين يزورونه في الدنيا ويزورهم.

ومشبهة الكرامية : اختلفوا على أقوال فقال أكثرهم: أنه على العرش من جهة العلوّ ويجوز عليه الحركة والنزول ويتصوت من ثقله للعرش. وقال بعض على جهة العرش غير مماس له، وقيل غير ذلك وكلهم قالوا: بحلّ الحوادث التي يحتاجها لخلق العالم.

ومن الأفاضل من عدّ الأصول ستة بإسقاط النجارية وفرق المعتزلة إلى اثني عشر بإسقاط الإسوارية، والإسكافية، والجعفرية، والهشامية، والصالحية، والعمرية، والمعمرية، والهشميّة، والشيعة إلى اثنين وثلاثين بزيادة: اللسانية، والباقرية، والناوسية والشمطية والأفحصية والوافقية، والمرسومية والاثني عشرية، والعليانية، والكنانية، والهائمية، والنعمانية، والفضيلية، والمتناسخية، لكن أربعة من هذه تبديلية كأسماء أخر في كلامه.

والخوارج: خمسة عشر بزيادة الأومانية وبعض من فروع العجارية والجبرية ثلاثة: الجهمية والنجارية والضرارية وجعل غلاة المشبهة خمس فرق فتمت مع الناجية ثلاثاً وسبعين ولا يخفى أن كلًّا من أسمائها منسوب إلى واضع ذلك المذهب فإن أشكل عليك شيء منها أو أردت تحقيق مذاهبهم وتفصيله على الكمال فراجع كتاب «الملل والنحل» للشهرستاني أو «شرح المواقف» تنل المحال.

[15] المعتزلة أصحاب واصل بن عطاء تلميذ ابى الحسن البصري. يسمون بأصحاب العدل والتوحيدكما يلقبون بالقدرية والعدلية. افترقوا فيما بينهم إلى فرق كل فرقة تكفر سائرها، يجمعهم القول بنفي الصفات القديمة لله تعالى ،والقول بالمنزل بين المنزلتين،والوعد والوعيد،والقول بالقدر،ووجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على العبد ورعاية الأصلح للعبد على الله تعالى.فلينظر:التعريفات للجرجاني، 198؛مقالات الإسلاميين لأبى الحسن الأشعري،155-178، والفرق بين الفرق للبغدادي،76-122،والملل والنحل للشهرستاني ،43/1-91

[16] هم الذين خرجوا على علي بن أبي طالب(ض) فى البداية،ثم تفرقوا عشرين فرقة يجمعهم إكفار معظم الأصحاب القريش. خالفوا حصر الإمامة بقريش، وقالوا إمامة كل مؤمن نصبوه برأي المؤمنين وافقوا المعتزلة فى القول بالتوحيد، القرآن، الوعيد وبعض

أسسوا قواعد الخلاف لما ورد ظاهر السّنّة وجرى عليه الصحابة وزاغ قلوبهم إلى متابعة متشابهات الكتاب وترك المحكمات التي هي أم الكتاب

فإن رئيسهم **واصل بن عطاء**[20] اعتزل من مجلس **الحسن البصري**[21] من التابعين إلى اسطوانة من اسطوانات المسجد يقرر أن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر. ويثبت المنزلة بين المنزلة، أي الواسطة بين الإيمان ومطلق الكفر. والحسن كما سيأتي يقول: ليس بمؤمن ولا كافر مجاهر؛ لأنه منافق عنده والنفق نوع من الكفر فقال الحسن: قد اعتزل عنا فسموا المعتزلة.

وهم سموا أنفسهم" أصحاب العدلوالتوحيد" لقولهم بوجوب ثواب المطيع وعقاب العاصي على الله ونفي الصفات القديمة عنه

ثم إنهم توغلوا في علم الكلام وتمسكوا بأذيال الفلاسفة في كثير من الأصول وشاع مذهبهم إلى أن أفحم **الشيخ أبو الحسن الأشعري**[22] البصري الشافعي إمام عقيدتنا أستاذه **أبا علي الجبائي**[23]كما هو المشهور واشتغل هو ومن تابعه بإبطال رأيهم وإثبات وما وردت به السنة وجرى عليه الصحابة فسمّوا: أهل السنة والجماعة، وهم المنتشرون في أكثر بلاد الإسلام كخراسان والعراق والشام ومصر وغيرها من البلاد . ولذا[24] صار الناس يقولون: فلان عقيدته صحيحة أشعرية وليس المراد التعريض بعقيدة من وراء نهر جيحون من **أصحاب أبي منصور الحنفي**

---

[17] هى فرقة تكلمت فى الإيمان، والعمل، زعموا أن الكفر جهل بالله و الإيمان به المعرفة به. وبرسله، وما جاء به فقط. ويفرقون بين الإيمان والعمل بعضهم يميلون الى المعتزلة وبعضخم الى اهل السنة . راجع: الفرق بين الفرق للبغدادي 122، ومقالات الإسلاميين للاشعري، 132-154؛ وكشاف اصطلاحات الفنون للتهوني 525/1-526 والملل والنحل للشهرستاني،139/1-146

[18] اصحاب حسين بن محمد النجار الذى مات سنة حوالي 844/230. خالفوا المعتزلة في القدر ونفي صفات القديمة لله تعالى ،ويقولون بالإرجاء، وأن الإيمان هو المعرفة بالله، ورسوله وفرائضه المجمع عليها،ووافقوا أهل السنة فى خلق الله افعال العباد وكون الإستطاعة مع الفعل وفى ابواب الوعيد، وجواز العفو للمذنبين. فليراجع:الفرق بين الفرق للبغدادى، 126-127؛وكشاف اصطلاحات الفنون للتهاوني، 1382/3-1383؛والملل والنحل للشهرستاني،88/1=90

[19] المشبهة: الذين شبهوا الله تعالى بالمخلوقات، غلوا فى صفاته جل جلاله وأجروا ما ورد من المتشابهات فى النصوص على ظواهرها وزادوا فى الأخبار أحاديث موضوعة، أكثرها مقتبسة من اليهود.منهم من مال إلر الحلولية. راجع:الملل والنحل، للشهرستاني، 103/1-108؛ والتعريفات للجرجاني، 192؛ والفرق بين الفرق للبغدادي 132-141

[20] وهو من كبار مذهب المعتزلة ولد فى مدينة فى سنة 80،هـ وتوفى سنة 131 هـ. راجع، كتاب طبقات المعتزلة، لإبن المرتضاء بيروت، 1988، ص.3؛ ابو الفتح محمد عبد الكريم، الملل والنحل، تحقيق، أحمد فهمى محمد، بيروت، ص. 42؛ إبن نديم، أبوا لفرج محمد بن ياقوب، الفهرست، تحقيق، ألشيخ إبراهيم رمضان، بيروت، 1997، ص.209.

[21] هو حسن إبن يسار البصري أبو سعيد التابعي كان إمام أهل البصرة وحبر الأمة فى زمانه وهو أحد علماء الفقهاء الفصحاء ولد بالمدينة عام 21 هـ وتوفى بالمدينة عام 110،هـ . راجع وفيات الأعيان ، 108/1.

[22] مات سنة 935/324، من مؤلفاته :مقالات الإسلاميين، الإبانة عن أصول الديانةن لأجل المعلومات المزيدة راجع تاريخ بغداد للخطيب البغدادي :11 /345 ؛ووفيات العيان لابن خلكان،284/111-286، وشذورات الذهب لابن العماد الحنبلى 303/1-305

[23] اسمه محمد بن عبد الوهاب أخذ الكلام عن الشحام، كان اهل خوزستان، والمعتزلة البصرية فى زمانه على مذهبه مات سنة 915/303، راجع الفرق بين الفرق للبغدادي 111-115

[24] ب:حتى

**الماتريدي**[25] المنسوب إلى ماتريد من قرى سمرقند؛ لأن عقيدتهم أيضاً صحيحة . ما بينهم وبين الأشاعرة اختلاف إلا في مسائل قليلة لا توجب ضعفاً في العقيدة، كمسألة التكوين وإيمان المقلّد وقول المؤمن: أنا مؤمن إن شاء الله كما يأتي.

وقد اتضح مما تقدم أن الخوض في هذا العلم على طريق المتقدمين في تحرير الأدلة وتدقيقها ودفع الشكوك والشبه عنها فرض كفاية في حق المتأهلين، بل هو أولى بذلك من سائر واجبات الدين.

وما نقل عن بعض السلف من الطعن فيه والمنع منه كقول **الشافعي**[26] لبعض أصحابه: عليك بعلم الفقه والحديث(ب/1) وإياك وعلم الكلام. فلأن يقال: أخطأت خير من أن يقال: كفرت. فمحمول على من يخشى منه الوقوع في الشبه المضلّة المبعدة عن اليقين أو يقصد التعصب وإفساد عقائد المسلمين. أو يخوض فيما لا يفتقر إليه من غوامض المتفلسفين الذين دأبهم تضييع العمر فى التأويلات والخوض فيما لا يعني بل يضر بالدين كما فيما عليه الآن كلام المتأخرين. فإنه لما نقلت الفلسفة إلى العربية حاولوا الردّ على ما خالفت فيه الشريعة فخلّطوا بالكلام كثيراً منها ليتحققوا مقاصدها فيتمكنوا من إبطالها. فأفضى ذلك إلى أن أدرجوا فيه معظم الطبيعيات والإلهيات وخاضوا في الرياضيات حتى كاد لا يتميز عن الفلسفة لولا اشتماله على السمعيات واحتوى على ما لا دخل له في الاعتقاديات لتحقيق معنى الجوهر والعرض وغيرهما مما لا مطالبة بإهماله يوم كشف الخفيات.

## مبحث العلم

**ولما كان مبناه** على الاستدلال بوجود المحدثات على وجود الصانع الحكيم وتوحيده وصفاته وأفعاله ومنها إلى سائر السمعيات ناسب تصديره بوجود ما نشاهد من الأعيان والأعراض وتحقق العلم بها ليتوسل بذلك إلى معرفة ما هو المقصود الأهم.

فلذا جعل النسفى[27] مفتتحه.

"قال أهل الحق: حقائق الأشياء ثابتة والعلم تصوراً وتصديقاً بثبوتها متحقق خلافاً للسوفسطائية "[28] فقد أنكرها العنادية منهم وزعموا أنها أوهام وخيالات باطلة رأساً. لا على الوجه الذي عنى بعض أهل البصيرة بقولهم:

**كل ما في الكون وهم أو ظلال أو عكوس في المرايا، أو خلال**[29]

---

[25] وهو محمد بن محمد بن محمود أبو منصور الماتريدي من أئمة علماء الكلام نسبته الى ماتريد محلة بسمرقند ومات هناك فى عام 333 هـ ، راجع مفتاح السعادة 2/ 21.

[26] اسمه محمد بن إدريس ابو عبد الله الشافعي ولد فى غزة وحمل منها إلى مكة وهو فى ستة، زار بغداد، وقصد مصر سنة 199 هجرية، فتوفي بها سنة 819/204 أحد الأئمة الأربعة ،وإليه تنسب الشافعية،كان شاعرا ايضا.من مؤلفاتها الأم، أحكام القرآن، الرسالة فليراجع: الأعلام للزركلي 249/5-250.

[27] هو ميمون بن محمد النسفى ، من كبار علماء مذهب الماتريدية، ولد فى بلدة اسمه نسف قريب من السمرقند وتوفى فى عام 1115. راجع كتاب الأعلام، للزركلى، 301/8

[28] فرقة انكرت الحسيات، والبدهيات، وغيرها؛ ينشعبون ثلاث فرق: اللادرية، والعنادية، والعندية. راجع: كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي. 666-665/2

**"ألا كل شيء ما خلا الله باطل"[30]**

**رأيت خيال الظل أكمل عبرة   لمن كان في عالم الحقيقة رادياً**

**شبوح وأشخاص تمر وتنقضي   وتفنى جميعاً والمحرك باقياً[31]**

وزعم العندية أنها تابعة للاعتقادات حتى إن اعتقدنا الشيء جوهراً فجوهر أوعرضاً فعرض، أو إنساناً فإنسان أو فرساً ففرس وتحيرت اللاأدرية فيها ثبوتاً ولا ثبوتاً. والأمر أظهر من الاشتغال بالرد عليهم وإبطال كلامهم لا سيما اللاإرادية؛ لأنهم لا يعترفون بمعلوم ليثبت به مجهول بل الطريق تعذيبهم بالنار ليعترفوا أو يحترقوا.

و**العلم** عند الحكماء القائلين بالوجود الذهنيّ:

الإدراك المفسَر بحصول صورة الشيء في العقل، أي انتقاش النفس بالصورة الحاصلة من الشيء عند من يقول: أنه من مقولة الانفعال. والصورة الحاصلة عند من يقول: أنه كيف.

**فالإدراك:** بلا حكم معه من إدراك وقوع النسبة أو لا وقوعها تصور ساذج. وبه أي الإدراك للنسبة وطرفيها مع الحكم تصور بتصديق، وهو الحكم والتصور شرطه لا شطره كما على رأي أن التصديق التصور مع الحكم .

فالمدرك للكليات والجزئيات هو العقل بل النفس الناطقة ونسبة الإدراك إلى قواها كنسبة القطع إلى السكين سواء قلنا أن صور الجزئيات المادية غير مرتسمة فيها؛ لأنها بسيطة مجردة وتكيفها بالصور الجزئية ينافي بساطتها موجب لانقسامها بانقسامها. أو قلنا: أنها أيضاً كالكليات والجزئيات المجردة(أ/ 2) مرتسمة فيها وإن كان الحواس طرق ذلك الارتسام فإنه ما لم يفتح البصر مثلاً لم يدرك الجزئي المبصر ولم ترتسم فيها صور وإن فتح ارتسمت.

وهذا هو المذهب الحق المنصور ولا يلزم منه تكيف النفس بكيفياتها من نحو الانقسام والحرارة والبرودة؛ لأن ذلك الارتسام لا يلزم أن يكون على وجه قيام ماهيات تلك الأشياء بها وسريانها فيها بل على وجه الحصول الظلّي لا العيني فلا يلزم شيء من ذلك. وهو: سواء كان حضورياً كعلمنا بذواتنا، أو حصولياً كعلمنا بالمدركات الخارجية:

**إما ضروري،** أي بديهي يحصل بمجرد التفات النفس إلى العلوم من غير حاجة إلى نظر وكسب وذلك إما لموجب حسي كالعلم الحاصل بالحواس الظاهرة ويقرب منه العلم بالوجدانيات كالألم واللذة والجوع والعطش والغضب والحلم، أو من العقل فقط بأن يكون تصور الطرفين كافياً في إدراك النسبة كتصور الحرارة والتصديق بأن الكل أعظم من الجزء ومثله قضايا قياساتها معها كالأربعة زوج لانقسامها متساويين ، أو مركب من السمع والعقل

---

[29] البيت مطلع غزل للعارف عبد الرحمن الجامي في ديوانه.

[30] قائل هذا البيت لبيد. وليس مما قبله.ورد هذا الحديث – من غير ذكر الشّطر الثّاني من البيت – في صحيح البخاريّ، كتاب الأدب، باب ما يجوز من الشّعر والرّجز والحداء وما يُكره منه، 64/8، و صحيح مسلم، كتاب الشّعر، 1768/4، و سنن التّرمذيّ، كتاب الأدب، باب ما جاء في إنشاد الشّعر، 140/5، و سنن ابن ماجه، كتاب الأدب، باب الشّعر، 1236/2.

[31] راجع ديوان عبد الغني النابلسي

كالمتواترات، أو من سائر الحواس والعقل وهي المجربات والحدسيات ومثلها كل ظنّي حفت به قرائن. فإفادته العلم إنما هي بها.

والظاهر جواز اختلاف الضروريات ظهوراً وخفاء. ومنهم من منع ذلك وقال: ما يوجد من التفاوت بين نحو المتواتر، وقولنا "الواحد نصف الاثنين" إنما نشأ من الاستيناس وكثرة الاستعمال.

**وإما نظري** مكتسب من الاستدلال والنظر الذي هو ترتيب أمور معلومة تصورية أو تصديقية للتأدي إلى مجهول.

**والدليل** لغة: المرشد وما به الإرشاد واصطلاحاً: هو المركب من مقدمتين للتأدّي إلى العلم بمجهول تصديقي. وبعبارة أخرى ما يلزم من العلم به العلم بشيء آخر والأول أولى من وجوه. والأصوليون لم يأخذوا الصورة معه فعرفوه: بما يمكن التوصل بصحيح النظر فيه أو في أحواله إلى مطلوب خبري فهو عندهم ينقسم **إلى مركب** ينظر فيه بالترتيب وتحصيل الهيئة كنفس المقدمتين المشتملة صغراهما على موضوع المطلوب وكبراهما على محموله بدون الصورة **وإلى مفرد** ينظر في أحواله بتحصيل تلك المقدمتين واقترانهما بحيث تحصل صورة القياس: كالعالم لوجود الصانع والنار لوجود الدخان **وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ**[32] لوجوبها. ويقال: لكليهما المادة والإمكان يكون قبل الفكر فيهما بما قلنا. أما بعده بأن نقول العالم حادث وكل حادث له صانع ؛ والنار شيء محرق وكل محرق له دخان؛ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ أمرٌ بها وكل أمر بشيء لوجوبه حقيقة فالتوصل به إلى المطلوب محقق البتة. فحينئذٍ عندهم أيضاً يصحّ أن يقال أنه قياس قطعي وبرهان أن قطع بكلٍّ من مقدمتيه سواء كان استدلالاً من العلة على المعلول أوبالعكس كالمثال الأول وإلا فظني وأمارة كالأخيرين . والتعميم على طريقهم وطريقة الفقهاء؛ لأن مطلوبهم العمل وهو لا يتوقف على العلم بخلاف الحكماء والمتكلمين فإن مطلوبهم العلم. ولذا زادوا لفظه في تعريفه.

**والتعريف** ويرادفه الحدّ عند الأصوليين وعلماء العربية (ب/2)هو:

'ما يميز الشيء عن غيره'؛ وتقسيمه إلى الحد التام والناقص والرسم التام والناقص والتعريف اللفظي بالأشهر كالعُقار الخمر اصطلاح الميزان؛ وشرط كل الإطراد بأن يوجد المحدود كلما وجد المانع [33] والانعكاس بأن يوجد الحد كلما وجد المحدود وهو الجامع.

وقد يطلق العلم على مطلق التصديق ويقابله المعرفة التي هي التصور. وعديت لواحد وهو لاثنين كعلمته قائماً. ولهذا اقتضائها سبق جهل. لا يقال: 'الله سبحانه عارف' بل' عالم'

وأشهر معانيه؛ التصديق الخاص وهو: حكم الذهن الجازم المطابق للواقع لموجب مما ذكر؛ فالجازم المطابق لغير موجب مما ذكر **اعتقاد صحيح وتقليد** ؛ وغير الجازم **شك** إن استوى طرفاه.

---

[32] البقرة:43

[33] ب:المنع

وقد يطلق مجازاً أو لغة على **مطلق التردّد** الشامل للظن والوهم. ومنه قول الفقهاء: 'من تيقن طهراً أو حدثاً وشك في ضده '؛ وإلا فالراجح **ظنّ**؛ وقد يسمى علماً كعكسه مجازاً. قال تعالى: { **فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ**}[34]، أي ظننتموهن. وقال: { **الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاَقُو رَبِّهِمْ** }[35] أي يعلمون. والمرجوح **وهم**؛ وغير المطابق **اعتقاد فاسد** وسمي **جهلاً مركباً** ؛ **فالبسيط**: ما لا إدراك فيه أصلاً وزوال ذلك الحكم بحيث يعود بأدنى التفات **سهو**؛ وإلا **فنسيان**.

**والمتكلمون** لما أنكروا الوجود الذهني ذهبوا إلى أن العلم :'صفة حقيقية قائمة بالنفس ذات إضافة لا تعدّد فيها أصلاً بل تفاوتها [36] بكثرة تعلقاتها لا جزئياتها يخلقها الله بعد استعمال الأسباب فقالوا: هو صفة يتجلى بها المذكور لمن قامت به، أي يتضح ويظهر ما يذكر ويمكن أن يعبر عنه موجوداً كان أو معدوماً فيشمل إدراك العقل من التصورات والتصديقات اليقينية وغير اليقينيات وإدراك الحواس.

والقول "بأنه يلزم منه أن تكون البهائم من أولي العلم وهو مخالف للعرف واللغة " مدفوع بأن المراد بإدراك الحواس إدراك العقل بالحواس أو بأن العلم المنفي عنها العلم الغير الإحساسي فلا مخالفة.

وأما قولهم: صفة توجب تمييزاً لا يحتمل النقيض، أي لا يحتمل متعلق التمييز نقيض التمييز، فهو وإن كان شاملاً لإدراك الحواس بناء على عدم التقليد بالمعاني وللتصورات بناءً على أنها لا نقائض لها على تفسير المتناقضين بالمتنعين لذاتهما إجماعاً وارتفاعاً لا بالمتنافيين لذاتهما وإن ذهب إليه كثيرون لئلا تنخرم كثير من قواعد المنطقيين فلا يشمل غير اليقيينات . إذ المراد بالتميز ما به التميز، أي الأمر الذي به تميز النفس الشيء وهو في التصور الصورة ومتعلقه الماهية المتصورة. وفي التصديق النفي والإثبات ومتعلقه الطرفان مثلاً إذا تعلّق علمنا بماهية الإنسان حصل عند النفس صورة مطابقة لها لا نقيض لها أصلاً بها تميزها عما عداها. وإذا تعلق بأن العالم حادث حصل عندنا إثبات أحد الطرفين للآخر بحيث تميزه عما عداه لكن قد يكون مطابقاً جازماً مأخوذاً به من بداهةٍ أو حس، أو دليل فلا يحتمل النقيض، أعني النفي . وقد لا يكون فيحتمله لكن[37] العلم عندهم مقابل للظن فينبغي أن يحمل التجلي على التجلي التام فيتحدان .

ثم إنهم لم يثبتوا الحواس الخمس الباطنة لما أن إثباتها مبني على ما زعموا في أن النفس لا تدرك الجزئيات المادية وعلى أن الواحد لا يكون مبدأ لأثرين مختلفين والكل باطل لدى(أ/3) أهل الإسلام. ولم يكن لهم غرض بتفاصيل الحدسيات والتجربيات والبديهيات والنظريات. وكان مرجع الكلّ إلى العقل ورأوا أن معظم المعلومات الدينية مستفاد من الخبر الصادق فأعرضوا عن تدقيقات الفلاسفة وجروا على المقصود الظاهر فقالوا: أسباب العلم للخلق من الإنس والجن والملك لا الباري تعالى فإن علمه حضوري قديم بديهي لا عن سبب ثلاثة.

---

[34] الممتحنة:10

[35] البقرة:46

[36] ب: لا تفاوت إلا بكثرة تعلقاتها

[37] ب:لك أن تقول أن

**الحواس السليمة**: السمع والبصر والشم والذوق واللمس لا يطلع بكل منها إلا على ما وضعت هي له ، وأما حس الحرارة مع الحلاوة مثلاً بالذائقة، فلما أودع فيها من قوة اللمس أيضاً وحس الانعواج والاستقامة لدى اللمس إنما هو بالعقل من كيفية المسّ وتعدّده.

**والخبر الصادق** المنقسم إلى

**المتواتر الجاري على ألسنة قوم** لا يتصور تواطؤهم على الكذب ومنه خبر الإجماع ومصداقه حصول اليقين الناشيء من الكثرة لا العدد المعين كاثني عشر أو عشرين أو أربعين أو سبعين أو ثلثمائة وثلاثة عشر كما ذهب إلى كلٍّ بعضٌ تمسكاً بقوله تعالى: { **وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا** }[38] و{**إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ** }[39] {**يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** }[40] ، وكانوا أربعين، { **وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً**}[41] وما جاء في عدد أهل بدر وأن الغزوة تواترت عنهم .

**وإلى خبر الرسول المؤيد رسالته** بالمعجزة ومنه خبر الله والملك لأنه إنما يفيد بالوصول إلينا من الرسول.

ولذا صحّ أن الإلهام المفسر بإلقاء معنى في القلب بطريق الفيض لذوي النفوس القدسية المجردة عن العوائق المهذبة: الظاهر والباطن ليس بحجة وإن يقع كثيراً. والعلم الثابت به يضاهي العلم الثابت بالضرورة في التيقن والثبات لاستناده إلى الوحي المفيد لحق اليقين ، لكن بعد العلم بوجه الدلالة بطريق القطع فلا ينافي ما اشتهر وتقرر في الأصول من أن الأدلة النقلية ظنيات فإن ذلك إنما هو للاحتياج إلى معرفة الأوضاع والألفاظ وكون اللفظ حقيقة أو مجازاً، وأما لدى الجزم بوجه الدلالة فلا ريبة في حصول القطع.

**والعقل** وما ثبت له بالاستدلال والنظر فكسبي أو بدونه فضروري فيندرج فيه سائر البديهيات وسائر اليقينيات. وقد يقال: الضروري في مقابلة مطلق الكسبي ويفسر بما لا يكون تحصيله مقدوراً للمخلوق بأن يحدثه الله في نفس من غير كسبه واختياره بنحو صرف العقل والفكر والإصغاء وتقليب الحدقة ونحو ذلك كعلمه بوجوده وتغير أحواله.

## مبحث الوجود

**والعالم** أي ما يعلم به الصانع مما سوى ذات الله وصفاته من أجناس الموجودات بجميع أجزائه من السموات وما فيها حتى العرش والكرسي والأرض وما فيها حيّها وجمادها محدث، مخرج من العدم إلى الوجود بمعنى أنه كان مسبوقاً بالعدم سبقاً زمانياً فوجد بعده بعدية زمانية بإجماع السلف من المحدثين وأئمة الإسلام وأهل السنة والجماعة والمخالف في ذلك الفلاسفة فقط حيث ذهبوا إلى قدم السموات بموادها وصورها وأشكالها فمنعوا عليه

---

[38] المائدة:12

[39] الأنفال:65

[40] الأنفال:64

[41] الأعراف:155،

الخرق والالتئام[42] وإلى قدم العناصر بموادها وصورها لكن بالنوع بمعنى أنها لم تخل قط عن صورة وقيل بالجنس حتى جوزوا حدوث نوع النار مثلاً لكن بشكل (ب/ 3)بقاء صور الاستقصات الأربعة فى أمزجة المواليد القديمة بالنوع عندهم فمن قال بالنوع مال إلى هذا أو أراد النوع الإضافي. وهم أيضاً قد أطلقوا القول بحدوث ما سوى الله لكن بمعنى الاحتياج إلى الغير لا بمعنى سبق العدم عليه فهو عندهم مسبوق بالعدم الذاتي لا الزماني وذلك مجرد اصطلاح لهم وحكي أن **أفلاطون** قائل بحدوثها الزماني ويردّه ثبوت قوله بقدم النفوس الإنسانية والبعد المجرد. ونقل عن **جالينوس** التوقف فيه ولذا لم يعدّ من الفلاسفة لتوقفه فيما هو من أصول الحكمة عندهم. وقد بالغ المتكلمون في تضعيف ما روّجوا به مذهبهم

## دليل حدوث العالم

**واستدلوا على الحدوث** بأن العالم:

**إما أعيان** قائمة بذواتها بمعنى غير تابعة في التحيز لغيرها أو مستغنية عن محل يقومها وذلك:

**الجسم المركب** من جزئين فصاعداً. **والجوهر الفرد[43]** الذي لا يقبل الانقسام لا فعلاً ولا وهماً ولا فرضاً وهو الجزء الذي لا يتجزى.

**وإما أعراض[44]** قائمة بالموضوع، يعني تابعة في التحيّز أو مختصة به اختصاص الناعت بالمنعوت على خلاف بين المتكلمين والفلاسفة في تفسير كليهما. و **قولهم** بوجود العقول والنفوس المجردة الغير [45] المتحيزة ضعيف . وكل منهما متغير فيكون حادثاً

**فالأعراض يدرك تغير بعضها بالمشاهدة** في الأنفس كانقلاب النطفة علقة ثم مضغة ثم انقسامها عظاماً وعصاباً وعروقاً وأعضاء ظاهرة وباطنة ولحماً ودماً إلى غير ذلك. وفي الآفاق ك **الحركة**: التي هي كون ثانٍ في مكان ثانٍ، أي كونين في آنين في مكانين بعد **السكون**: الذي هو كون أول أو ثانٍ في مكان أوّل والضوء بعد الظلمة والسواد بعد البياض وسائر ما نشاهد من أحوال الأفلاك والعناصر والحيوان والنبات والمعادن.

**وبعضها الغير المشاهد** كالذي في باطن الأرضين وفي السموات بالدليل العقلي وهو طريان العدم فإن القدم ينافي العدم.

**وأما الأعيان** فلأنها لا تخلو عن الحوادث كالأكوان، أي الحركة والسكون والاجتماع والافتراق والأوضاع، أي كالتباعد والتقارب والألوان والطعوم والروائح فقدمها محال.

---

[42] زائد فى ب:أو الكون والفساد

[43] قال ابن سينا: الجوهر هو كل ما وجود ذاته ليس فى موضوع أى فى محل قريب قد قام بنفسه دونه لا بتقويمه، النجات، ص. 126

[44] العرض ضد الجوهر لأن الجوهر هو ما يقوم بذاته ولا يفتقر الى غيره ليقوم به على حين أن العرض هو الذى يفتقر الى غيره ليقوم به فالجسم جوهر يقوم بذاته أمااللون فهو عرض لأنه لا قيام له الا بالأجسام، النجاة، لإبن سينا، ص.324 .

[45] ب:القائمة بذواتها

**وقد أطال المتصوفة** أيضاً في هذا المطلب سيما ابن عربي وما توهم من بعض عباراته أنه يقول بقدم العالم فهو كذب وافتراء عليه كيف لا وأنه بعدما قال: لم يبلغنا أن أحداً عرف مدة خلق العالم على التحديد . عمرها لا يحصى بآلاف الألوف، وأطال عليه، صرح بأن التاريخ في ذلك مجهول مع حدوث العالم بلا شك عندنا انتهى.

ويؤيد ما قال في عمرها ما روى ابن عباس [46] عن النبي (ص): **أنه تعالى خلق مائتي ألف آدم** .[47] وفي بعض الكتب: أنّ ذلك بعد أن خلق سبعين ألف مدينة مملوءة خردلاً وطيراً قدر عصفور. وقال: هذا رزقك متى استوفيته مت فجعل من خوف الموت يأكل كل يوم حبة ثم كل أسبوع ثم كل شهر ثم كل سنة ثم أمسك الحبة الأخيرة في منقاره ما شاء الله سنين ثم بلعها وقال: ربّ ما رزقتني رزقاً كثيراً ولا عمراً طويلاً ثم خلق ملأ تلك المدن أناساًعبدوه(أ/4) ما شاء الله ، ثم أهلكهم وضرب بعض المدن ببعض بسبب أدنى كلام صدر من أحدهم.[48]

ومما يدل على طول مدتها وعدم تعينها نحو قوله تعالى: { **وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا** }[49] و{ **مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ** }[50] ، وقول اليهود: { **لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَعْدُودَةً** }[51] زاعمين أن مجموع مدة الدنيا سبعة آلاف سنة لا نعذب إلا عن كل ألف يوماً باطل بالكلية.

## دليل ثبوت الجزء لا يتجزىء

ثم إن أقوى أدلة المتكلمين على أن الجزء الذي لا يتجزىء ثابت وإن لم ير إلا بانضمامه إلى غيره أنه لو وضع كرة حقيقية على سطح حقيقي لم تماسه إلا بجزء غير منقسم وإلا لم تكن كرة حقيقية وأشهرها: أنه لو كان كل عين منقسماً لا إلى نهاية لم تكن الخردلة أصغر من الجبل. وأن اجتماع أجزاء الجسم ليس لذاته وإلا لما قبل الافتراق فالله قادر على أن يخلق الافتراق إلى ما لا يتجزى . **وضعّف الأول** بأنه إنما يدلّ على ثبوت النقطة وهو لا يستلزم الجزء لأنها عرض حلولها ليس بسريانيّ

**والثاني والثالث** بأن الفلاسفة لا يقولون بأنّ الجسم مؤلف من أجزاء بالفعل وأنها غير متناهية بل أنه قابل لانقسامات غير متناهية وليس فيه اجتماع أجزاء أصلاً وأن العظم والصغر باعتبار المقدار القائم به والافتراق يمكن لا إلى نهاية فلا يلزم الجزء.

---

[46] اسمه ع بد الله بن عباس بن عبد المطلب ،ولد بمكة،مصدر الأمة حديثا شهد مع على(ض) الجمل وصفينتوفي بالطائف سنة 687/68.راجع:الأعلام للزركلي،228/4-229

[47] لم اجده فى المراجع

[48] لم أجد هذا الحديث في كتب الصحاح.

[49] الفرقان:38،

[50] غافر:78

[51] البقرة:80

وأدلة الفلاسفة على النفي من نحو قولهم؛ لأنه لو وضع جزء بين جزئين فإما أن يمنع تلاقيهما فينقسم أو لا فيلزم تداخل الأجزاء لا تخلو عن ضعف أيضاً.

**ولذا توقف المحقق الرازي** في هذه المسألة والظاهر من توقفه ومن تقرير بعضٍ أن دعوى الحدوث يجري مع القول بتركب الأجسام من الهيولى والصورة أيضاً.

ويدل لذلك عدم تمسكهم في دعوى القدم بذلك صريحاً، كما ترى في دليلهم السابق وغيره لكن قال التفتازاني في شرح النسفية: | " ثمرة هذا الخلاف: أن في إثبات الجزء النجاة عن كثير من ظلمات الفلاسفة مثل إثبات الهيولى والصورة المؤدي إلى قدم العالم ودوام حركة السموات وامتناع الخرق والالتئام عليها ونفي حشر الأجساد وإضاعة الوعد والوعيد وإرسال الرسل والأنبياء ويلزم تكذيبهم فلا يثبت شيء من الشرائع والأحكام فهذا الأصل مضر بهم. وكذا نحو قولهم: أن الله لا يدرك الجزئيات إن لم نؤول بما يأتي وأن الواحد لا يصدر عنه إلا الواحد الذي بنى عليه بعضهم إثبات العقول العشرة وجعل المبدأ الفياض العقل العاشر المسمى بلسان الشرع «جبرائيل»، وقول بعضهم بالنسخ والحلول بخلاف نحو قولهم بكرويّة الأفلاك وتحركها واختلافاتها وتقسيماتها وهيئاتها وإحالة حدوث نحو المطر والثلج والبرد على حادثات الجو وإثبات الوجود الذهني والحواس الباطنة إلى غير ذلك فإنه لا ضير في الجري عليها حتى في تفاسير الآيات **قال الغزالي**: من لم يعرف التشريح والهيئة فهو عنين في معرفة الله وقال: قد رأيت للأفلاك في بعض أحوالي أربعاً وعشرين حركة، أي كما تقول الحكماء قال إبن العربى إياك من مبادرة الإنكار إلى ما قرع سمعك أنه قول الحكيم أوالمعتزلة لأنه ربما كان هو الوارد عن الشارع وأصحابه و على وفق آرائهم تكلم أكثر أهل الكشف فى محاوراتهم ومما يصدقهم أن هذه أدل على كمال قدرته تعالى وجلال عظمته لكن المعول على ما سيأتى مرويا عن الأحاديث وقد يقال أن الأحاديث وردت على وفق ما تستقربه عقول العوام ولا تستنصر به.

## الإستدلال على وجود الله

وإذا ثبت وتحقق أن العالم محدث(ب/4) وما من فعل وكونٍ في نحو الكتابة والبناء وسائر الصفات إلا ولا بد له من فاعل خالق إياه بالضرورة، فكيف بهذا الكون العجيب والنظام الغريب أن يكون بدون محدث قدير قديم، صانع حكيم منزه عن الحوادث والتغييرات بريء عما يوجب النقص والتبديلات مقدس عن الاتصاف بتجانس المخلوقات وهو الله جل جلاله وعم نواله

قال تعالى: {**أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ** }[52] ، أي لأنفسهم { **أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ** } الآية {**هو الله الذي**}[53] {**لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ**}[54] {**هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ**}[55]

---

[52] الطور:35

[53] الحشر:22,23

[54] الأنعام:102

[55] فاطر:3

وبهذا الاستدلال أزال وزير عن قلب سلطانه الشك في وجوده تعالى حيث عمل في بعض المفازات بساتين الأثمار والمياه وبنى فيها قصوراً عديمة النظير والأشباه ثم دعاه ذات يوم للضيافة إليها فتعجب وقال: كيف عمرت هذه المواضع الخربة القفراء، فقال: ما أنا عمرتها كانت كذلك إلى قريب من هذه الأيام فحضرتها يوماً فإذا هي على هذه الحالة فاشتد غضبه وقال: يليق بمثلك أن تستهزىء بي فقال: أطال الله بقائك إذا امتنع حدوث هذا القدر من العمارة بلا معمار ومصلح فكيف يتصور حدوث أعلانا وأسفلنا وما فيهما من العجائب والغرائب بدون مدبّر قدير فتنبه السلطان للاعتقاد الحق وبرىء من الشرك المطلق.

**وفي معنى هذه التبصرة ورد قوله تعالى** في قصة إبراهيم حين أراد أن ينبّه قومه على ضلالتهم في عبادة غير الله ويرشدهم إلى الحق من طريق النظر والاستدلال وكان إذ ذاك مراهقاً أو بالغاً ابتداء.

{**فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ**}[56] أي ستره بظلامه {**رَءَا كَوْكَبًا**}[57] وكان الزهرة أو المشتري {**قَالَ هَذَا رَبِّي**}[58] إلخ على وجه التسليم للخصم ومجاراته ليتمكن من إلزامه حيث نظر إلى الكوكب والشمس والقمر فوجدها مختلفة متغيرة صفاتها في غروب وطلوع ونقص ضوء وزيادة فأخرجها عن ربوبيته لعلّة اشتراكها في الأفول، أي الغروب والتنقل من حال إلى حال المنافي للألوهية وقد سمّى الله استدلاله **حجة** رضاءً به وإضافة إلى نفسه؛ لأنه كان من هدايته وعنايته حيث كان قد كشف عليه العرش والكرسيّ والأرض وما فيها فقال: { **وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ** }[59] وأرشدناه إليها ليستدل بها { **عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ** }[60] في العلم والحكمة. ثم قال لرسوله: {**وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا**}[61] في التوحيد والدعوة إليه بالرفق، وإيراد الدلائل لكل أحد على حسب فهمه وإن كان هو في ذاته ذا نفس قدسية غنية عن وساوس الأدلة لما أن في الوصول إلى معرفة ربّه بالاتقان والاستدلال وإقامة البرهان فائدة التمكن من إلزام المشركين وامتثال الأمة به في التبيين.

وفي معناها أيضاً نحو قوله تعالى: {**فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا**}[62] و{**قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا**}[63] وقوله عليه الصلاة والسلام حين نزل: { **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآَيَاتٍ لِأُولِي الأَلْبَابِ** }[64] ويل لمن لاكها بين لحييه ولم يتفكر فيها.

---

[56] الأنعام:76
[57] الأنعام:76
[58] الأنعام:76
[59] الأنعام: 83
[60] الأنعام:83
[61] النساء:125
[62] الروم:50
[63] يونس:101
[64] آل عمران:190

ولذا حكموا بأن النظر والفكر في معرفة الله واجب علينا شرعاً { **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** }[65] ، أي ليعرفوني سواء قلنا إنه أول الواجبات بسند أن شكر المنعم واجب عقلاً وهو موقوف على معرفة الله ومقدمة(أ/5) الواجب المطلق واجب فهو مبني على قولهم بالحسن والقبح العقليين ويصحّ الفعلين. وسيأتي إبطاله.

وما يتوهم من أنه يلزم الدور في كل من النظر والمعرفة؛ لأن المعرفة تتوقف على النظر، والنظر على الشرع والشرع على المعرفة مدفوع، بأنا لا نسلم أن النظر يتوقف على الشرع بل الموقوف عليه هو وجوب النظر لا نفسه.وكذا لا نسلم أن الشرع يتوقف على معرفة الله بل يتوقف على وجوده تعالى لا على معرفته وقد صور الدور والدفع بوجوه أخر.

والمراد بمعرفته تعالى التصديق اليقيني بوجوب وجوده الذاتي وتبرئه عن العدم قبلاً وبعداً وبصفاته الكمالية الثبوتية والسلبية بقدر الطاقة البشرية لا معرفة كنه ذاته المخصوصة، فإنه غير واقع عند المحققين لا في الدنيا والتكليف بالعلم بالوحدانية لا يتوقف على العلم بالحقيقة ولا في الآخرة؛ لأن الرؤية لا تفيد الحقيقة ومنهم من قال: أنها معلومة فيهما للتكليف المذكور والرؤية ولم يرجح ابن السبكي والجلال المحلّي شيئاً من ذلك

**ومنهم من قال بامتناعها** كحجة الإسلام وإمام الحرمين والصوفية والفلاسفة. واستدل على ذلك: بأنا لا نجد من أنفسنا إلا أنه شيء لا كالأشياء موصوف بهذه الصفات الأربع وبأن العلم بالعلة يوجب العلم بالمعلول فالعلم بذاته يوجب العلم بذوات الممكنات وهو محال وإن علمنا بذاته يوجب نوع استيلاء وإحاطة عليه وهو أيضاً محال. وإن من جملة صفاته الأزلية وعقولنا المتناهية لا تحيط بها لعدم تناهيها فكيف لا يعجز عن موصوفها إلى غير ذلك والكل إنما تدل على عدم الوقوع لا على امتناعه وإنما دليله أنه كما يعتري العين عند التحدق في حرم الشمس ظلمة وكدرة تمنعها من تمتع الأبصار. كذلك يعتري العقل عند تصور ذاته دهشة تمنعه من اكتناهه وإن حقيقته تعالى ليست بديهية ممتنع؛ لأنه بسيط.

والدليل على أن عدم الإفادة ليس إلا في الممكن غير بيّن ولا مبين وكذا القول بأن البساطة العقلية محتاجة إلى البرهان؛ لأنه تعم إلا على البساطة الخارجية ممنوع

والأحاديث في عدم وقوعها كثيرة كقوله عليه الصلاة والسلام: «**سبحانك ما عرفناك حق معرفتك**» و«**تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في ذات الله فإنكم لم تقدروا قدره**»[66].

قال الصديق رضي الله عنه: «**العجز عن درك الإدراك إدراك** »[67]وضمنه المرتضى رضي الله عنه فقال:

**العجز عن درك الإدراك إدراك      والبحث عن سر ذات الله إشراك**[68]

---

[65] الذاريات:56

[66]رواه البيهقي في شعب الإيمان رقم: 121 بدون فإنكم لم تقدروا قدره و قال: في هذا الإسناد نظر 1\ 136

[67] شرح عين العلم وزين الحلم 1 / 55 . 57 و 67 . 72 .

[68]راجع ديوان علي بن ابي طالب ص:142

وكان إمام الحرمين يقول إذا سئل عن معرفة الذات: هذا أمر تاهت فيه العقول وإنما يعلم بالدليل وجوده تعالى وما يجوز له وما يستحيل عليه بلا تحييث وتمييز وليس إلا وجهه العزيز فإن الركون إلى معتقد محصَّلٍ تمثيل والعدول عن الاستدلال بالصنع تعطيل وليس لدرك حقيقة الله سبيل انتهى. وإنما كان عليه الصلاة والسلام وأصحابه والتابعون يكتفون من العوام بالإقرار باللسان والانقياد لأحكام الشريعة ولم يكلفوهم بالنظر والاستدلال سيما لمن سلم تحت ظلّ السيف حيث لم يكن لهم حينئذ دليل دالّ على وجود الصانع وصفاته؛ لأنه كان هو المطلوب منهم أولا ثم كانوا يعلمونهم ما يجب اعتقاده في الله وصفاته وكانوا(ب/ 5) يفيدونهم المعارف الإلهية في المحاورات والمواعظ والخطب كما يشهد به الأخبار والآثار وهم ببركة صحبته عليه الصلاة والسلام وصحبة أصحابه وأتباعه وقرب الزمان بزمانه كانوا مستغنين عن ترتيب المقدمات وتهذيب الدلائل بحيث تنطبق على القواعد المدونة بل كانوا عالمين بالأدلة الإجمالية بحيث لا تكون الشُّبه والشكوك متطرقة إلى عقائدهم بوجه من الوجوه فالواجب العيني على غالب من بعدهم أيضاً تحصيل اليقين الجازم بالصدد بحيث يشرح وتطمئن به النفس وإن لم يكن دليلاً تفصيلياً ولذا يقال: أحسن العقائد ما يحصل للأطفال من ألسنة آبائهم وأمهاتهم.

**والحاصل** أن عامة الناس في جميع الأقطار دعت أنفسهم إلى الاعتراف بأن لهم صانعاً من غير معلم ولا إثبات حجة عندهم ولا اصطلاح وقع بين كافّتهم من الأتراك والأكراد وأهل البوادي وأقاصي الهند والصين وأهل الجزائر الذين لم يبلغهم داع إلى الإسلام ولا إلى الإشراك فإنهم مع اختلاف طرقهم ومللهم استيقنوا على الأعم الأغلب بالخالق لكثرة ما وجدوا من استجابة دعواتهم ودرك للساعي ومفاجأة الفرج في حوادث عظام دهمتهم بعد القنوط عن السلامة وبما جربوا من الرؤيا الصادقة والفأل والزجر وتبصروا بتخلصهم من أيدي الأعداء في مواضع لا ناصر لهم من الخلق فيها وبحدوث نوادر وعجائب شاهدوها في الآفاق وفي أنفسهم

فما منهم إلا يتضرع نحوه ويلجأ إليه في كشف بلواه ويسموا قلبه صوب السماء ويشخص بصره إليها من حيث كونها قبله دعاء الخلائق أجمعين فيستغيث بخالقه وبارئه طبعاً وجبلّة لا تكلفاً وحيلة وإن ذهل أكثرهم عن ذلك في حالة السراء فيردون إليه في الضراء {**وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ**}[69].

ومثل ذلك قد يوجد في الوحوش والبهائم أيضاً فإنها ظاهرة الخوف والرجاء رافعة رؤوسها إلى السماء عند فقد الكلأ والماء وإحساسها بالهلاك والفناء.وكذلك شوهد الأطفال عند البلاء يرفعون مسبحتهم نحو السماء. هذا كله مركوز في جبلة الحيوانات والأطفال فضلاً عن الإنسان العاقل الكامل المفضال وهي الفطرة المذكورة في القرآن والحديث { **أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ** }[70] ، { **وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ**

[69] الإسراء:67

[70] إبراهيم:10

**وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ** }[71] حتى ان من يجعل له شركاء من الأوثان وغيرها يطلقون عليه لفظ الآلهة فقط لا لفظ الله فإنه عند الكل مختص به تعالى لم يطلق على غيره لا اعتقاداً ولا تعنّتاً في الكفر ويقولون: { **مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى** }[72]. وأقل طوائف الدنيا عقلاً الزنوج مع أنهم أيضاً يقرّون بوجود إله العالم فيقولون: ملكوى وجلوى بمعنى الرب الأعظم.

**ولذا قال بعض العارفين كالغزالي والإمام الرازي** في بعض تصانيفه: إن(أ/6) معرفة وجود الواجب بديهي فلا تحتاج إلى النظري ولذلك لم يأت الأنبياء والرسل ليعلمونا بوجود الصانع، وإنما أتونا ليدعونا إلى التوحيد قال تعالى: {**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ** }[73] والخلق إنما أشركوا بعد الاعتراف بالوجود لما اعتقدوه من الشركاء لله تعالى أو لنفي واجب من صفاته أو لإثبات مستحيل منها أو لإنكارهم النبوات.

**ففي التحقيق** لا يوجد مقلد صرف في الأصول الدينية كما ادعى من جوّز التقليد فيها تمسكاً بما كان يكتفي عليه الصلاة والسلام بإيمان الأعراب وقياس غير الإيمان عليه

وقول الأشعري: "لا يصحّ إيمان المقلد" محمول على ما كان عن شك ووهم خالياً عن الجزم، وقيل: مكذوب عليه

**ولعل الحق أن النظر إنما يجب على كل واحد من المكلفين فيما ليس بديهياً بالنسبة إليه من الوجود والصفات فمن يكون مستغنياً بفطرته عن النظر في بعض الصفات لا يجب فيه النظر عليه بل في غيره مما يفتقر إليه**.

نعم، يجب على الكفاية تفصيل الدلائل الكلامية المبنية على الحكميات والإلهيات بحيث يتمكّن معه من إزالة الشبه وإلزام المعاندين وإرشاد المسترشدين.

ولذلك شرع علم الكلام كما مرّ، ويحرم على الإمام إخلاء مسافة القصر عمن يتولى ذلك ويسمى المنصوب للذبّ كما يحرم عليه إخلاء مسافة العدوى عن العالم بظواهر الشريعة والأحكام التي يحتاج إليها الجهلة العوام.

وللمتصوفة في هذا المطلب أيضاً من التحرير والتحقيق ما لا يحاط بمنتهاه؛ لأن المعرفة المطلوبة عندهم لا تكون إلا بالسلوك على يد شيخ عارف بالله، وارد موارد الحقيقة ومنابع عيون الانتباه.

**فقال ابن عربي**: اعلم أنه لا يصحّ وصف أحد بالعلم والمعرفة إلا إن كان يعرف الأشياء بذاته من غير أمر زائد عليها تراه وليس ذلك إلا الله وحده لا يعرف الله إلا الله وكل من سواه علمه تقليد لأمر زائد على ذاته من الحواس والعقل وقد يغلطان فيما تعاطاه فليقلد العاقل ربه فيما أخبر به عن نفسه على ألسنة رسله، ولا يقلد ما يعطيه قواه في نحو تأويل الصفات.

---

[71] العنكبوت:61

[72] الزمر:3

[73] محمد:19

وليسع بكثرة الطاعات حتى يكون الحق سمعه وبصره وجميع قواه كما ورد الحديث عن الإله فيعرف الأمور حتى الله بالله ولا يدخل عليه ريب واشتباه وهذا هو العلم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من قفاه.
وقال أيضاً: أن المعرفة ليس لها طريق إلا بالمعرفة بالنفس كما قال بعضهم: مجموع المعرفة ترجع إلى العلم بالله والنفس والدنيا والشيطان **فالنفس عالم وجيز صغرى قد احتوت على جميع حقائق العالم البسيط الكبرى** .
ولذا قال عليه الصلاة والسلام: « **من عرف نفسه فقد عرف ربه** »[74]، أي بما وصفه الحق [75] به مما وصف به نفسه من كونه له ذات وصفات وما أعطاه من علمه (ب/6)ومن استخلافه في الأرض يولّي ويعزل ويعفو وينتقم ويسعد ويشقي ونحو ذلك مما يتصف به الباري حتى البراءة مما هو من خواص الأجسام ولا يراها هذا الهيكل المخصوص.
**ويحتمل أن يكون المعنى** :أن من يعرفها بالافتقار والوجود والضعف والعجز والفناء يعرف أن ربه بأضداد ذلك.

**ويحتمل** أن يكون المراد المعنيين معاً.
زاد تعالى الآفاق في قوله: { **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ** }[76] تحذيراً للعبد من أن يتخيل أنه قد بقي في الآفاق بقية علم به تعالى لا تعطيه النفس فأحاله على الآفاق حتى يرى أنه ليس فيها شيء خارج عما تعطيه هي.
واختصر عليه الصلاة والسلام لهم الطريق بحذف الآفاق شفقة عليهم.

**وقال أيضاً**: العارف عندنا هو القائم مع الحق في جمعيته نافذ الهمة مؤثراً في الوجود على الإطلاق من غير تقييد لكن على الميزان المعلوم عند أهل الله مجهول النعت حتى عند الملائكة لا يعرف مقامه فيحل ولا يفارق العادة فيتميز هو خامل الذكر مستور المقام عام الشفقة على خلق الله عارف بإرادة الحق في عباده قبل ظهور المراد فيريد بإرادة الحق لا ينازع ولا يقاوم ولا يوقع في الوجود ما لا يريد شديد في لين يعلم مكارم الأخلاق من سفافها فينزلها منازلها مع أهلها تنزيل حكيم يتبرأ ممن يتبرأ الله منه محسن إليه مع البراءة منه يشاهد تسبيح المخلوقات كلها على تنوعها وتنوعات أذكارها لا يظهر إلا لعارف مثله وأطال في ذلك.
**والحاصل أن طريق المعرفة عندهم** إنما هو الكشف لا الظن المبني على الفكر قال الله: { **وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ** }[77] ، كأنه يقول: ماحذرناكم من النظر في ذات الله إلا رحمة بكم وشفقة عليكم لئلا تردون

[74] ليس بحديث بل من أقوال كبار الصوفيين
[75] ب:فإن معرفتها أن يعرفها بما وصفه الحق
[76] فصلت:53
[77] آل عمران:30

ما أثبته على ألسنة رسله من الصفات بأدلتكم العقلية فتحرمون الإيمان وتشقون شقاء الأبد كما يشاهد من أهل النظر من الاختلافات وتضييع العمر في المجادلات.

**ثم المقصود من النظر** كما عرفت إثبات الواجب بالدلائل إخراجاً لنفس المستدل عن الريوب وإزاحة لشُبَه الكفرة والفجرة وكل محجوب ولا ريب في أنها بأجمعها مع وضوح امتناع ترجيح وجود الحادث الممكن على عدمه وبقائه على فنائه بدون مرجح ومؤثر سواء كان علّة احتياجه لها المؤثر لإمكانه أو الحدوث أو الإمكان بشرط الحدوث أو هما على أنهما جزآعلة أقوال، لما أن أحد الطرفين ليس أولى به والبقاء كالابتداء في الاحتياج والاقتضاء تتأدّى أن لا موجد له إلا الله الذات الواجب الوجود الذي يكون وجوده في ذاته فهي علّة مستقلة فيه لا يحتاج إلى شيء أصلاً

والاعتراض بأن مرتبة الإيجاد متأخرة عن مرتبة الوجود مدفوع بأن ذلك بالنسبة إلى الوجود المنفصل لا إلى وجود الذات وهذا أولى من تفسيره بالذي لا يقبل العدم..

ولا يصحّ عليه لأنه ينتقض بنفس الوجود فإنه من حيث هو لا يقبل العدم مع أنه ليس بواجب الوجود. وكذا من قولهم: أنه الذي لا يتوقف وجوده على سبب منفصل فإنه يرد عليه الموجود الذي لا في ذاته ولا في غيره وإن كان قسماً عقلياً غير موجود

وفي الأدلة غير ما ذكر أنه لو كان جائز الوجود لكان من جملة العالم فلم يصلح محدثاً للعالم ومبدأ له مع أن العالم اسم لجميع ما يصلح علماً على وجود مبدأ(أ/7)له.

## دليل بطلان التسلسل

**وبعبارة أخرى**: أن مبدأ الممكنات بأسرها لا بدّ أن يكون واجباً إذ لو كان ممكناً لكان من جملة الممكنات فلم يكن مبدأ لها وليس هذا دليلاً على إثبات الواجب من غير افتقار إلى إبطال التسلسل كما توهم بل هو إشارة إلى أحد أدلته وهو أنه لو ترتب سلسلة الممكنات لا إلى نهاية لاحتاجت إلى علّة وهي لا تكون نفسها ولا بعضها لاستحالة كون الشيء علّة لنفسه ولعلله بل خارجاً عنها ويمكن أن يستدل بهذا على بطلان الدور أيضاً بأن يقال مجموع المتوقفين ممكن فعلته إما نفسه أو جزئه وهما باطلان أو خارج وهو علّة البعض فينقطع التوقف عنده فلا دور.

ولبطلان التسلسل أدلة أخرى، مشهورة وأشهرها برهان التطبيق، وهو : أن نفرض من المعلول الأخير الذي لا يكون علّة لشيء إلى غير النهاية جملة متسلسلة ومما قبله بواحد إلى غير النهاية جملة أخرى ثم تطبق الجملتين بأن تجعل الأول من الجملة الأولى وبإزاء الأول من الجملة الثانية والثاني بالثاني وهلم جرّا، فإن كان بإزاء كل واحد من الأولى واحدٌ من الثانية كان الناقص كالزائد هو محال وإن لم يكن فقد وجد في الأولى ما لا يوجد بإزائه شيء من

الثانية فتنقطع الثانية وتتناهى، ويلزم منه تناهي الأولى لأنها لا تزيد على الثانية إلا بقدر متناهٍ والزائد على المتناهي بقدر متناه يكون متناهياً بالضرورة.

**وهذا البرهان** كما يجري في العلل مثل الأول وهي لا تكون إلا مجتمعة، يجري في المعلولات المجتمعة أو المتعاقبة وبه يبطل عدم تناهي النفوس الناطقة المفارقة للبدن التي ذهب أرسطو ومن تبعه إلى قدمها بالنوع فلا تتناهى الأبدان التي فاضت عليها بالنوع أيضاً لاستنادها إلى اقتضاء الأدوار الفلكية التي لا تتناهى وإن كان أفرادها المتفانية أزلاً وأبداً حادثة بحدوث الأبدان التي هي شروط فيضانها من المبدأ الفياض؛ لأنها مرتبة بحسب إضافتها إلى أزمنة حدوثها. فيمكن أن يفرض سلسلة مما حدثت اليوم إلى غير النهاية وأخرى مما حدثت أمس كذلك ثم يطبق بينهما على حسب تطبيق الأزمنة لا تطبيق فرد بفرد فإن وقع بإزاء كل جزء من التامة جزء من الناقصة لزم كون الناقص كالزائد وإلا فيلزم تناهيهما لكن لا يجري إلا في الموجودات في الجملة ولو متعاقبة كحركات الأفلاك دون ما هو وهميّ محض فإنه ينقطع بانقطاع الوهم فإن الذهن لا يقدر على ملاحظة غير المتناهي تفصيلاً لا مجتمعاً ولا متعاقباً فينقطع في حدّ ما البتة فلا النقض عليه بمراتب الأعداد ونعم الجنان،وكذا معلومات الله ومقدوراته فإنهما غير متناهيين وإن كانت الأولى لتعلق العلم بالمعدومات أيضاً أكثر من الثانية لاختصاص القدرة بالممكنات، وذلك لأن التناهي واللاتناهي فرع الوجود سواء كان في الخارج أو في الذهن. فهذه الأشياء مع قطع النظر عن الوجود لا تكون متناهية ولا غير متناهية والمتصف منها بالوجود الخارجي متناهٍ وهو ظاهر وكذا المتصف بالوجود الذهنيّ؛ لأن الذهن لا يقدر على استحضار ما لا يتناهى فلا (ب/ 7)يجري التطبيق فيها لعدم كونها غير متناهية حتى يفرض الجملتان. ويلزم تناهي ما لا يتناهى.

وأما إطلاق عدم التناهي عليها فمجاز بمعنى لا تقف عند حدّ لا مزيد عليه بحيث أنها لو وجدت بأسرها كانت غير متناهية.

ومن هذا المعنى قول الحكماء "الجسم يقبل القسمة إلى ما لا يتناهى" وغيره.

## الإختلاف بين الأطراف في ثبوت مفهوم وجوب الوجود

**واختلفوا في أن وجوب الوجود مفهوم ثبوتي أم لا** ، والمختار الأول لما قالوا: أن الوجوب الذاتي كون تلك الماهية مقتضية لوجود نفسها وكونها مستحقة للوجود من ذاتها سواء اعتبر العقل أو لا والاقتضاء والاستحقاق وصف وجودي فثبت أنه مفهوم ثبوتي، وأن الوجوب تأكيد الوجود ولو كان منفياً يلزم تأكيد الشيء بالنقيض وهو محال وأن نقيض استحقاق الوجود لا استحقاق الوجود وهو يصدق على الممتنع وجوده في الخارج والصادق عليه يمتنع أن يكون وصفاً ثبوتياً فيلزم أن يكون نقيضه وصفا ثبوتياً لئلا يلزم المحال وللمخالف أيضاً تمسكات لكنها واهية.

## الإختلاف بين الأطراف في بداهة تصوّر الوجود

**واختلفوا أيضاً في بداهة تصوّر الوجود** وفي اشتراكه وزيادته وفي أن **المعدوم ليس بثابت،** والحق من اختلاف طويل بينهم أن تصوّر **الوجود:** الذي هو عبارة عن كون الشيء في الأعيان أو في الأذهان بديهي. إذ لا شيء أعرف من الوجود فإن كلّ ما يعلم إنما يعلم بالوجود ولا يعلم الوجود بشيء.

فقولنا:" تصوّر الوجود بديهي" قضية، بديهيّة، لا تتوقف إلا على تصور الطرفين. وما يأتي في بيانها بصورة الدلائل من نحو قولهم تصوّر وجوديّ بديهي والوجود المطلق جزء منه وتصوّر جزء المتصوّر بالبداهة بديهي الذي حاصله أن الوجود جزء وجوديّ المتصوّر بالبداهة وجزء المتصوّر بالبداهة بديهي فالوجود بديهيّ، تنبيهات، لإزاحة ما كان يقع من مزاحمة الأوهام القاصرة العقل في إدراك المعلومات فلا يقع فيما هو حقّه ومحزّه لا براهين فما أطالوا من المنع والمعارضة عليها لا يجدي كثير نفع. وكذا اشتراكه المعنوي بين الواجب والممكن بقسميه الجوهر والعرض كما عليه جمهور المتكلمين والحكماء أمر بديهي على المختار.

وما أقاموا على ذلك "في أنه لو لم يكن الوجود مشتركاً بين جميع الموجودات لما تحقق الجزم بوجود الشيء مع التردّد في كون الشيء واجباً وجوهراً وعرضاً، واللازم باطل فالملزوم مثله إلى غير ذلك بما أوضح وقرر في الكتب الحكمية "كلها تنبيهات أيضاً لا براهين، فالاعتراض[78] عليها أيضاً غير نافع. إلا أنهم يقولون: إنه خارج عارض مقول عليها بالتشكيك يعني أنه كلى واقع على أفراده لا على السواء كالمتواطىء، بل على اختلاف **بالتقدم والتأخر** فإنّ وقوعه على وجود العلّة أقدم من وقوعه على وجود المعلول نظير المتصل في وقوعه على المقدار والبياض أو **بالأولوية وعدمها** كوقوعه (أ/8)على وجود الجوهر والعرض نظير وقوع الواحد على ما لا ينقسم أصلاً وما ينقسم لكن لا من جهة كونه واحداً أو **بالشدة والضعف** كوقوعه على وجود القار وغير القار كالسواد والحركة نظير وقوع الأبيض على الثلج والعاج، بل يطلق على الواجب والممكن بالوجوه الثلاثة فإن وقوعه على وجود الواجب أقدم وأولى وأقوى لكونه مبدأ لكل ما عداه.

## مبحث العينية

## قول الحكماء في العينية

**واختار الحكماء كون وجوده تعالى** عين ذاته وحقيقته حتى قالوا: معنى وجوب الوجود فيه كونه عين وجوده بمعنى أنه وجود خاص بذاته تعالى غير منتزع من غيره وإلا لكان داخلاً فيها أو خارجاً عنها. والأول يستدعي التركيب، والثاني: كونه ممكناً لافتقاره إلى الماهية وكل ممكن لا بد له من علّة، فعلته إن كانت تلك الماهية لزم تقدمها عليه فتكون الماهية موجودة مرتين: مرة بالوجوب السابق وأخرى بالوجود اللاحق وهو محال؛ لأن الشيء لا يكون له إلا وجود مع أنه يلزم الدور إن كان الوجود السابق عين اللاحق والتسلسل إن كان غيره وإن كانت غيرها لزم افتقار واجب الوجود في وجوده إلى سبب منفصل وما يكون كذلك لا يكون واجباً لذاته.

---

[78] ب:فتطويل الإعتراضات عليها تضييع العمر

## قول الأشعري في العينية[79]

**وذهب الأشعري** كالحسن البصري إلى أنه عين فيه وفي كل ممكن فقال: **وجود كل شيء عينه غير زائد عليه** ولا اشتراك إلا في لفظ الوجود كالعين وأمثاله محتجاً بأنه لو زاد الوجود على الماهية لقام الوجود بالمعدوم؛ لأن الماهية حينئذ غير موجودة في نفسها فيكون الوجود قائماً بالمعدوم واللازم باطل لامتناع قيام الشيء بالمتصف بنقيضه.
وقد أطال في الردّ عليهم منكروا العينية مطلقاً سيما على الأشعري حتى اعتذر عنه بأن مراده بالعينية عدم التميز والزيادة في الخارج بحيث يصلح كلٌّ للإشارة الحسية لكن انتصر الرازي [80] للعينية في الواجب حتى قال في المطالب العالية: إن حقيقته تعالى التي لا تدركها العقول هو وجوده الخاص المخالف لسائر الموجودات بالهوية الذي هو المبدأ الأوّل للكل والوجود الذي تدركه هو الوجود المطلق اللازم لذلك الوجود ولسائر الوجودات وهو أولى التصوّر وإدراك اللازم لا يقتضي إدراك الملزوم بالحقيقة وإلا لوجب من إدراك الوجود المطلق إدراك جميع الوجودات الخاصة وهو بديهي البطلان وكون حقيقته تعالى غير مدركة والوجود مدركاً الذي تمسّك به القائلون بعدم العينية يقتضي مغايرة حقيقته تعالى مع الوجود المطلق المدرك لا لوجوده الخاص له تعالى. وتبعه في ذلك الجلال الدواني وأكثر متأخري المتكلمين، فقالوا: إن الحق أن الوجود الخاص الذي هو المبدأ الأول لجميع الوجودات هو نفس ذاته تعالى وهو المراد من قولهم: "ماهية آنية"
فحقيقة الواجب عندهم:هو الوجود البحت القائم بذاته المعرّى في ذاته عن جميع القيود والاعتبارات الغريبة فهو إذن موجود بذاته متشخص بذاته عالم بذاته، قادر بذاته أعني بذلك أن مصداق الحمل في جميع صفاته هويته البسيطة التي لا تكثر فيها بوجه من الوجوه ومعنى كون غيره موجوداً أنه معروض لحصّة من حصص الوجود المطلق بسبب غيره بمعنى أن الفاعل يجعله بحيث لو لاحظه العقل(ب /8) انتزع منه الوجود سواء كان الجعل متعلقاً بنفسه أو باتصافه بالوجود فهو بسبب الفاعل بهذه الحيثية لا بذاته بخلاف الأول تعالى فإنه بذاته كذلك. ويلزم أيضاً على من قال أن وجوده غير ذاته وهو علة لوجوده العينية من حيث لا يشعر؛ لأن الوجود الخاص بذاته الذي اعتبر مغايرة الذات له ليس إلا حصة من المطلق فلما صار الذات بذاته مبدأ لعروض حصّة من المطلق بلا مدخلية من الغير صار مبدأ لانتزاع المطلق.
**وخلاصة الكل** أن العقل ينتزع من الماهيات الموجودة في بادىء الرأي أمراً يشترك فيه الجميع وبه يمتاز عن المعدومات وهو الوجود المطلق وإنما يتحصص في الممكنات بالإضافة إلى الماهية التي ينتزع منها كوجود زيد ووجود عمرو. والبرهان يدل على أن الممكنات بهذه الحيثية مستندة إلى وجود يكون تحصّصه بسبب الإضافة إلى غيره هو الوجود الحق الواجب لذاته فإنه لا ماهية مغايرة لهذا الوجود كما في الممكنات حتى يكون كونه حصة من المطلق بالإضافة إليها بل إنما كان حصّة من المطلق لكونه قائماً بذاته موجوداً في الخارج منه وجود الممكنات.

---

[79] يناقش المؤلف هذا الموضوع في ورق 16/أ- 18/أ مرة ثانية

[80] ب: وأغلب متأخرى المتكلمين

## قول الصوفيين في العينية

**قال محققو المتصوفة**: إن الوجود مع كونه عين الواجب قد انبسط على هياكل الموجودات وظهر فيها من غير مخالطة واتصال وتكثر لا بوجه انقسام وانفصال باق على حدته كما كان بلا مثال فلا يخلو عنه شيء من الأشياء بل هو حقيقتها وعينها وإنما امتازت وتعدّدت بتقيدات وتعينات اعتبارية بمنزلة الخيال والسراب ومثلوا لذلك بالبحر وظهوره في صورة الأمواج المتكثرة مع أنه ليس هناك إلا حقيقة البحر **وهو المعنى عندهم بوحدة الذات والوجود** وهو معنى لطيف لا يدرك إلا بالذوق والمكاشفة لا بالفكر والمناظرة.
ومن هذا المشرب معظم محاوراتهم وعليه يحمل أكثر شطحاتهم من غير مظنّة اتحاد وحلول فحاشاهم من إلحاد كل فضول لكن ينبغي التجنب عن نحو هذه العبارات مما فيه تصريح بأنه مصدر الأشياء وأن العالم منفصل من ذات الحق فإنه كفرٌ.
ولذا ضرب بعض الخلفاء عنق من قال في شعره:

**قطعت الورى من نفس ذاتك قطعة فلا أنت مقطوع ولا أنت قاطع**[81]

## مبحث العدم أو المعدوم

## قول الأشعري في العدم أو المعدوم

واتفق الأشاعرة والحكماء **وأبو الهذيل**[82] **وأبو الحسن البصري** على **أن المعدوم ليس بثابت في الخارج** فلا يطلق عليه الذات والشيء بمعنى الثابت كما فسره به البيضاوي ومن تابعه إلا مجازاً لكن يطلق عليه الشيء بمعنى ما يصح أن يعلم ويخبر عنه على ما عليه أكثر الاستعمال في القرآن وغيره.
وجمهورهم على أن المعلوم إن كان له تحقق في الخارج كالأعيان الموجودة فهو الموجود أو لا فهو المعدوم كشريك الباري.
والكليات الفرضية وكالنسب والإضافات والمقولات العشرة، أي غير الجوهر والكم والكيف أو الأين أيضاً لدى أكثر المتكلمين فإنهم قالوا بوجود الأكوان الأربعة، أي الحركة والسكون والإجماع والافتراق فلا واسطة بينهما. وعن

---

[81] من قصيدة النادرات العينية للشيخ عبد الكريم الجيلي؛ ،ص: 94. لكن هناك البيت هكذا

**تجليت في الأشياء حين خلقتها فها هي ميطت عنك فيها البراقع**

**قطعت الورى من حسن ذاتك قطعة ولم تك موصولا ولا فصل قاطع**

[82] ابو الهذيل حمدان بن الهذيل العلاف أخذ الإعتزال عن عثمان بن خالد الطويل، بعشر قواعد انفرد من المعتزلة .مات سنة 937/326. فلينظر: الفرق بين الفرق للبغدادي 73-79؛مقالات الإسلاميين للأشعري،163، 165 وغيرها

القاضي الباقلاني[83] وإمام الحرمين أولاً وإن رجع ثانياً أن ما لا تحقق له أصلاً فهو المعدوم وما له تحقق باعتبار ذاته سواء كان جوهراً أو عرضاً فهو الموجود أو باعتبار غيره فهو الحال(أ/ 9) كالوجود عند من يقول أنه لا وجود له حذراً عن لزوم التسلسل فإنه حينئذ وصف قائم بالموجود وليس بموجود ولا معدوم، أي أنها غير موجودة في الأعيان ولا معدومة في الأذهان فيكون حالاً فالواسطة ثابتة.

## قول المعتزلة في العدم أو المعدوم

**وذهب المعتزلة** إلى ثبوته في الخارج بمعنى تقرره فيه معرى عن صفة الوجود.

## الإختلاف بين الأطراف في الواسطة

**واختلفوا أيضاً في نفي الواسطة** فعند أكثرهم المعلوم إما لا تحقق له في نفسه أصلاً وهو النفي المساوي للممتنع، أو له تحقق بوجه ما وهو الثابت المتناول للموجود والمعدوم الممكن فلا واسطة؛ لأن المنفي أيضاً قسم من مطلق المعدوم وعند بعضهم المعلوم الكائن في الأعيان إن كان له كون بالاستقلال فهو الموجود أو بالتبع فهو الحال وغير الكائن إن كان له تحقق وتقرّر في نفسه فثابت وإلا فمنفي فالواسطة ثابتة، فكلاهما وافقوا الأشاعرة في أن المحال كشريك الباري لا يسمى شيئاً.

وقال بعض المحققين: يجب حمل قول المعتزلة بثبوت المعدوم على الثبوتي العلميّ، يعني أنه ثابت في العلم الإلهي إذ يبعد من العقلاء التكلم بما لا معنى له.

## مبحث حقيقة الشيء وماهيته

**وحقيقة الشيء وماهيته**: ما به الشيء هو هو ك"الحيوان الناطق" للإنسان مشتقة من "ما هو" ومنسوب إليه؛ لأنها تقع جواباً له،

وقد يفرق بينهما بأن ما به الشيء هو هو بحسب تحققه "حقيقة"، وبحسب تشخصه "هوية"، ومع قطع النظر عن ذلك "ماهية".

والصواب أن الحقائق حقيقية، لا وهمية كما وهم السوفسطائية [84]، جعلية خارجية بناء على أن الماهية بجعل الجاعل على ما ذهب إليه المتكلمون بمعنى **أن أثر الفاعل نفس الماهية** ويسمونه جعلاً بسيطاً تمسكاً بقوله

---

[83] اسمه محمد بن محمد الطيب ابو بكرالقاضي الباقلاني من كبار علماء الكلام ، الأشعري مذهبا ،ولد فى البصرة سنة 950/338،وأقام ببغداد،فتوفي فيها سنة 1013/403. كان سريع الجواب،جيد المقايسة؛وجهه عضد الدولة سفيرا إلى ملك الروم. من مؤلفاته إعجاز القرآن والإنصاف.
راجع:ترتيب المدارك للقاضي عياض،601-568/2؛تبيين كذب المفتري لابن عساكر، 216-220؛ تلريخ بغداد للبغدادي،601-379/5

[84] السوفسطائية:فرقة من الفلاسفة الينونان أشهرهم غورغيياس و بروتغوراس صاحب كلمة'الإنسان مقياس' أنكرت الحسيات، والبديهيات، وغيرها؛ ينشعبون ثلاث فرق: اللاأدرية، والعنادية، والعندية راجع:كشاف اصطلاحات الفنون التهاوني 666-665/2؛ وقصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن :36-37

تعالى: {**وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ**}[85] حيث لم يقل وجعل الظلمات والنور موجودة وبأن كل ما فرضته أثر الفاعل فهو ماهية من الماهيات وبأن وجود الشيء صفته، وصفة الشيء بعد اعتبار الشيء نفسه. فهم لا ينكرون أنه قبل تأثير الفاعل لا تتصف الماهية بالوجود وبعده تتصف به حتى يقال: إن هذا من أمارات أن ذاك الاتصاف أثر الفاعل وثبوت الماهية قبله فلا تكون بجعل الجاعل كما ذهب إليه ابن سيناء وجرى عليه أهل الباطن وتبعه المعتزلة. بل ينكرون كونه أثراً أولاً وبالذات فإن الأثر أولاً وبالذات عندهم نفس الماهية ويتبعه الاتصاف من غير احتياج إلى تأثير جديد.

وكذلك يتبعه كون الماهية ماهية المسمّى جعلاً مركباً فإن المعدوم يجوز سلبه عن نفسه فلا تكون الماهية ماهيةً إلا بعد الاتصاف بالوجود التابع للجعل البسيط.

وأما **عند ابن سيناء** فالأثر أولاً وبالذات هو الاتصاف ويتبعه الجعل المركب لا البسيط؛ لأنه متبوع لا تابع.

**والحاصل أن المراتب ثلاث** :جعل بسيط ثم اتصاف ثم جعل مركب. فمن قال بالأول وجعل الثاني والثالث تابعين له. ومن قال بالثاني جعل الثالث تابعاً له وفاته الأول ومنهم من تحاكم بأن الخلف لفظي فإن مدعي الجعل أراد جعلها متصفة بالوجود لا جعلها ذواتاً ومنكره أراد أنها في حدّ ذاتها لا يتعلّق بها جعل جاعل وتأثير مؤثر ومن قال بجعل المركبة دون البسيطة أراد أنها مؤلفة دونها(ب/9)

**ثم اعلم أن الماهية** لا بشرط شيء موجودة في الخارج، يعني أنها بشرط شيء، أي بشرط وجودها في ضمن أفرادها موجودة اتفاقاً وبشرط لا شيء، أي بشرط أن لا توجد في ضمن الأفراد معدومة اتفاقاً ولا بشرط شيء وهي المعنية بالكلي الطبيعي مختلف فيها.

والمشهور عند المتكلمين وجودها، أي بوجود أفرادها فيكون الوجود واحد والموجود اثنين. وقد أطالوا في ذلك وفي بيان مغايرة الماهية لما عداها من اللواحق وغيرها وتقسيمها إلى البسيطة لا أجزاء لها ومركبة من أجزاء خارجية متميزة لكل في الخارج وجود آخر أو عقلية لا تتميز بوجود مستقل بل في العقل فقط. ففي الخارج جعل كل منها جعل الآخر وجعل المركب بعينه وكون تعينها بالتشخص وهو غير وجودي زائد عليها لئلا يلزم التسلسل وبسط كل ذلك مع جميع ما قبله توضيحاً وأدلة وتعديلاً وجرحاً في المبسوطات فراجع نحو الطوالع وشرحه بل أبسط من ذلك.

## مبحث وحدة واجب الوجود

ثم إن بداهة العقل كما سبقت الإشارة جازمة من مشاهدة العالم على هذا النمط البديع والنظام المحكم المنيع والأفعال المتقنة العجيبة والنقوش المستحسنة الغريبة والمنامات المتشتتة الرحيبة التي يتيه بها أولو النهى اللبيبة مع عدم تشابه مخلوقين شرقاً وغرباً براً وبحراً خَلْقاً وخُلُقاً وطبيعة ورفقاً رؤيا ورزقاً بأن صانعه لا يكون منعوتاً إلا بجميع

---

[85] الأنعام:1

صفات الجمال منزّهاً عن سمات النقص بل عن كل ما لا ينبيء عن كمال فهو واحد أحد فردٌ صمدٌ فلا تعدّد له في ذاته بوجه ولا نظير له في صفاته بوجه ولا شريك له في أفعاله بوجه و{ **أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ** }[86] { **قُل هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ** }[87] ؛ لأن حقيقته التي هي الوجود الخاص المتصف بالوجوب الذاتي المستلزم للمعبود الخالق لما سواه لو كانت مشتركة بين اثنين لكانت تمام حقيقتهما أو داخلة فيهما أو خارجة عنهما والأول يوجب التخالف بالتعين والتشخص فيلزم تركيب كل منهما مما به الاشتراك وما به الامتياز واحتياجه إلى جزئية وهو ينافي الألوهية والثاني أيضاً يوجب التركيب في المشترك والمميز والاحتياج والثالث يستلزم أن لا يكون الواجب واجباً لاحتياجه إلى العارض وكل عارض ممكن

**واحتج المتكلمون** بأنه لو فرضنا إلهين لاستوى الممكنات بالنسبة إليهما في المقدورية فلا يوجد شيء منها؛ لأنه إما أن لا يؤثر فيها واحد منهما فيلزم ترجيح أحد طرفي الممكن بلا مرجح أو يؤثر أحدهما فقط فيكون وقوعها أيضاً ترجيحاً بلا مرجح أو يؤثر كل واحد منهما فيلزم اجتماع مؤثرين مستقلين على أثر واحد بالشخص وهو غير جائز فثبت أنه لو فرض إلهان لا يوجد شيء من الممكنات واللازم باطل فالملزوم مثله والمشهور بينهم برهان التمانع المشار إليه بقوله تعالى: { **لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا** }[88] وتقريره لو أمكن إلهان قادران على الكمال لأمكن بينهما تمانع بأن يريد أحدهما حركة زيد مثلاً والآخر سكونه في ذلك الآن بعينه إذ لا تدافع بين الإرادتين بل بين المرادين فإما أن يحصل الأمران فيجتمع الضدان أو لا فيلزم عجز (أ/ 10) أحدهما وهو أمارة الحدوث والإمكان وأما الآية بظاهرها فحجة إقناعية. والملازمة عادية على ما هو اللائق بالخطابيات فإن العادة جارية بوجود التمانع والتغالب عند تعدّد الحاكم على ما يشير إليه { **وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ** }[89] لكن قد يقال فرض دوام اتفاقهما عقلاً مما لا يعول عليه في الأدلة القرآنية ولا ينظر إليه في السلائق العربية بحيث لا يحتاج إلى البيان لمن علم حال الشركاء فهي بالنظر إلى ذلك قطعية أيّ قطعية

وقال المحقق الخيالي: هذا أي كونها إقناعية إن حملت على نفي تعدّد الصانع مطلقاً سواء كان مؤثراً بالفعل أو لا فإنه حينئذ سواء أريد بالفساد الخروج عن هذا النظام أو عدم التكون يرد منع الملازمة إن أريد بالفعل ومنع انتفاء اللازم إن أريد بالإمكان لكن الظاهر من منطوقها نفي تعدّد الصانع المؤثر إذ المراد بالظرفية التصرف والتأثير فيهما لا معناها الحقيقي الذي هو التمكن والمعنى لو كان المؤثر فيهما آلهة لم تتكونا؛ لأن التأثير حينئذ إما على سبيل الإجماع أو التوزيع لامتناع التوارد فيمكن التمانع البتة ضرورة كون كل منهما صانعاً تام القدرة وإمكان التمانع

---

[86] الكهف:110،الأنبياء:108،فصلت:6،

[87] الإخلاص: 1

[88] الأنبياء:22

[89] المؤمنون:91

محال لاستلزامه المحال فلا يكون أحدهما صانعاً فيلزم انعدام الكلّ على الأول لانعدام علّته بانعدام جزئها أو انعدام البعض على الثاني لانعدام علته التامة فعلى التقديرين يفسد العالم بمعنى لا يوجد هذا المحسوس بل على تقدير نفي التعدّد مطلقاً أيضاً يمكن التوجيه بحيث تكون قطعية وهو أن يقال: المراد بالفساد عدم التكون بالفعل والمعنى لو أمكن تعدّد الواجب الذي من شأنه التأثير والإيجاد لم يكن العالم ممكناً فضلاً عن أن يكون موجوداً؛ لأن الوجود فرع الإمكان في الحادث[90] وإلا أي وإن كان ممكناً حين تعدد الواجب لأمكن التمانع بكون كل منهما قادراً تاماً مع تحقق مصحح مقدوريتهما، أعني إمكان المصنوع وإمكان التمانع محال لما مرّ فلا يكون العالم ممكناً؛ لأن إمكان التمانع لازم لمجموع الأمرين

أعني التعدد وإمكان شيء من الأشياء فإن كان التعدد مفروضاً يلزم أن لا يكون شيء من الأشياء ممكناً حتى لا يلزم إمكان التمانع الذي هو محال وكلمة «لو» هنا مستعملة للاستدلال بانتفاء الجزاء على انتفاء الشرط من غير دلالة على تعيين زمان الماضي وانتفاء الفساد فيه بسبب انتفاء التعدد مع أن المقصود يتم على ذلك أيضاً؛ لأن الحادث لا يكون إلهاً. وأما ما استشكل العز بن عبد السلام على الآية من أن الكفار ما كانوا يدعون تمام آلهتهم حتى يلزم التمانع بل كانوا يقولون: إنما نعبدهم {**لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى**}[91] فما قالوه لا تبطله الآية وما تبطله لم يقولوا به فمدفوع بأن كلهم ما كانوا يقولون ذلك بل منهم من أثبت آلهة فقط وبعض ممن أشرك كان يزعم أن آلهته أكمل من الله وعلى تقدير تسليم مساواة الكل فيما قال فالتامية لازمة من تسمية أصنامهم آلهة وإن لم يصرحوا بها إذ من لوازم الإله الاقتدار ولازم المذهب مذهب بالنسبة لإقامة الدليل

---

[90] ب:لكونه فى الحادث

[91] الزمر:3

## فصل في الصفات الثبوتية

### صفة القدم والأزل

**قديم أزلي** لا أول لوجوده أبدي لا نهاية له فهو سرمديّ كما يفهم من كونه واجب الوجود؛ لأنه لو لم يكن قديماً (ب/10) لكان محدثاً فيفتقر إلى محدث آخر أحدثه وأوجده فيدور أو يتسلسل ويستحيل ثبوت خالق ومخلوق وكونه قديماً يستلزم أبديته؛ لأن ما ثبت قدمه امتنع عدمه؛ لأنه لو عدم بعد وجوده لكان لأعدام معدم أو لطريان ضد أو لانتفاء شرط. والكل باطل لأنه يحتاج حينئذ إلى إنتفاء سبب العدم سواء كان وجودياً أو عدمياً فيكون ممكناً لذاته بعدما كان واجباً لذاته فهو سرمدي دائم الطرفين أول سابق على سائر الموجودات من حيث أنه موجدها ومحدثها القادر على إيجادها قدرة تامة آخرٌ باقٍ أبدي بعد فنائها ولو بالنظر إلى ذاتها مع قطع النظر عن غيرها أو هو الأول الذي منه البدء والآخر الذي إليه العود {**إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**}[92] أو الأول بالتوحد بالألوهية والآخر بالتجلي بالربوبية.

### صفة ظهور وجوده وخفية حقيقة ذاته

**ظاهرٌ وجوده** واضح لكثرة دلائله ليس فوقه شيء ولا ظهور لغيره بالسلطان والقهر في الدارين.

**باطن** حقيقة ذاته لا يصح لأحد اكتناهها ومعرفتها كما يعرف هو وليس دونه شيء بلا دين فهو أول من عين ما هو آخر وظاهر وباطن. وكذا حال الثلاثة الأخر ففي كل صفة من صفاته ما في أخواتها على خلاف صفات الخلق حيث لا تتعدى كل منها ما حده الحق لها كما مرّ في بحث الحواسّ فقد أرشدنا بذلك إلى ترك التعب في معرفته الذاتية كأنه قيل ما تطلبونه من الباطن هو عين ما تطلبونه من الظاهر. **قال أبو الحسن الشاذلي** رضي الله عنه: قد محق بذلك جميع الأغيار فما حكم الخلق معه إلا حكم الينابيت التي في كوة الشمس تراهم صاعدين هابطين وإذا قبضت عليهم لا ترى في يدك شيئاً فهم موجودون في الشهود مفقودون في الوجود.

### صفة الحي

**وهو حيّ** اى ذو حياة وهي صفة توجب صحة العلم والإرادة والقدرة بها يمتاز عن الأموات مع أنها ليست بروح ولا مفتقر وجودها إلى غيرها من غذاء وتنفس ولا تشبه الحياة التي في حقنا؛ لأنها إما اعتدال المزاج أو قوة الحسّ والحركة أو قوة تتبع ذلك الاعتدال سواء كان قوة الحس والحركة أو مغايرة لهما على ما اختاره ابن سيناء ولا يتصور الحياة بشيء من هذه المعاني في حقه تعالى ولولا اختصاصه بهذه الصفة كان اختصاصه بصحة العلم والقدرة ترجيحاً بلا مرجح والقول بأنه منقوض باختصاصها فإنه لو كان بصفة أخرى لزم التسلسل في الصفات الوجودية وهو باطل فلا بدّ من الانتهاء إلى ما لا يكون اختصاصه به لصفة أخرى فيكون ترجيحاً بلا مرجح مدفوع بأن ذاته مخالفة بالحقيقة لسائر الذوات فقد يقتضي هو لذاته الاختصاص بأمر فلا ترجيح بلا مرجح فقد تبين أنها

---

[92] البقرة:156

صفة زائدة على صحة العلم والقدرة وأن قد يرد أنه لا دليل لنا يعتد به على ذلك فإن جعل أمر علة لصحة العلم ليس أولى من نفس صحة العلم.

**وذهب الفلاسفة وأبو الحسين البصري** أنها عبارة عن صحة اتصافه بالعلم والقدرة فليس هنا إلا الذات المستلزمة لانتفاء الامتناع وقد عبّروا عنها بالدراك الفعّال فيظهر منه أن الحياة هي الدرك والعلم والتأثير مع أن الفلاسفة لم يذهبوا إليه فتؤول بأن المراد أن الحيّ من يصح منه الدرك (أ/ 11) والفعل، أي القدرة إلا أنه لما لم يكن للواجب كمال منتظرٌ بل كماله حاصل بالفعل. عبر عنه بالدراك الفعال حينئذ لكن يرد عليهم أن الحياة صفة إضافية غير حقيقية فيكف ما ذهبوا إليه من عينية الصفات إلا أن يقال ذلك في غير الحياة فإنها لا تقاس على سائر الصفات

**قال أهل التصوف** لهذا الاسم تقدم على سائر الأسماء لا يمكن أن يتقدمه اسم في الظهور فهو المنعوت على الحقيقة بالاسم الأول. ولهذا قال تعالى :{ **هُوَ الْحَيُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ** }[93] {**الله لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ** }[94].

فجعل اسمه الحيّ يلي الاسم الجامع لنعوت الكمال والأسماء مرة وأفرده أخرى.

ويستحيل وجود حقائق شيء من الأشياء من غير الحيّ وحقيقته الذي تكون حياته لذاته وذلك خاص بالله ليس لأحد من الخلق في أسمائه ما يكون مهيمناً على بعضها فلا يكون مريداً إلا عالماً ولا عالماً إلا حيًّا فصار كونه حيًّا مهيمناً على كونه عالماً مريداً

وقد تصافّت أسماؤه تصاف الملائكة بين يدي ربها فأولها الحيّ وإلى جانبه العليم وإلى جانبه المريد وإلى جانبه القابل وإلى جانبه القادر وإلى جانبه الحكم وإلى جانبه المغيث وإلى جانبه المقسط وإلى جانبه المدبر وإلى جانبه المتفضل وإلى جانبه الرزاق وإلى جانبه المحيي وهكذا. ومتى تخللها فراغ في الكون تخللت الشياطين، كما تدخل بين خلل صفوف الصلاة، كما ورد فربما بلّس على الولي التخلق بما لا يوافق الأوامر الشرعية مما هو من خصائص الحقّ تعالى كالكبرياء والعظمة في غير محله المشروع فالعبد أسير تحت سلطان الأسماء فلا ينقضي اسم إلا ويتولاه حكم اسم آخر.

فلا تزال الأسماء تجاذبه ليلاً ونهاراً، ومحال أن يترك المكلف لحظة واحدة لنفسه فاسم الرحمن يطلب مرحوماً على الدوام واسم المنتقم منتقماً منه وهكذا فلا يخلو عبد من أن يكون في عمل لأحد الدارين بحكم القبضتين وما خرج عن هذا الحكم إلا المعصوم والمحفوظ.

## صفة العلم

**عالم** بجميع ما من شأنه أن يعلم واجبها وممكنها وممتنعها كلية وجزئية علماً شاملاً حضورياً لا استحصالياً كعلمنا لا يعزب عنه مثقال ذرّة في الأرض ولا في السماء على خلاف من الدهرية [95] في علمه بذاته. ومن الحكماء في

---

[93] غافر:65

[94] البقرة:255، آل عمران:2

الجزئيات المتغيرة بخصوص تغيرها بحسب الأزمنة بأنها واقعة الآن أو غداً أو أمس؛ لأنه لو كان عالماً بها كذلك فإما أن يتغير العلم بتغير المعلوم فيلزم تغير ذاته تعالى من صفة إلى صفة وإن لم يتغير يلزم الجهل، بل يعلمها بحيث لا مدخل للزمان بحسب الأوصاف الثلاثة. وهذا العلم يكون مستمراً لا يتغير أصلاً كالعلم بالكليات

وحاصله أنه تعالى ليس بمكانيّ ولا زمانيّ فنسبته إلى جميع الأمكنة والأزمنة على السواء. فالموجودات من الأزل إلى الأبد معلومة له كلٌّ في وقته وليس في علمه **كان وكائن ويكون**، بل هي دائمة حاضرة عنده في أوقاتها بلا تغيّر أصلاً

فقولهم: أنه لا يعلم الجزئيات راجع إلى أن علمه بها ليس زمانياً. وقال الإمام(ب/11): وتبعه كثير من المحققين أن اللائق بأصولهم أنّ مرادهم أنه لا يعلم الجزئيات المادية من حيث أنها جزئيات سواء كانت متغيرة كحركة زيد أو لا كأجرام الأفلاك من حيث أنها جزئيات مانعة من فرض الشركة لما يلزم في الأول من تغير العلم والثاني من الآلات الجسمانية، بل يعلمها ولا ويفوته منها شيء لكن بطريق التعقل لا التخيّل والإحساس فلا تكون مانعة من قوع الشركة

وهذا كما يعلم المنجم أن في الساعة الفلانية كسوفاً فإنه قد علم الكسوف الجزئي لا على وجه الجزئي؛ لأن ما علمه لا يمنع العقل بمجرد تصوّره عن حمله على كسوفات متعددة وإن كان في الخارج لا يصدق إلا ذلك الكسوف.

وهذا التعقّل مستمر قبل وقوعه وبعده وبالجملة ليس مرادهم ما توهّمه البعض من أن علمه تعالى محيط بطبائع الجزئيات، أي ماهياتها الكلية وأحكامها دون خصوصياتها وأحوالها، بل هم قائلون بعلمها أيضاً لكن على الوجه الذي مرّ فلا يستوجبون التكفير كما اشتهر ومتعلقات علمه غير متناهية

قال تعالى: {**أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا**}[96] {**وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا**}. {**يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى**}[97] {**يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ**}[98] ، {**أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**}[99] {**يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**}[100] ، {**وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ**}[101]

ولكن تعلقاته نوعان:

---

[95] الدهرية أو الملاحدة: فرقة من الكفار ذهبوا إلي قدم الدهر، واستناد الحوادث إليه أنكروا الله والبعث و العبادات رأسا لأنها لا تفيد فى نظرهم و يقولون: "**ما يهلكنا إلا الدهر**"(الجاثية:45) راجع: الملل والنحل للشهرستاني،65/3

[96] الطلاق:12

[97] طه:7

[98] غافر:19

[99] الملك:14

[100] الحجرات:18

[101] النمل:25.

تعلقات أزلية غير مقيدة بالزمان شاملة لجميع الأزليات من ذاته وصفاته الحقيقية والاعتباريات الأزلية والمعدومات الأزلية ممكنة كانت أو ممتنعة. وعدماتها الأزلية على أن المعدومات والعدمات متمايزة في نفس الأمر على ما هو مختار المتكلمين.

وكذا بالمتجددات باعتبار أنها ستجدّد لا أنها تجددت بالفعل؛ لأنه جهل، فهو تعلق كليّ كالتعلق بالكليات الغير المتجددة

وتعلقات فيما لا يزال مختصة بمتجددات باعتبار أنها تجددت ووجدت في زمان وهذه التعلقات حادثة متناهية بالفعل لتناهي متعلقاتها سواء كانت مجتمعة أو متعاقبة في الوجود؛ لأن كلّ ما دخل في الوجود فهو متناهٍ، لكنها أيضاً غير متناهية بالقوة بمعنى أنها لا تنتهي إلى حد لا يتصور فوقه تعلق آخر كما يأتي في المقدورات ومن حيز هذا{ **لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى**}[102] {**وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ** }[103] {**وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ**}[104] أي ليتعلق علمه حادثاً ولا يلزم من ذلك تغير علمه وتبدل ذاته من صفة إلى صفة على ما زعمت الفلاسفة بل تبدل تعلقاته التي هي أمور إضافية ولا فساد فيه.

وذهب بعض المحققين إلى أنّ علمه بالمتجدّدات بأنها وجدت والعلم بأنها ستوجد واحد فلا حاجة إلى إثبات تعلقات حادثة لعلمه بها باعتبار وجودها فإن من علم أن زيداً سيدخل الدار فعند حصول الغد يعلم بهذا العلم أنه دخل الدار الآن إذا كان علمه مستمرّاً بلا غفلة مزيلة والباري يمتنع عليه الغفلة فيكون علمه بأنه وجد عين علمه بأنه سيوجد وعدم تناهي تعلقاته بالنسبة إلى مجموع الأزليات والمتجددات و حينئذ ويقال في الآيات المذكورة أنه نزّل نفسه منزلة من يستفيد علماً أو تغافل لينظر هل(أ/12) يؤمن عبد بما أضافه إلى نفسه أم يتوقف ثم إن معنى قولهم: أن معلوماته تعالى غير متناهية ليس بمعنى أنها لا تنتهي بحسب تعلق العلم إلى حدّ حتى يلزم الجهل بل بمعنى أن ما يمكن أن يتعلق العلم به فهو حاصل له تعالى بالفعل من غير أن يتوقف على أمر وتلك المعلومات لا تتصف بهذا الاعتبار بالتناهي واللا تناهي لكونهما فرعي كما مرّ في بحث برهان التطبيق.

**قال ابن عربي من طريق الكشف** : أن العلم نسبة بين العالم والمعلومات وما ثم واجب الوجود غير ذات الحق تعالى وهو عين وجوده وليس لوجوده افتتاح ولا انتهاء فيكون له طرف ومعلوم أن المعلومات هي متعلّق وجوده تعالى فتعلّق ما لا يتناهى وجوداً بما لا يتناهى معلوماً ومقدوراً ومراداً فتفطن يا أخي فإنه أمر ما أظن طرق سمعك قط فإن الحق تعالى لا يتصف بالدخول في الوجود المحصور فيتناهى إذ كل ما دخل في الوجود متناهٍ والباري تعالى هو الوجود الحقيقي فما هو داخل في هذا الوجود؛ لأن وجوده عين

---

[102] الكهف:12

[103] آل عمران:142

[104] الحديد:25

ماهيته بخلاف ما سواه. فإنّ منه ما دخل في الوجود فتناهى بدخوله فيه ومنه ما لم يدخل في الوجود فلا يتصّف بالتناهي وعلى هذا نأخذ المقدورات والمرادات والله أعلم.

## صفة القدرة

**قادر** على كل ما من شأنه أن يقدر عليه من الممكن خاصة بخلاف الممتنع لذاته والواجب فالقدرة صفة بها يمكن التأثير والإيجاد من الفاعل لا أنها تجعل المقدورات ممكنة الوجود، أي الصدور في نفسها لأن الإمكان بمعنى استواء الطرفين بالنسبة إلى ذاته أمر ذاتي للممكن ليس أحدها أولى له. وتعلّل القدرة يقال: هذا مقدور؛ لأنه ممكن وذاك ليس بمقدور؛ لأنه ممتنع أو واجب فلا يكون أثر القدرة؛ لأنها والإرادة إنما يتعلقان بالعدم الغير المحال ليوجداه والأول محال والثاني غير عدم.

ومعنى{ **إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** }[105] أنه قدير على كل شيء تعلقت به إرادته مما تضمنه علمه القديم لكن جوزوا إيجاد المحالات العقلية كإيجاد شخص في مكانين وأمكنة وتجسّد المعاني وجمع الضدين وخلق قابلية الرؤية في الأصوات والطعوم والروائح واستعداد رؤية أعمى الصين بقعة أندلس مثلاً.

وذهب **النظام**[106] الى أنه لا يقدر على خلق الجهل والقبح؛ لأنه مع العلم بقبحه سفه ودونه جهل وكلاهما نقصٌ يجب تنزيه الله عنه ز والجواب أنه لا قبح بالنسبة إليه فإنه المالك المطلق، له أن يتصرف في ملكه كيف يشاء.

**والبلخي**[107]: أنه لا يقدر على مثل مقدور العبد؛ لأن مقدوره إما طاعة أو سفه أو عبث والكل على الله محال وأجيب بأن الفعل في نفسه حركة أو سكون وكونه أحد الأقسام اعتبارات تعرضه بالنسبة إلى العبد والله قادر على مثل ذات الفعل.

وعامة المعتزلة: أنه لا يقدر على نفس مقدور العبد؛ لأن المقدور من شأنه أن يوجد عند توفر دواعي القادر وأن يبقى على العدم عند توفر صوارفه فلو كان نفس مقدور العبد مقدوراً لله وأراده وكرهه العبد لزم وقوعه لتحقق الداعي ولزم لا وقوعه لتحقق الصارفة

والجواب: أن الشيء لا يقع عند وجود الصارف إذا لم يتعلق به إرادة أخرى مستقلة. والفلاسفة إلى أنه لا يقدر على أكثر من واحد ولذا أثبتوا العقول العشرة وأسند كثير منهم المعلولات الأخيرة إلى المتوسطة والمتوسطة إلى العالية لكن تحقيق مذهبهم أن لا مؤثر في الحقيقة(ب/ 12) إلا الله تعالى وأن الوسائط بمنزلة الشرائط والآلات لكنهم لا ينكرون التوقف على الوسائط.

---

[105] فصلت:39،الأحقاف:33

[106] النظام ابراهيم بن سيار خلط كلام الفلاسفة بكلام المعتزلة. عاشر قوما من الثنوية و السمنية، مات سنة 835/221 أو 845/231. راجع مقالات الإسلاميين للأشعري ، 166-167 وغيرها، والفرق بين الفرق للبغدادي 79-91

[107] في بغداد وتوفى فى بلخ سنة 931/319 راجع:الفرق بين الفرق للبغدادي 18-110؛ والملل والنحل للشهرستاني 1/77-78 إسمه عبد الله بن احمد الخراساني كان رئيس طائفة من المعتزلة تسمى الكعبية انفرد ببعض الآراء فى الكلام.ولد ببلخ، وأقام مدة طويلة

وظاهر مذهب الأشعري ينفيه بمعنى أن كل ما يمكن تعلق إرادة الله تعالى به فهو ممكن الوجود بدون توقف تأثيره تعالى فيه على غيره فلا يرد أن إيجاد البياض في الجسم مثلاً يتوقف على إزالة السواد عنه بداهةً.

وقاعدة الأشعري تقتضي أن لا يتوقف عليه وذلك لأن تعلق الإرادة بإيجاد البياض يستلزم تعلقها بإعدام السواد وإثبات الفلاسفة القدرة له تعالى لا ينافي الإيجاب الذي هو مذهبهم لأن للقدرة معنيين:

**أحدهما** صحة الفعل والترك بمعنى أنه يصح منه الإيجاد وتركه ليس شيء منهما لازماً لذاته بحيث يستحيل الانفكاك. وإليه ذهب المتكلمون وهو ينافي الإيجاب.

**وثانيهما** إن شاء فعل وإن لم يشأ لم يفعل. وهذا متفق عليه بين الفريقين إلا أن الحكماء ذهبوا إلى أن مشيئة الفعل الذي هو الفيض والجود لازمة لذاته كلزوم العلم وسائر الصفات الكمالية زعماً منهم أن تركه نقص فيستحيل انفكاكه عنه فمقدم الشرطية الأولى واجب الصدق ومقدم الثانية ممتنع الصدق وكلتا الشرطيتين صادقتان في حقه تعالى إذ صدق الشرطية لا يستلزم صدق طرفيها ولا ينافي كذبهما.

وهذا المعنى لا ينافي الإيجاب فإن دوام الفعل وامتناع الترك بسبب الغير لا ينافي الاختيار بالنسبة إلى ذاته كما أن العاقل ما دام عاقلاً يغمض عينيه كلما قرب إبرة من عينه يقصد الغمر فيها من غير تخلّف مع أن غمضه باختياره وامتناع ترك الإغماض بسبب كونه عالماً بالضرر لا ينافي الاختيار فما ظنك بمن يكون علمه عين ذاته.

ثم إن تعلق القدرة عند المثبتين للتكوين قديمة غير متناهية بالفعل؛ لأن الممكنات التي يصح صدورها من الواجب غير متناهية بمعنى أنها لا تنتهي إلى حدّ لا يتصور فوقه تعلق آخر فإذا تعلقت الإرادة بأحد جاز الممكن وترجح تعلق التكوين بإيجاده فوجد وأما النافون له

فمنهم من قال: تعلقاتها قديمة بمعنى أنها تعلقت في الأزل بوجود المقدور فيما لا يزال فتكون غير متناهية أيضاً .

ومنهم من قال: أنها حادثة لدى ترجيح الإرادة أحد طرفي الوجود. وهذه التعلقات متناهية بالفعل غير متناهية بالقوة كما هو شأنها والأولى بل الصواب على مذهب نفي التكوين أن يكون لها تعلقات كالعلم.

## صفة الارادة

**مريد** لجميع الكائنات، أي ذو إرادة ومشيئة تتوجه إلى ما علم الله وجوده فتوجده وما علم أنه لا يوجد لا تتعلق به حتى الخير والشر كما يأتي فهي صفة مغايرة للعلم والقدرة توجب تخصص أحد المقدورين بالوقوع مع استواء نسبة القدرة إلى الكل وكون العلم تابعاً للوقوع، يعني أنهم قالوا إن العلم بوقوع شيء فرع وتابع لكونه مما يقع في الحال أو الاستقبال، فإن المعلوم هو الأصل والعلم صورة له وظلّ وحكاية عنه سواء كان مقدماً عليه وهو الفعلي أو مؤخراً عنه وهو الانفعالي وصورة الشيء وحكايته فرعه حتى لو لم يكن ذلك الشيء بتلك الحيثية التي تعلقت به العلم لا يكون علماً، بل جهلاً فلا يكون عين الإرادة المرجحة التي كون الشيء مما يقع فرع وتابع لها والعلم بالمصلحة وإن كان مما يصلح مرجحاً، لكن الأصلح ليس بواجب عليه فله تركه وفعل ما لا مصلحة فيه. وأن نسبة أحد الضدين(أ/13) إلى القدرة سواء فكما يمكن أن يقع بها هذا الضد يمكن أن يقع بها الآخر وكذا نسبة كل منهما إلى الأوقات والأحوال فلا بدّ من مخصص مرجح أحدهما على الآخر ويعين له وقتاً وحالاً من بين الأوقات

والأحوال وهي الإرادة القديمة إذ لو كانت حادثة كما قالت الكرامية[108] لزم كونه تعالى محلاً للحوادث ولإحتاجت إلى إرادة أخرى ويتسلسل.

وأما الإعتراض بأن الإرادة التي من شأنها التخصيص عند التعلق أن تساوي نسبتها إلى المتعلقين أعني الفعل والترك تحتاج إلى مخصص آخر وإلا لزم الترجيح بلا مرجح وينقل الكلام إلى ذلك المخصص فيلزم الدور والتسلسل وإن كان من شأنها التعلق بجانب واحد فقد يلزم الإيجاب ونفي الاختيار؛ لأنه حينئذ لازمها وهي لازم الذات فيكون هو أيضاً لازم الذات فلا مخلص عنه إلا باختيار الأول. ومنع محالية التسلسل؛ لأن تلك التعلقات أمور اعتبارية لا يجري فيها برهان التطبيق والحق ترادف الإرادة والمشيئة كترادف القوة والقدرة واتحادهما . ومنهم من قال: إن المشيئة أعمّ لأنها تتعلق بالإيجاد والإعدام والإرادة تخص إيجاد الممكنات

قال تعالى: { **إِنَّمَا أَمْرُهُ** }، أي مشيئته { **إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** }[109] وقال: { **إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ** }[110].

ومنهم من ذهب إلى أن المشيئة قديمة والإرادة حادثة قائمة بذاته تعالى. ومنهم من زعم أن معنى إرادة الله فعله أنه ليس بمكره ولا ساهٍ ولا مغلوب ومعنى إرادته فعل غيره أن آمر به ويردّ بأن هذا المعنى لا يصلح مخصصاً لأحد الطرفين وهو ظاهر لاستواء نسبتها إلى كل الأوقات والمقدورات وإن أريد أن الفعل يصدر عن الذات على هذا الوجه وهو معنى الإرادة فهو قول بالإيجاب بكون الأفعال حينئذ مقتضى ذاته من غير أن تتوسط صفة بها يصح الفعل والترك إلا أن يقال حينئذ بإثبات المشيئة فتكون هي المرجحة ومغايرتها للأمر ظاهر جليّ كما يأتي.

## صفة السمع و البصر

{**سَمِيعٌ بَصِيرٌ**}[111] وهما صفتان قديمتان ينكشف بهما المسموعات والمبصرات عند حدوث التعلق بها من غير أن يكون بتقليب حدقة وإصغاء أذن ولا على سبيل الانطباع ووصول الهواء فهو يسمع ويرى ما تحرك أو سكن أو بطن في الورى من العالم الأسفل والأعلى فيسمع كلام النفس في النفس وصوت المماسة الخفية عند اللمس ويرى السواد في الظلمات والماء في الماء لا يحجبه الامتزاج ولا الظلام ولا النور كما لا يحجبه سمعه البعد والسور، فهو القريب الحاضر جلّت صفاته من تشاكل صفات خلقه أو تجمع معها في حدّ وحقيقة . ومن خصائصه تعالى أنه لا يشغله ما يبصره عما يسمعه ولا ما يسمعه عما يبصره، بل يحيط علماً بالمسموعات والمبصرات من غير سبقية إدراك إحدى الصفتين على الأخرى فلا يشغله شأن عن شأن.

---

[108] الكرامية أصحاب ابي عبد الله محمد بن كرام الذى مات سنة 868/255، وهم طوائف يثبتون الصفات لله تعا لى ،وينتهون فيها إلى التشبيه والتجسيم. زعموا أن الله تعالى لا يقدر إلا على الحوادث التى تحدث فى ذاته من إراداته ،أقواله، راجع: الفرق بين الفرق لعبد القاهر البيغدادي، 137/130؛ و مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري،141/143

[109] يس:82.

[110] إبراهيم:19،فاطر:16

[111] المجادلة:1،الحج:61،75،لقمان:28

وهما عند الأشاعرة وجمهور المعتزلة والكرامية مغايرتان للعلم فإنا إذا علمنا علماً تاماً جلياً بشيء ثم أبصرناه أو سمعناه(ب/13) نجد بالبداهة فرقاً بين الحالتين. ونعلم بالضرورة أن الحالة الثانية مشتملة على أمر زائد مع العلم فيهما فذلك الزائد هو الإبصار والسمع. وأوّلهما فلاسفة الإسلام **والكعبيّ** و **أبو الحسين البصري** بالعلم بالمبصرات والمسموعات على وجه يكون سبباً للانكشاف التام شبيهاً بالانكشاف الجليّ الذي يكون لنا بعد استعمال الحاستين المذكورتين، وإن كان له تعلق آخر وانكشاف آخر قبل حدوث المبصرات والمسموعات بتعلقه الأزلي العامّ.

فعلى هذا يكونان صفتين اعتباريتين متجددتين عند حدوث المسموعات والمبصرات راجعتين إلى صفة العلم لا زائدتين عليها. ويردّ بأنه لو كانتا راجعتين إلى العلم لما امتلأ القرآن والأحاديث وكتب الصفات بذكرهما بخصوصهما كما لم يرد الوصف بخصوص الشمّ والذوق واللمس لذلك الرجوع وبأنه لو رجع الصفات الواردة المنصوص بها بعضها إلى بعض لساغ في الصفات الأخر أيضاً كالقدرة والإرادة والكلام كما مذهب الحكماء.

## صفة التكلم

**متكلم** بكلام أزلي غير متناهٍ كما نطق به القرآن قائم بذاته العليّة ليس من جنس الحروف والأصوات التي هي أعراض حادثة مشروط حدوث بعضها بانقضاء بعض مخالف المسكوت وعدم مطاوعة الآلة والخرس الباطنيين ويقال له الكلام النفسيّ؛ لأن كل من يأمر وينهي ويخبر يجد في نفسه معنى وهو له تعالى نحو اقتضاء الطاعة من العباد، ثم يدل عليه بالعبارة أو الكتابة أو الإشارة ألا يرى أنك كثيراً ما تقول لصاحبك أن في نفسي كلاما أريد أن أذكره لك. وقال عمر رضي الله عنه: **أني زوّرت في نفسي مقالة**. وقال الأخطل:

**إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلاً**[112]

وهو غير الإرادة ؛ لأن الشخص قد يأمر بما لا يريده كمن أمره عبده قصداً إلى إظهار عصيان وعدم امتثاله لأوامره، فإنه يأمره ويريد أن لا يفعل ليظهر عذره عند من يلومه بضربه والاعتراض بأنه لا طلب في هذه الصورة كما لاإرادة. فالموجود منيعة الأمر لا حقيقته مدفوع بأنّ الأمر تعبير عن الحالة التي تحصل في ذهن الآمر عند قصد الأمر، أعني النسبة الإيجابية بطريق الاستعلاء سواء أراد وقوع ما تعلّق به الأمر أو لم يرد بل أراد عدم وقوعه وإنكار هذا مكابرة وغير العلم؛ لأنه قد يخبر عما لا يعلم بل يعلم بخلافه ولكن اعترض بأن ذلك إنما يدل على مغايرة ما يجده المخبر حين الإخبار للعلم بمعنى التصديق اليقيني لا للتصور أيضاً، فإن كل من تصدّى للإخبار يحصل في ذهنه صورة ما أخبر به بالضرورة وعلى تقدير التسليم غير تام في شأنه تعالى إذ لا يمكن أن يقال أنه أخبر عما لا يعلم؛ لأنه يستلزم الجهل أو الكذب وهومحال على ذاته. وقياس الغائب على الشاهد لا يفيد في المطالب اليقينية وقد أجيب عن ذلك بما لا يتم أيضاً.

---

[112] هذا البيت ينسب إلي الأخطل، راجع:الصواعق المرسلة ج1 ص 345

وقال المحقق **الخياليّ** في بيان المغايرة إنا نجد من أنفسنا عند الإخبار عن قيام زيد، أعني النسبة الإيجابية بينهما معنى لا يتغير بتغير العبارات من نحو(أ/ 14): زيدٌ قائم، وزيد ثبت له القيام، واتصف زيد بالقيام. وتغير مدلولاتها اللغوية المتغيرة بتغيرها وهو ظاهر لأن العبارات تختلف بحسب الأزمنة والأقوام وبحسبها تختلف مدلولاتها من غير اختلاف وتغير في ذلك المعنى، بل كما يدل عليه بالعبارة يدلّ عليه بالكتابة والإشارة أيضاً فعلم أنه غير الكلام اللفظي الحادث.

ثم إن الشاكّ في وقوع النسبة يتصور الأطراف والنسبة البتة، فيحصل له التصورات الثلاث ولا يجد ذلك المعنى، أي النسبة الإيجابية عند عدم قصد الإخبار عنه فيكون مغايراً لتصور ما أخبر به. ثم إذا قصد الإخبار عن ذلك يجد في نفسه تلك النسبة الإيجابية التي يعبّر عنها بزيد قام وغيره مع عدم علمه بوقوع النسبة لكونه شاكاً، فيكون مغايراً للتصديق بما أخبر به أيضاً فليس ذلك المعنى شيئاً من العلوم وأورد عليه بعض ما يرد على الأول وزيادة ثم انقسام الكلام إلى الماضي والمستقبل والأمر والنهي باعتبار تعلقاته الأزلية كباقي الصفات، وهو لا ينافي كونه صفة واحدة حقيقية غير متكثرة، فإن التكثير بحسب التعلق والإضافات لا يوجب التكثر بحسب الذات والإخبار بالنسبة إلى الأزل لا يتصف بشيء من الأزمنة إذ لا ماضي ولا مستقبل ولا حال بالنسبة إلى الله تعالى لتنزّهه عن الأزمان كما أن علمه الأزلي لا يتغير بتغير الأزمان فلا يرد أن الإخبار في الأزل بالماضي كذب محض يجب تنزيه الله عنه ويكفي في الأمر مثلاً وجود المأمور في علم الآمر كما إذا قدر الرجل ابناً له فأمره بأن يفعل كذا بعد الوجود، أي يطلب منه أن يأتي به بعد وجوده لا حال عدمه ولا سفه في ذلك لا سيما بالنسبة إلى من كان الكائن عنده كالمكون في كونه محقق الوجود

وأما أمر النبي عليه الصلاة والسلام لنا فهو ضمنيّ فإن خطابه عمّ الحاضرين بالقصد والصراحة والغائبين بالتبع والضمن والخطاب للمعدوم ضمناً وتبعاً ليس سفهاً أصلاً.

وذهب الأشاعرة إلى أن ذلك باعتبار التعلقات عنوا أنه صفة تجلت في مظهر الحروف والأصوات فباعتبار المظهر حادث. وبالنظر إلى نفسها قديم ويحتاج حينئذ إلى القول بأن دلالة اللفظي عليه دلالة الأثر على المؤثر لئلا يلزم التعدد بتعدد اللفظ وهو خلاف الظاهر إذ الظاهر أنها دلالة الموضوع على الموضوع له وما ورد على كليهما من أن وجود جنس الكلام بدون الأنواع مستحيل مدفوع بأن ذلك في الجنس والنوع الحقيقيين

والكلام صفة شخصية يعتبر تكثرها بحسب تعلقاتها وهي صفات له لا أنواع والدليل على ثبوت صفة الكلام قوله عليه الصلاة والسلام **كلام الله غير مخلوق ومن قال إنه مخلوق فهو كافر بالله العظيم** [113] وتواتر النقل عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أنهم أجمعوا على أنّ الله تعالى متكلم وقد ثبت صدقهم بدلالة المعجزة من غير توقف على الشريعة وإخبار الله تعالى عن صدقهم حتى يلزم الدور بل أهل الله كلهم متفقون على

---

[113] من تتمة الحديث. نقل العجلونى فى كشف الخفا برقم 1869 عن الديلمى بلفظ "القرآن كلام الله غيرمخلوق فمن قال بغير هذا فقد كفر" و قال الحديث من الوجهين بل من جميع طرقه باطل.

ذلك(ب/14)وكون الحجة إجماعاً إنما يتوقف على صدق النبي؛ لأن مبناه قوله عليه الصلاة والسلام: «**لا تجتمع أمتي على الضلالة**»[114] **وما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن**.[115]

لكن اختلفوا في تحقيق كلامه وقدمه وحدوثه لما أنهم رأوا قياسين متعارضي النتيجة وهما كلام الله تعالى صفة له وكل ما هو صفة له قديم. فكلام الله تعالى قديم وكلام الله مؤلف من حروف مرتّبة متعاقبة في الوجود وكل ما هو كذلك فهو حادث فكلام الله حادث اضطروا إلى القدح في أحد القياسين ضرورة امتناع حقيّة النقيضين

**فالأشاعرة** ذهبوا إلى ما سمعت ومنعوا أن كلامه تعالى مؤلف من الحروف والأصوات [116].**والحنابلة** ذهبوا إلى أنه حروف وأصوات قديمة ومنعوا أنّ كل ما هو مؤلف من حروف وأصوات مرتبة فهو حادث. بل قال بعضهم بقدم الجلد والغلاف

**والمعتزلة** قالوا بحدوث كلامه تعالى وأنه من الأصوات والحروف وهو قائم بغيره، ومعنى كونه متكلماً عندهم أنه توجد تلك الحروف والأصوات في الجسم كاللوح المحفوظ أو جبرائيل أو غيرهما كشجرة موسى عليه السلام فهم منعوا أن المركب من الأصوات والحروف صفة الله لا أنها صفة له قائمة بغيره . **والكرامية** لما رأوا أن مخالفة الضرورة التي التزمها الحنابلة أشنع من مخالفة الدليل وأن ما إلتزمه المعتزلة من كون كلامه تعالى صفة لغيره ومعنى كونه متكلماً أنه خالق الكلام في الغير مخالف للعرف واللغة. اختاروا أن كلامه تعالى صفة له مؤلف من الحروف والأصوات الحادثة القائمة بذاته تعالى فمنعوا أن كل ما هو صفة له فهو قديم والنزاع بينهم وبين الأشاعرة في إثبات الكلام النفسي وعدمه وإلا فالأشاعرة لا تقول بقدم الألفاظ والحروف وهم لا يقولون بحدوث الكلام النفسي. واستدلوا على نفيه بأن القرآن متصف بما هو من صفات المخلوق وسمات الحدوث من التأليف والتنظيم والإنزال والتنزيل والنسخ والتبديل وكونه مسموعاً فصيحاً إلى غير ذلك وهو إنما يقوم حجة على الحنابلة لا على الأشاعرة؛ لأنهم قائلون بحدوث النظم والتأليف وإنما كلامهم في المعنى القديم القائم بنفسه تعالى. ومعنى { **مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ** }[117]. أنه محدث الإتيان لا محدث العين والجعل في { **إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا**}[118] ، بمعنى التقدير لا الخلق فإنه كثيراً ما يستعمل في غيره بدليل: { **وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَانِ إِنَاثًا** }[119]. وأقوى شبه المعتزلة أنكم متفقون على أن القرآن اسم لما نقل إلينا بين دفتي المصاحف تواتراً وهذا يستلزم كونه مكتوباً في المصاحف مقروء بالألسن مسموعاً بالآذان وكل ذلك من سمات الحدوث بالضرورة وأجيب عنها تارة بأن له وجودات أربعة كسائر الموجودات وجود في الخارج ووجود في الأذهان ووجود في العبارة

---

[114] رواه إبن ماجه فتن ،36/8 رقم: 3950 بلفظ "إن أمتي لا تجتمع على ضلالة" و قال المحقق: "و قد جاء الحديث بطرق، فى كلها نظر

[115] والعجلونى فى الكشف و قال: "سنده منقطع." رواه أحمد فى مسنده، 1/ 379

[116] ب:إذ لا معنى لكونه متكلما سوى أنه متصف بالكلام ويمتنع قيام اللفظي الحادث بذاته فتعين الكلام النفسى

[117] الأنبياء:2

[118] الزخرف:3

[119] الزخرف:19

ووجود في الكتابة فهي[120] تدل على العبارة وهي على ما في الذهن وهو على ما في(الأعيان و) الخارج فوصفه بالأوصاف المذكورة ليس باعتبار حقيقة وجوده الخارجي حتى يلزم حدوثه، بل هو مجاز عقليّ من قبيل صفة جرت على غير من هي له؛ لأنه وصف المدلول بصفات الدالّ على معنى هو مكتوب في مصاحفنا بأشكال الكتابة وصور الحروف الدالّة عليه محفوظ في قلوبنا بألفاظه المخيّلة مقروءاً بألسنتنا بحروفه الملفوظة (أ/ 15)المسموعة مسموع بآذاننا بذلك أيضاً، كما يقال: سمعت هذا المعنى من فلان وقرأته في بعض الكتب وكتبته بيدي. وتارة بأن المراد به حينئذ اللفظ وهو حادث فإن كلام الله وقرآنه مشترك عندهم بين الكلام [121] النفسي ومعنى إضافته إلى الله تعالى حينئذ في كونه صفة له قائماً به وبين النظم المؤلف الحادث باعتبار الدلالة على المعنى القديم ومعنى الإضافة أنه مخلوق له ليس من تأليف المخلوقين.[122]

وقد أجمع أهل السنة وغيرهم على أنه لا يصح نفي كلام الله عن ذلك اللفظ المؤلف؛ لأن الإعجاز والتحدي والدلالة على الأحكام الشرعية المشتمل هو عليها إنما هو في كلام الله دون كلام غيره [123] وما وقع عن بعضهم من أن تسمية هذا النظم كلام الله مجاز مؤول بأنه ليس معناه أنه غير موضوع للنظم، بل إن الكلام في التحقيق والذات اسم للمعنى القديم القائم بالنفس وتسميته اللفظي به ووصفه له وصفاً اشتراكياً إنما هو باعتبار دلالته على المعنى القديم، فلا نزاع في الوضع والتسمية إلا أنه وضع لعلاقة فيتسامح في عدّ التسمية مجازاً فحينئذ يوصف بما هو من لوازم القديم كما في القرآن غير مخلوق فالمراد به حقيقته الموجودة في الخارج أو بما هو من لوازم المخلوقات والمحدثات يراد به الألفاظ المنطوقة المسموعة ؛كما في قرأت نصف القرآن أو المخيّلة ؛ كما في حفظت القرآن أوالأشكال المنقوشة؛كما في يحرم على المحدث مسّ القرآن لما سمعت له من الوجودات الأربعة.

وقد منع **الشيخ أبو منصور** [124]سماع الكلام القديم الذي هو صفة الله وجرى عليه **الأستاذ أبو إسحاق الإسفرائيني** فمعنى حتى يسمع كلام الله حتى يسمع ما يدل عليه كما يقال عِلم فلان، فموسى عليه السلام سمع صوتاً دالاً على كلام الله تعالى لكن لما كان بلا واسطة الكتاب والملك خصّ باسم الكليم؛ ولأنه سمعه من كل الجهات لا بالأذن فقط على خلاف المعتاد، أو لأنه وقع له وهو في الأرض بخلاف نبينا فإنه إنما وقع له وهو ك {**قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى**}[125]. وجوّزه الأشعري ومن تابعه لمن أكرمه الله من رسله وملائكته بواسطة أو غيرها.

---

[120] ب:فالكتابة تدل على العبارة وهى على ما فى الأذهان وهى على ما فى الأعيان والخارج

[121] ب:المعنى

[122] ب:وهو بالمعنى الأول محل نظر علماء الأصول وبمعنى الثاني محل نظر علماء العربية والفقه وأصوله

[123] ب:فهو نزل على الرسول لفظا ومعنى لا كالحديث القدسي معنى فقط كما نقلناه ف شرح منظومتنا القرائية فراجعه

[124] محمد بن محمد ابو منصور الماتردي من أئمة العلماء الكلام إليه تنسب الماتردية من اهل السنة نسبة إلي ما تريد فى سمرقند من مؤلفاته كتب التوحيد،وتأويلات القرآن،مات بسمرقند سنة 944/333. فلينطر سليمان الكفوى، كتائب أعلام الأخيار من فقهاء مذهب النعمان المختار، مكتبة أسعد أفندى ، رقم 548،76/أب، والأعلام،للزركلي، 242/7

[125] النجم:9

قال تعالى: { **وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ** }[126] ،الآية. وقد جوزوا تعلّق الرؤية والسماع بكل موجود حتى الذات والصفات، فقالوا: قد خلق الله لموسى فهماً في قلبه وسمعاً في أذنيه وسائر بدنه سمع به كلام الله من غير صوت ولا حرف بغير واسطة على خلاف العادة . وقال الباطنية[127]: خلق له فهماً في قلبه ولم يخلق له سمعاً.

وأهل الظاهر قالوا: نؤمن به ولا نتكلم فيه قصداً منهم أنه متشابه . وزعم المعتزلة جرياً على مذهبهم الفاسد في إنكارهم الكلام النفسي أنه خلق له فهماً في قلبه وصوتاً في الشجرة فسمعه.

وقال صاحب العضدية الأسلم من الإشكالات الأخلى من التكليفات أن يقال: لم يرد الأشعري بالمعنى القديم المدلول المقابل للّفظ، بل أراد ما يقابل العين فمراده أن القرآن اسم للفظ. والمعنى شامل لهما إلا أنه لا يقوم بذاته كسائر الصفات، بل قديم قائم بذاته تعالى بلا ترتيب فيه حتى أن من سمعه سمعه غير مرتب الأجزاء لعدم احتياجه (ب/15)إلى الآلة، فهو كالقائم بنفس الحافظ بلا ترتب والترتب إنما يحصل في التلفظ والقراءة لعدم مساعدة الآلة. وهذا معنى قولهم المقروء قديم والقراءة حادثة.

وردّ بأنا لا نعقل لفظاً قائماً بالنفس غير مؤلف من الحروف المنظومة والمخيلة المشروط وجود بعضها بعدم البعض ولا يتعقل من قيام الكلام بنفس الحافظ إلا كون صور الحروف مخزونة مرتسمة في خياله بحيث إذا التفت إليها كان كلاماً مؤلفاً من ألفاظ مخيلة أو نقوش مرتبة وإذا تلفظ كان كلاماً مسموعاً وبأنه يشكل حينئذ الفرق بين نحو علم وعمل ولمع وغير ذلك. وقد اعترضه الجلال باعتراضات أخر ثم اختار أن كلام الله تعالى هو الكلمات التي رتّبها الله في علمه الأزليّ بصفته الأزلية التي هي مبدأ تأليفها وترتيبها. وهذه الصفة قديمة وتلك الكلمات المترتبة أيضاً بحسب وجودها العلميّ أزليّة كأزلية سائر الممكنات بحسب الوجود العلمي فراجع تفصيله فقد ظهر أن الله تعالى حيّ بحياة عالم بعلم قادر بقدرة مريد بإرادة سميع بسمع بصير ببصر متكلم بكلام فهذه سبع صفات وزيد عليها البقاء، أي استمرار الوجود وعليه قوله:

**ثماني صفات أثبتت لألهنا لدى الأشعري الحبر في العلم والتقى**
**حياة وعلم قدرة وإرادة كلام وإبصار مع السمع والبقا[128]**

ولعل الحياة تستلزمه ولذا لم يتعرض له أكثرهم.

---

[126] الشورى:51

[127] الباطنة: هم فرقة ادعوا بأن لكل ظهر بطنا، ولكل شرع تأويلا، وبأنهم أصحاب التعليم ،وبأنهم المخصوصون بالاقتباس من الإمام المعصوم. إنهم فى الأصل زنادقة دهرية يدعون بأن العالم قديم وينفون الرسل والشرائع. راجع: الملل والنحل للشهرستاني 1/192-198؛ و الفرق بين الفرق للبغدادي، 168-188

[128] طبقات الشافعية الكبرى، للإمام العلامة ، تاج الدين بن علي بن عبد الكافي السبكي، 10/343.

## مبحث العينية[129]

**اختلفوا في أنها عين ذاته أو غيرها** أو لا هو ولا غيرها. فذهبت المعتزلة والفلاسفة إلى الأول، فالفلاسفة حققوا عينيتها بأن ذاته تعالى من حيث أنه مبدأ لانكشاف الأشياء عليه علم فثبوت الانكشاف على ذاته بذاته كان عالماً. وكذا الحال في سائر الصفات قالوا: وهذه الرتبة أعلى من أن تكون تلك الصفات مغايرة زائدة عليه؛ لأنه لا يحتاج إلى ذلك مثل احتياجنا إليه

ولذا قيل: محصّل كلامهم نفي الصفات وإثبات نتائجها وغاياتها.

**وأما المعتزلة** فظاهر كلامهم أنها من الاعتبارات العقلية التي لا وجود لها لكن قولهم بأن له عالمية وأنه عالم بالذات وعلمه عين ذاته وعالميته زائدة يدلّ على أنهم ينفون العلم مثلاً رأساً ويجعلونه نفس الذات أيضاً ويقولون: عالم لا علم له، وقادر لا قدرة له إلى غير ذلك ويثبتون لذاته تعلقاً بالمعلومات يسمونه العالمية وهو التعلق بين العالم والمعلوم الذي به يصير العالم عالماً والمعلوم معلوماً فلو أثبتوا لذاته العلم بمعنى الإضافة لكان معنى العالمية الإتصاف بهذه الإضافة لا نفس الإضافة . واستدل على نفي الغيرية بأنها لو زادت لكانت ممكنة لاحتياجها إلى الموصوف فلا بد من علّة فإن كانت غير ذات الواجب يلزم احتياج الواجب في صفات الكمال إلى غيره فيكون ناقصاً مستكملاً بالغير وإن كانت ذات الواجب يلزم أن يصدر من الواحد الحقيقي أمور متكثرة وهو تعالى واحد من جميع الجهات فلا يكون مصدراً للكثرة. وكذا يمتنع لبساطة الحقيقة أن يكون فاعلاً وقابلاً لشيء واحد معاً كما بيّن كلّ ذلك في موضعه وبأنها في إثباتها إبطال التوحيد؛ لأنها حينئذ(أ/ 16) موجودات قديمة مغايرة لذاته تعالى فيلزم قدم غير الله وتعدد القدماء، بل تعدد الواجب لذاته على ما وقع في كلام بعض المتقدمين من ترادف الواجب والقديم

**وصرح بعض المتأخرين**: من أن واجب الوجود لذاته هو الله تعالى وصفاته وقد كفرت النصارى بإثبات ثلاثة من القدماء فما بال السبعة وأكثر. وذهب جمهور المتكلمين إلى الغيرية واستدلوا بأن كون الشيء عالماً مثلا معلَّل بقيام العلم به في الشاهد فكذا في الغائب وأنه من قام به العلم؛ لأن صدق المشتق على الشيء يقتضي ثبوت المأخذ له بمعنى اتصافه ولا ريب أن الأوصاف المذكورة من الأمور العينية كالسواد والبياض . فلما ثبت مأخذها وظاهر أن كونه عالماً وقادراً مثلاً قائم بذاته كما أنّ الضوء مضيء بذاته علم بالضرورة ثبوته في نفسه فكما أنّ اتصاف الجسم بالسواد يدل على ثبوت السواد في الخارج إذ الوجود الربطي في الأمور العينية فرع الوجود النفسي . فكذا الحال فيما نحن فيه وبأنه يلزم في العينية كون العلم مثلاً حياة وقدرة وعالماً وحياً وقادراً وصانعاً للعالم ومعبوداً للخلق وكون الواجب غير قائم بذاته إلى غير ذلك من المحذورات.

**وذهب الأشاعرة** إلى أنها لا هو ولا غيره، أي ليست الصفات عين الذات ولا غير الذات وفسروا العينية باتحاد المفهوم بلا تفاوت أصلاً والغيرية بكون الموجودين بحيث يتصوّر وجود أحدهما مع عدم الآخر، أي يمكن الانفكاك بينهما في الوجود فلا يكونان نقيضين حتى يقال كلامهم في الظاهر رفع للنقيضين وفي الحقيقة جمع بينهما بل

---

[129] ناقش المؤلف مسئلة العينية ثانيا لبعض المواضع اللتي لم تذكر هناك

يتصور بينهما واسطة بأن يكون الشيء بحيث لا يكون مفهومه مفهوم الآخر. ولا يوجد بدونه كالجزء مع الكلّ والصفة مع الذات وبعض الصفات مع بعضها، فإن ذات الله تعالى وصفاتها أزلية والعدم على الأزليّ محال والواحد من العشرة يستحيل بقاؤه بدونها وبقاؤها بدونه إذ هو منها فعدمها عدمه ووجودها وجوده بخلاف الصفات المحدثة، فإن قيام الذات بدون تلك الصفة المعينة متصور فتكون غير الذات. كذا فصلوا مذهبهم وفيه تخصيص لما استدلوا به على تفسيرهم من أنه يقال في العرف واللغة ما في الدار غير زيد مع أنه ذو يد وقدرة فكأنهم أطلقوا ذلك ثم فصلوا بأن الكل والجزء كذلك مطلقاً . وكذا الموصوف والصفات الأزلية دون المحدثة فلا يرد أن اعترافهم بزيادة الصفات المحدثة يبطل استدلالهم؛ لأن زيداً قد يتصف في الدار بالصفات المحدثة، لكن يرد أن المراد بغير زيد غيره من الأفراد الإنسان وإلا لزم أن لا يغاير زيداً ثوبه وأمتعة الدار وهو باطل قطعاً ولا ينتقض تفسيرهم بالجسمين القديمين ولا الإلهين المفروضين؛ لأن مادة النقض يجب أن تكون متحققة لكن ما قيل [130] من أنه إن اكتفى[131] بصحة الانفكاك من جانب لزمت المغايرة بين الكل والجزء وكذا بين الذات والصفة للقطع بجواز وجود الجزء بدون الكلّ والذات بدون الصفة وقيد الإضافة غير مراد لاستلزامه عدم المغايرة بين كل متضائفين . وإن أريد من الجانبين انتقض بالعالم مع الصانع والعرض مع المحلّ إذ لا يتصور وجود العالم مع عدم الصانع لاستحالة عدمه ولا وجود العرض كالسواد بدون(ب/ 16) المحلّ مع القطع بالمغايرة اتفاقاً فمدفوع أيضاً بأن الانفكاك يعم الانفكاك في الوجود في الحيز لعدم تقييده فكأنه قال: أي فرد كان من الانفكاك فيجوز أن ينفك الصانع والمحلّ في الوجود والعالم والعرض في الحيز لاستحالة تحيز الصانع وأن حيز العرض هو المحلّ وحيز المحلّ مكانه نعم لو زيد قيد في الوجود أو في التحيز لورد النقض؛ لأن كلمة أو في التعريف للتقسيم لا للترديد فيفيدان قسماً في المحدود حدّه هذا وقسماً آخر حده ذاك كما يرد على من قال "في العدم أو الحيز" إذ لا انفكاك في العدم والحيز إلا من جانب العالم فقط. ولو قيل الغيران هما الشيئان اللذان لا يكون الإشارة إلى أحدهما عين الإشارة إلى الآخر تحقيقاً أو تقديراً اندفع تلك النقوض لكن يدخل فيه الجزء والكلّ ولا بأس به ولا دخل لهما فيما هو الفرض هنا من الاحتراز عن تعدد القدماء كما هو المشهور ولقائل أن يقول: لا نزاع من أهل السنة في كثرة الصفات وتعددها سواء كانت غير متغايرة أو متغايرة كما هو رأي الجمهور لكنهم أيضاً لا يجوزون الانفكاك فالمآل واحد والتغاير اصطلاح فالأولى أن يجاب بأن المستحيل تعدد ذوات قديمة لا ذات وصفات، وأن لا يجترىء على القول بكون الصفات واجب الوجود لذاتها بل يقال واجبة لا لغيرها، بل لما ليس عينها ولا غيرها أعني الذات المقدسة وعليه قول من قال الواجب الوجود لذاته هو الله تعالى وصفاته بمعنى أنها واجبة لذات الواجب. وإما في نفسها فهي ممكنة ولا استحالة في قدم الممكن إذا كان قائماً بذات القديم واجباً له غير منفصل عنه. وقاعدة "كل ممكن حادث" مخصصة بالقديم الممكن أو أنها غير كلية؛ لأن سبب الحدوث هو الصدور بالاختيار لا مجرد الإمكان والإيجاب في الصفات كمال لأجل أن الخلو في الأزل نقص بخلاف إيجاب غيرها وإليه يرجع القول بأنّ الواجب

---

[130] ب: يقال

[131] ب: أريد

هو الذي اقتضى ذاته وجودها على ما هي عليه من صفات الكمال ونعوت الجلال إذ لا فرق بين الإيجاب والاستلزام والاقتضاء وليس كلّ قديم آلهاً حتى يلزم من وجود القدماء تعدد وجود آلهة لكن ينبغي أن يقال: الله قديم بصفاته ولا يطلق القول بالقدماء لئلا يذهب الوهم إلى أن كلاً منها قائم بذاته موصوف بصفات الألوهية.

## الفرق بين قول النصارى و المسلمين في القدم

**والنصارى** وإن لم يصرّحوا بالقدماء المتغايرة لكنهم لزمهم ذلك، ولزوم الكفر المعلوم كفرٌ وإن لم يكن هناك التزام؛ لأنهم أثبتوا الأقانيم الثلاثة التي هي صفة الوجود والعلم والحياة وسموها: الأب والابن وروح القدس. فقالوا: الله جوهر، أي قائم بذاته، له أقانيم ثلاثة، فجعلوا الذات الواحدة نفس ثلاث صفات ومع هذا الجهل الشنيع زعموا أن أقنوم العلم قد انتقل إلى عيسى فجوزوا الانتقال والانفكاك فكانت ذواتاً متغايرة.

وهذا الزعم يأبى أن يوجه كلامهم بأنه ميلٌ منهم إلى أن الصفات عين الذات؛ لأنه لا معنى للانتقال إذا كان عين الذات ولا يأبى عنه قولهم بالقدماء الثلاث بناء على أنه إن نظر إلى الاتحاد فواحد وإلا فأربعة لإمكان أن الوجود عندهم عين الذات. ولذا يقال: أرادوا بالأب الذات ولعلّ قولهم أن الله ثالث ثلاثة أصرح في أنهم لم يثبتوا(أ/17) القدماء الثلاثة[132] لاقتضائه ظاهراً إلى القول بانتقال آخر ولم يسمع منهم مع أنه نقل عن بعضهم أنهم أرادوا بالانتقال مجرد الإشراق.

وصرح بعض الأفاضل بأنه لا مخالف في مسألة التوحيد إلا الوثنية. القائلون بإلهية النور والظلمة بل أثبتوا آلهة ثلاثة[133] مستحقة للعبادة ويشهد لذلك: { **أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ** }[134] وقول بعضهم: {**إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ** }[135] على التقديرين ناظر إلى الاتحاد. وكل ذلك ناشيء من إلحادهم في صفاته تعالى فلا يطلق عليهم اسم الإشراك ولذا قوبلوا معهم في نحو: {**لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ**}[136] ، وجاز لنا أنكحتهم. وقد قال: { **وَلاَ تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ** }[137]. وقيل الآية منسوخة بآية {**وَالْمُحْصَنَاتِ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ**}[138] فالتقابل بأيتا؟ الكتاب فقط.

**ثم لا يخفى أن تمسك كل من الفرق الثلاث** لا يخلو من مقال ولا يلزم من زيادة الصفات وقدمها محال كقدم العالم ولا من العينية النقص ومخالفة النصوص القاطعة الدالة على كونه عالماً قادراً مثلاً . فلذا قال **الدوانيّ**: إن مسألة زيادة الصفات وعدم زيادتها ليست من الأمور التي يتعلق بها تكفير أحد الطرفين وقد سمعت بعض الأصفياء أنه قال: عندي أن زيادتها وعدم زيادتها وأمثالها لا يدرك إلا بالكشف . ومن أسنده إلى غير الكشف

---

[132] ب: ولم بقولوا الله ثلاثة

[133] ب: الله،والمسيح ومريم، فكفروا بذالك

[134] المائدة:116.

[135] المائدة:17،72

[136] البينة:1

[137] البقرة:221

[138] المائدة:5

فإنما يتراءى له ما كان غالباً على اعتقاده بحسب النظر والفكر ولا أرى بأساً في اعتقاد طرفي النفي والإثبات في هذه المسألة انتهى.

**وظاهر كلام أهل الكشف** يميل إلى العينية بل صرح بها صاحب الفتوحات في مواضع عديدة من الفتوحات واعترض على الزيادة حيث قال في **الباب السابع عشر** : اعلم أن جميع الأسماء والصفات الإلهية كلها نسب وإضافات ترجع إلى عين واحدة؛ لأنه لا يصح هناك كثرة وجود أعيان أخر كما زعمه بعض النظّار وعلّل ذلك. ثم قال: فبطل أن تكون الأسماء والصفات أعياناً زائدة على ذاته تعالى الله عن ذلك. وفي موضع آخر قد حاد من قال: لا هي هو ولا هي غيره فنطق بما أعطاه فهمه وهو كلام خلّى عن الفائدة يدلّ على عدم كشف قائله فحكم بالزيادة اضطراراً.

ونحن لا نقول بالزائد ولا نخالف بأن الصفات الإلهية عين فإن من يقول: أنها غير وقع في قياس الحق تعالى على الخلق في زيادة الصفة على الذات فما زاد على الذين {قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ} [139] إلا بحسن العبادة فقط فإنه جعل كمال الذات لا يكون إلا بغيرها فنعوذ بالله أن نكون من الجاهلين إلى غير ذلك من مقالات يتلخص منها القول بالعينية كشفاً ويقيناً لكن ما عليه أهل السنة والجماعة أولى لدى أجلّة المحققين..

## صفة التكوين

وزاد **الماتريدي** ومن تابعه صفة ثامنة وهي التكوين، أي المعنى المعبر عنه بالفعل والخلق والتخليق والإيجاد والإحداث والاختراع ونحو ذلك المفسر بإخراج المعدوم من العدم إلى الوجود، يعني مبدأ هذا الإخراج (ب/17)والتعبيرات؛ لأن الصفة الحقيقية الأزلية دون هذه الإضافات لأنها حادثة وإياه عنى من قال:

**صفات الذات والأفعال طرّا قديمات مصونات الزوال[140]**

فهو عندهم صفة الله[141] تعالى قائمة به أزلية تتعلق بالمكوّن لدى تعلق القدرة بالمقدور على وفق الإرادة فتوجده أو له تعلق أزلي بوجود العالم وبكل جزء من أجزائه لوقت وجوده واستدلوا على إثباته بأدلة مبني أكثرها بل كلها على أنه صفة حقيقية كالعلم والقدرة .

منها أنه وصف ذاته الأزلي بأنه الخالق فلو لم يكن في الأزل خالقاً لزم الكذب أو العدول إلى المجاز، أي الخالق فيما يستقبل أو القادر على الخلق من غير تعذّر الحقيقة وأنه لو كان حادثاً فمع امتناع قيام الحوادث بذاته تعالى إما بتكوين آخر فيلزم التسلسل ويلزم من استحالة تكون العالم وإما بدونه فيستغني الحادث عن المحدث والإحداث وفيه تعطيل الصانع ولا يخفى أنه من الابتناء المذكور يرد على الأول أنه مجرد تمدح وإخبار كما في { **سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ**}[142]

---

[139] آل عمران:181

[140] شرح بدأ الأمالى لعلي ابن سلطان محمد القارى، ص:46،5

[141] ب:له

[142] الحشر:1،الصف:1.

والإخبار عن الشيء في الأزل لا يقتضي ثبوته فيه وعلى الثاني أنه لا يلزم من حدوثه أن يكون بتكوين آخر أوبدون التكوين لجواز أن يتكون بالتكوين الذي هو نفسه على أن معنى تكوينه أمر يعتبره العقل ليس له تحقق في الخارج ممتازاً بحسب الوجود الخارجي ولا يحتاج إلى تكوين آخر لا بمعنى أنه نفسه بحسب المفهوم حتى يرد أنه لا معنى لكون التأثير عين الأثر . ويجوز أن يقال: أنه من حيث اتصاف الباري تعالى وقيامه به متعلق أولاً بوجود نفسه ثم بوجود الحادثات ولا استحالة في سبق ذات الشيء مع قطع النظر عن الوجود على وجوده سبقاً ذاتياً وإن كان مقارناً له في الزمان ومثله يقال في أمور كثيرة، فإن وجود الصفات والإعراض إنما هو بقيامها بمحالها على ما قالوا: من أن المحلّ مقوم لها وأن وجودها هو وجودها في الموضوع.

ولذا يمتنع الانتقال عنها فتكون الصفات من حيث قيامها بالواجب مقدماً بالذات على وجودها وإن كان مقارناً له في الزمان

**وقد انتصر لهم المحقق الخيالي** بما حاصله إنا نجد بالضرورة في الفاعل عند تصوره بحيثية الفاعل معنى به يمتاز عن غير الفاعل ويرتبط بتوسطه بالمفعول بحيث يصحّ أن يقال: إن هذا فاعل وذلك مفعول ولا شك أن هذا المعنى متحقق في ذاته وإن لم يوجد المفعول بعد وهذا المعنى متحقق في الموجب بالنسبة إلى آثاره الصادرة عنه بطريق الإيجاب مع عدم القدرة والإرادة فتغايرهما، بل نقول أنه متحقق في ذات الواجب بالنسبة إلى صفاته الصادرة عنه بطريق الإيجاب حتى القدرة والإرادة فتكون مقدمة عليها بالذات مغايرة لها وكونها موجودة زائدة على الذات يعرف بالقياس إلى الصفات الأخر . لكن الذي جرى عليه محققوا الأشاعرة أنها من الإضافات والامتيازات العقلية وحقيقتها تعلق القدرة على وفق الإرادة بوجود المقدور إلا أنه بالنسبة إلا القادر يسمى الخلق والتكوين وبالنسبة إلى(أ/18) القدرة إيجادا وتتحقق بحسب خصوصيات المقدورات خصوصيات الأفعال كالتصوير والترزيق والإحياء والإماتة وغير ذلك إلى ما لا يتناهى.

وهذه الأفعال إضافات واعتبارات كالوجوب والوجود والوحدة، لا وجود لها في الخارج حتى تكون صفات محدثة قائمة بذاته تعالى عن ذلك علواً كبيراً، بل متجددات تغيرها وتبدلها كالسلبيات بتغير ما أضيفت إليه كخالقية زيد وعدم خالقيته لا بتغير في ذاته تعالى كما إذا انقلب الشيء عن يمينك إلى يسارك وأنت ساكن غير متغير ولا في نفس الصفة الحقيقية؛ لأن التغير في تعلقاتها الناشئة هذه منها وفي الواقع ليست بصفات وإنما هي أوصاف وأسماء إضافية جرت عادتهم بعدّها من الصفات لوقوع التمدح والتوصيف بها في كتابه تعالى وعلى لسان نبيه وخلقه فيقال أنه قبل كل شيء وبعده مذكور بكل لسان محيي ومميت خالق رازق إلى غير ذلك.

## فصل في الصفات السلبية

فأزلية أسمائه الراجعة إليها أيضاً من حيث رجوعها إلى القدرة لا الفعل. وكذا في الإضافية والتنزيهات الواجبة من نحو:

### عدم كون الله عرضا

**أنه ليس بعرض**؛ لأن العرض يحتاج إلى محل يقوّمه والواجب مستغن على الإطلاق عن غيره؛ ولأنه قليل البقاء سريع الفناء

قال تعالى: {**تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**}[143] ، بل مستحيل الثبات يمتنع دوامه زمانين بل ينقضي ويتجدد آخر مثله كما هو رأي الأشعري ومن تابعه وبعض المعتزلة والواجب سبحانه وتعالى دائم البقاء مستحيل الفناء ولكن الذي ألجأهم إلى القول بتجدد الأعراض أنهم قالوا: أنّ السبب المحوّج إلى المؤثر هو الحدوث فلزمهم استغناء العالم حال بقائه من الصانع بحيث لو جاز العدم عليه تعالى عن ذلك لما ضرّ عدمه وفي وجوده فدفعوا ذلك بأن شرط بقاء الجوهر هو العرض وهو متجدد محتاج إلى المؤثر دائماً، فكذا المشروط لا يستغني عنه أصلاً.

واستدلوا لعدم بقاء الأعراض وتجددها بوجوه لكن كلّها مدخولة منها أنها لو كانت متصفة بالبقاء لكان قائماً بها ولزم قيام العرض بالعرض وهو محال؛ لأنه لا تحيز له لذاته حتى يتحيز غيره بتبعيته وردّه بأن بقاء الشيء ليس معنى زائداً على وجوده بل بمعنى استمرار الوجود وعدم زواله وهو أمر اعتباري ويجوز تجدّد الاتصاف ولو للعرض بالأمور الاعتبارية كما يجاب بذلك عينه في بقاء صفات الباري وأن انتفاء الأجسام في آن مع مشاهدة بقائها ليس بأبعد من ذلك في الأعراض مع أن بقائها ضروري عندكم وباقي أدلتهم وما تكلموا عليها في المطولات.

### عدم كون الله جسما

**لا جسم**؛ لأنه متحيز ومركب في أجزاء عقلية، أعني الجنس والفصل ووجودية كالهيولى والصورة أو الجواهر الفردة وكل ذلك أمارة الحدوث، والاحتياج منافٍ للألوهية.

### عدم كون الله جوهرا

**ولا جوهر**؛ لأنه اسم للجوهر الذي لا يتجزى وهو متحيز. وجزء من الجسم والله تعالى منزه عن ذلك وقد جعله الفلاسفة اسماً للموجود لا في موضوع مجرداً كالعقول والنفوس أو متحيزاً كغيرها، لكنهم أرادوا به الماهية الممكنة فجعلوه من أقسام الممكن وأما إذا أريد بهما القائم بذاته أو الموجود لا في موضوع مطلقاً فامتناع إطلاقهما عليه لعدم ورود إذن الشرع بذلك مع(ب/18) تبادر الفهم إلى المتركب والمتحيز.

---

[143] النساء:94

## عدم كون الله مصورا

**ولا مصور**، أي ذي صورة وشكل نوعيته كانت وهي التي يختلف بها الأجسام أنواعاً أو جسمية موجبة الامتداد في الجهات الثلاث ويتألف أنواع الأجسام عند الإشراقيين منها ومن العوارض القائمة بها كالسرير المركب من الخشب والهيئة الاجتماعية التي هي العرض فكل ذلك من خواص الأجسام يحصل لها بواسطة الكميات.

## عدم كون الله محدودا أو معدودا

**ولا محدود ولا معدود،** أي لا ذي حدّ ونهاية ولا عددٍ وكثرةٍ واحد لا مقدار له يعني ليس محلاً للكميات المتصلة كالمقدار ولا المنفصلة كالعدد.

## عدم كون الله متبعضا أو متجزئا

**ولا متبعض ولا متجزئ** أى ذي بعض وأجزاء ولا مركب منهما لما في ذلك الاحتياج المنافي للوجوب.

**ولا متناهٍ**؛ لأن ذلك من صفات المقادير والأعداد وفي نفسه عرضيّ حادث وهو منزّه عن المقدارية والكثرة والوضع وقيام الحوادث فكل ذلك مظنة الزيادة والنقصان ووجود المثل والاحتياج إلى مخصص يخصصه على حدّ ونهاية.

### عدم توصيفه بالماهية أو بالكيفية

**ولا يوصف بالماهية** ، أي المجانسة للأشياء؛ لأن معنى ما هو من أيّ جنس هو والمجانسة توجب التمايز عن المجانسات بفصول مقوّمة فيلزم التركيب إن كان الجنس المنطقي كما هو المتبادر عرفاً من المجانسة لكن يوصف بالماهية بمعنى السؤال عن الحقيقة المختصة بالشيء أو الوصف؛ لأن ما هو جاء عن السؤال عنهما أيضاً وكذا بالكيفية من الطعم والرائحة واللون والحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة وغير ذلك من سائر الكيفيات النفسانية المزاجية من نحو الحقد والحزن ونظائرهما وأضدادهما، يعني لا يجوز أن يتصف بشيء من الكيفيات المحسوسة بالحواس الظاهرة والباطنة فإن كلها تابعة المزاج والتركيب المنافي للوجود الذاتيّ المستغني عن الخصوصيات[144].

## عدم تصور لذة او الم لله تعالى

**ولا يتصور له لذة وألم**؛ لأنهما من الانفعالات[145] كما قبلهما وهي محال عليه تعالى ومع كونهما عبارة عن إدراك الملائم والمنافي[146] مشروطان بحصولهما وهو مشروط بكون الذات قابلة للزيادة والنقصان والنمو والزبول وهو

[144] ب:المخصصات

[145] ب:وتوابع المزاج

[146] ب:والمنافر

صفات الجسمانيات وأيضاً التذاذه يقتضي كونه المتلذذ به في الأزل، ولو كان مما يتوقع الالتذاذ به؛ لأن الداعي لإيجاده قبل ذلك موجود فيلزم قدم العالم والفلاسفة نفوا الألم عنه تعالى مطلقاً لعدم المنافي له . وكذا اللذة التابعة للمزاج لكن جوزوا عليه اللذات العقلية بناء على أن كل من تصور في نفسه كمالاً فرح به ومن تصور في نفسه نقصاً تألم به. ولا شك أن كماله تعالى أعظم الكمالات وعلمه أجلّ العلوم فلا بعد أن يستلزم ذلك أعظم اللذات لكنه قياس للغائب على الشاهد مستلزم للمماثلة والانفعال تعالى عن ذلك. وأما عدم إذن الشرع بإطلاق لفظي اللذة والألم عليه تعالى فاتفاقيّ

## عدم التزويج و التوليد له

**ولا يتعقل له الزوجة والولد** ؛ لأن ذلك لا يتم إلا بالمباشرة والاتصال والانفصال تعالى ثم تعالى عن هذا المحال {**مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلاَ وَلَدًا**}[147] و{**لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ** }[148]

## عدم حلوله في بدن الإنسان

**ولا يحل في غيره بحال** ؛ لأنه يوجب الافتقار إلى المحل سواء كان حلول جسم في مكان أو عرض في جوهر أو صورة في مادة أو صفة في موصوف . وكذا يوجب كون الواجب مستكملاً بالغير إن كان صفة كمال وإلا يجب تنزيه الله عنه ويقتضي الانقسام(أ/ 19) إن حلّ في جزء منه والكل ظاهر البطلان وكما يستحيل الحلول على الذات يستحيل على الصفات لاستحالة انتقال صفة الذات المختصة بها إلى غيرها.

فدعوى النصارى إن كان حلول ذاته تعالى أو صفة منه في بدن عيسى[149] أو نفسه فحماقة مهلكة وكذا دعواهم أنه أعطاه قدرة على الخلق والإيجاب بخلاف مجرد دعوى أنه خصه الله تعالى بالمعجزات وسماه ابناً تشريفاً وتلطفاً وإكراماً كما سمى إبراهيم خليلاً فإنه واقعي فقد روي أنه كان يخاطبه في الإنجيل بيا ابني لذلك كما كان يخاطب موسى في التوراة باسمه وبني إسرائيل في التوراة بيا أيها المساكين، وخاطب نبينا عليه الصلاة والسلام بنحو { **يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ**}[150] ، وأمته بـ {**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**}(جاء في القرآن الكريم خمسة وستين مرة)، وما يحكى أن يوحنا من الحواريين سئل عن عيسى عليه السلام: أنك تقول: قال أبي كذا وأمرني أبي بكذا أرنا أباك فقال: من رآني فقد رأى الأب وأبي حالّ فيّ وأن الكلام الذي أتكلم به ليس من قبل نفسي بل من قبل أبي الحالّ فيّ وهو الذي يعمل هذه الأعمال التي أعمل آمن وصدق بأبي وأبي فيّ فعلي فرض صحته وعدم التحريف يكون الحلول إشارة إلى كمال اختصاصه به وإطلاق الأب عليه بمعنى المبدأ، فإن القدماء كانوا يسمّون المبادىء المؤثرة بالآباء ويدل عليه قول عيسى: إني أذهب إلى أبي وأبي ليبعث لكم الفارقليطا فهو كالمتشابهات القرآنية الآتية. وذهب غلاة الشيعة

---

[147] الجن:3

[148] الإخلاص:3،4

[149] ب:المسيح

[150] المائدة:41،67

إلى أنه لا يمنع ظهور الروحاني في الجسماني كجبرائيل في صورة دحية. وكالجنيّ في صورة الإنسيّ فلا يبعد أن يظهر الله في صورة بعض الكاملين الأولى عليّ وأولاده الذين هم خير البرية. وأحمق منهم من يزعم منهم ومن غيرهم أن السالك إذا أمعن في سلوكه وخاض لجة الوصول يحلّ سبحانه وتعالى عن ذلك علوّاً كبيراً فيه كما تحل النار في الجمر بحيث لا اثنينية ولا تغاير.

وصحّ أن يقال: هو أنا وأنا هو ويرتفع التكليف الأمر والنهي ويظهر من العجائب والغرائب ما لا يصح أن يكون من البشر وهذا كذب فاحش وهلاك بئيس وانهماك خبيث وذلك عين دعوى الاتحاد والحلول ربما زعموا أخذه من ظواهر اصطلاحات جرى عليها ساداتنا الصوفية عن ذوق الشهود والوجدان وعبادات صدرت عنهم لدى الاستغراق في بحار التوحيد والعرفان حاشاهم ثم حاشاهم، وهم أكمل الخلق عقلاً ومعرفة أن يتهموا بما هو أجلى الموبقات قبحاً ومنقصة فلهم الغاية القصوى في التوحيد والتنزيه والحقيقة العليا في المعرفة. وشطحاتهم موجهة بأحسن التوجيه ولما يصدر منهم حتى نحو: الرقص أصل أصيل من السنة بلا تمويه

**عدم إتحاده بالغير**

**ولا يتحد بغيره** سواء فسر الاتحاد بأن يصير الشيء بعينه شيئاً آخر من غير أن يزول عنه شيء أو ينضم إليه شيء كما إذا جمع ماءان في إناء واحد أو فسر بذلك بدون القيد الآخر كما إذا انضمّ الماء إلى التراب فصار طيناً أو بأن يصير الشيء شيئاً أخر بطريق الاستحالة في جوهره أو عرضه كما يقال: صار الماء هواء وصار الأبيض أسود والكل محال(ب/19) في حقه تعالى، والأول في حقّ غيره أيضاً كما لا يخفى؛ لأنه إن بقي المتحدان فهما اثنان وإن فنيا فهما معدومان وإن في أحدهما وبقي الآخر فلا اتحاد أيضاً بل بقاء واحد وفناء آخر وحاشا الرب أن يجتمع مع عبده في مرتبة واحدة أبداً. فلا يجوز لعارف أن يقول: أنا الله ولو بلغ أقصى درجات القرب. وحاشا العارف من هذا القول حاشاه إنما يقول: أنا العبد الذليل في المسير والمقيل فالعاشق إذا قال نحو: أنا من أهوى ومن أهوى أنا فإن ذلك بلسان العشق والمحبة لا بلسان العلم والتحقيق ولذا يرجع عنه إذا صحا من سكره والمراد بالاتحاد حيث جاء في كلام القوم فناء مراد العبد في مراد الحق كما يقال بين فلان وفلان إتحاد، إذا عمل كل منهما مراد صاحبه. كذا قال ابن عربي، وأنشد:

**وعلمك أن كل الأمر أمري　　　هو المعنى المسمّى باتحاد**[151]

## عدم المكان والزمان له

**ولا يتمكن في مكان** سواء حدّ بمعنى البعد الموهوم أو الموجود أو السطح. **ولا يجري عليه** زمان كان موجوداً أزلاً ولا أثر لهما فلا عرش ولا جهة ولا مكان يحويه ولا زمان فأحدثهما وهو باق على صفته الأصلية والفناء المطلق عنهما كما كان[152] وإذا لم يكن في مكان لم يكن في جهة لا علو ولا أسفل ولا غيرهما؛ لأنها إما حدود وأطراف

---

[151] البيت لعلي بن وفا. اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر؛ للشيخ عبد الوهاب بن أحمد بن علي الشعراني،ص: 89.

[152] ب:ومن المحال انقلاب حقيقة الله من الأستغناء المطلق إلى الحاجة إلى الخلق

للأمكنة أو نفس الأمكنة باعتبار الإضافة إلى شيء كالدار بين الدارين فإنها علو بالنسبة إلى ما تحتها سفل بالنسبة إلى ما فوقها ولا يشار إليه بهنا وهناك ولا يصح عليه الحركة والسكون ولا الكذب والخلف. وسيأتي الجواب عن الخلف في الوعيد عند من جوّزه.

**عدم شبيه به**

**ولا يشبهه شيء** من المخلوقات في شيء من ذاته وصفاته وأفعاله فذاته واجبة مستكملة لجميع الكمالات كيف يماثلها ممكن حادث في غاية النقصان وأفعاله بديعة عجيبة تحيّر عقول أولي الألباب كيف يدانيها ما يصدر عن عاجز مجبور في معرض الخزلان وصفاته قديمة أزلية واجبة ذاتية واجبة ذاتية في ذروة الكمال كيف تشابهها الأعراض المحدثة القاصرة المستفادة من الغير بالكسب والفيضان { **هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا** }[153] { **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ** }[154].

وخالف في كل ذلك المشبهة فمنهم من قال: أنه جسم له حقيقة ثم تفرقوا فقال بعضهم: أنه مركب من لحم ودم. وقال بعضهم: هو نور يتلألأ كالسّبيكة البيضاء طوله سبعة أشبار بشبر نفسه

ومنهم من قال: أنه على صورة إنسان شاب أمرد جعد قطط أو شيخ أشمط الرأس . ومنهم من قال: هو في جهة الفوق مماسّ للصفحة العليا من العرش ويجوز عليه الحركة والانتقال وتبدل الجهات وئيط العرش تحته أطيط الرحل الجديد تحت الركب الثقيل وهو يفضل على العرش بقدر أربع أصابع . ومنهم من قال: هو محاذٍ للعرش غير مماسّ له بعيد بمسافة متناهية وقيل غير متناهية ولم يستنكف هذا القائل من جعل غير المتناهي محصوراً بين حاصرين ؛

ومنهم من تستر بِالْبَلْكَفَةِ فقال: هو جسم لا كالأجسام وله حيّز لا كالأحياز، ونسبته إلى حيّزه ليست كنسبة الأجسام إلى حيزها وهكذا ينفي جميع خواص الجسم عنه حتى لا يبقى اسم الجسم فهؤلاء لا يكفرون بخلاف الأول ومنشأ أمثال هذه الشبه(أ/20) الباطلة تحير العقول في بيداء كنه جلاله ودهشتها في جناب قدسه وكماله. وظواهر نصوص مشعرة بوقوع الإذن والرخصة من جنابه وإن وردت على وفق عقول القاصرين والأسهل في دعوتهم مع تنبيهات دقيقة على تنزيهاته فقد أثبتت له النصوص الشرعية حتى شرع من قبلنا نحو الاستواء على العرش والوجه والنفس والعين والأعين والساعد واليد والأيدي والقدمين والأصبعين والقوى والجوارح والحيوى والجوانح والتعين وفي قبلة المصلي وجليس من ذكره وهو مَعَنَا وأقرب إلينا من حبل الوريد والإنسان بنيانه والقلب بيته ويسعه. ويمينه في الأرض الحجر الأسود. والأرض جميعاً قبضته والملأ كلمته والتحول في الصور رأيت ربي في صورة شاب أمرد وشيخ أهيب.

وفي رواية: شاب أمرد وقطط له وفرة من شعر وفي رجله نعل من ذهب خلق الله آدم على صورته والنزول إلى الكرسي والسماء الدنيا والإتيان من الغمام وإتيانه موسى في النار والشجر وإبراهيم في الكوكب والشمس والقمر {**ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى** }[155] وأحاط ويهرول ويتردد يرى ويسمع وكان بنا بصيراً واشترى واستقرض وسأل نصيراً ويأكل

---

[153] مريم:65

[154] الشورى11

[155] النجم:8

ويسأل ويجوع ويمرض ويعرى { **ذِي الْمَعَارِجِ** }[156] { **رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ** }[157] { **يَقْبَلُ التَّوْبَةَ** }[158] { **وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ**}[159] ، ويفرح ويتحبب ويضحك ويتعجب ويتبشش ويرضى ويغضب ويستهزىء ويمكر ويكيد ويخدع وينسى إلى غير ذلك. والكل صفات له تعالى بعضها فعلية وبعضها ذاتية زائدة على الذات كما قال الأشعري وغيره ومع اتفاقهم سلفاً وخلفاً على أن جهلنا بتفصيل ذلك لا يقدح في اعتقادنا المراد مجملاً ما لم نجر على مقتضى ظواهرها.

## التأويل في المتشابهات

اختلفوا في وجوب تأويلها وعدمه فمذهب السلف التفويض والتوقف، أي الإيمان بظواهرها والسكوت عن تفصيلها[160] وتسليم بواطنها إلى الله مع اعتقاد التنزيه عما لا يليق إيثاراً للطريق الأسلم؛ لأن التأويل ضرب من التعطيل وتفويت كمال الإيمان بآيات الصفات؛ لأنه تعالى ما أمرنا أن نؤمن إلا بعين اللفظ الذي أنزل لا بما أولناه بعقولنا فقد لا يكون ذلك على وفق رضاه ذلك لما فيه من التكييف والتمثيل وقياس القديم على الحادث قياس مع الفارق غير جزيل مع أنه يحتاج إلى علوم كثيرة وتبحّر في معرفة لغة جميع قبائل العرب ومجازاتهم واستعاراتهم ومعرفة أماكن التأويل وتميزه عن الخطأ إلى غير ذلك من التبحر في علوم تفسير القرآن وشروح الأحاديث والمذاهب كلها في سائر الأحكام وقل أن يجمع ذلك سيما في أهل هذا الزمان ومن عبارات كثر من المتصوفة في ذلك أن كل ما أطلقه تعالى على نفسه في كلامه وعلى لسان نبيه فهو وصف قائم به جلّ وعلا كما يليق به وكما يقول لا كما تخاله العقول والتنزيه ضرب من التعطيل[161] والتشبيه[162] بأيّ شيء كان ويكون لا زائد دونه في الوجود حتى يمكن تشبيهه تعالى بذلك الزائد.

وحاصله ما قال القاضي الباقلاني وغيره: أنها دالة على صفات زائدة تليق بجلاله تعالى من غير تكييف وتحديد وهو مذهب ثالث ولذا يقال: الغالب على أهل التصوف والمحدثين الميل(ب/ 20) إلى التجسم والجهة . ولعل مرادهم عين ما ذهب إليه السلف من التسليم وعدم التفصيل في التأويل مع التنزيه والتحاشي عن التكييف إلا أن في بعض عباراتهم نوع إيهام يظن بها القاصر [163]خلاف المرام ويدل على ذلك ما عرف واشتهر أن المذاهب في المتشابهات بها اثنان لا غير.

---

[156] المعارج:3

[157] غافر:15

[158] التوبة:104،الشورى:25

[159] التوبة:104

[160] ب:تفسيرها

[161]التعطيل:نفي الإله اصلا فليراجع:الكشاف،11/42

[162]التشبيه،وصفالله تعالى بصفات المخلوقين .فلينظر:الكشاف،805/2

[163] ب: يتراآى

وربما كان مع بعضهم القول بنحو الجهة فرجع عن ذلك وصحح عقيدته كمال تصحيح فما بقي لأحد مجال الظن فيهم، وهل ذلك إلا مثل ما يظن أن في عقائد الحنابلة القول بنحو التجسم والجهة وهو كذب وافتراء دسّه عليها ابن تيمية وأصحابه حيث قال في بعض تصانيفه أنه لا فرق عند بداهة العقل بين أن يقال هو معدوم وبين أن يقال طلبته في جميع الأمكنة فلم أجده ونسب النافين إلى التعطيل وله خرافات كثيرة غير ذلك فانغر بها من لم يطلع على عقيدتهم الغراء المنزهة عن كلّ منقصة وإغواء، فنسب ذلك إلى الإمام الأعظم أورع المجتهدين حاشاه ثم حاشاه

وقد دس أيضاً على الأستاد شيخ الإسلام قادريّ الوقت الباز الأشهب الجيلاني" القول بالجهة"، وهو بعيد بمراحل من جناب رتبته العلية وقدس أنفاسه الزكية وكيف تروج عليه هذه السنة الواهية مع تضلّعه من الكتاب والسنة وفقه الشافعية والحنابلة حتى كان يفتي بالمذهبين مع ما امتنّ الله عليه من المعارف والخوارق الظاهرة والباطنة. وما في البهجة المنسوبة إليه مما نصّه: اعلموا أن عبادتكم لا تدخل الأرض وإنما تصعد إلى السماء قال تعالى: { **إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ** }[164] فربنا سبحانه وتعالى في جهة العلو الله { **عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**}[165]. وعلى الملك احتوى وعلمه محيط بالأشياء بدليل سبع آيات في القرآن العظيم لا يمكنني ذكرها لأجل جهل الجاهل ورعونته فمحمول على أن مراده بجهة العلو الجهة التي يقصد العبد قضاء حاجته منها عند الحق. وان كان في السفليات كما أن شهوده تعالى في حال السجود صعود وإن كان السجود في أسفل السافلين {**وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ**} [166]، **أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد**

**قال الشيخ محيي الدين**: كما وجب الإيمان بما جاء به الرسل من آيات الصفات وأخبارها كذلك يجب الإيمان بما جاء به الأولياء المحفوظون فإنهم ورثة الرسل، والبحر واحد ويا ليت الناس إذا لم يؤمنوا بما جاء به الاولياء يجعلونهم كأهل الكتاب لا يصدقونهم ولا يكذبونهم، انتهى.

ومذهب الخلف هو تأويل المتشابهات وحملها على محامل قريبة المأخذ منها بنيةٍ تليق بها جهة الشرع والعقل ولسان العرب تنزيهاً للحق تعالى عما يوهم ظواهرها ودفعاً لمطاعن الجاهلين وقطعاً لتوهمات الملحدين سيما لدى الخوف على أحد من الوقوع في الخطر كما في زمان أهل البدع والأهواء . وقد فتح لنا كثرة بابه في نحو **حديث: يا رب كيف أدعوك وأنت رب العالمين؟ قال الحق: أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده أما أنه لو عدته لوجدتني عنده**[167] إلى آخر النسق

---

[164] فاطر:10

[165] طه:5

[166] العلق:19

[167] مسلم، بر 43

وهؤلاء لم يقفوا في آية آل عمران على { **وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ** }[168] بل عطفوا عليه { **وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ** } وجعلوا {**يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ**}[169]،حالاً منهم أو استينافاً (أ/21) موضحاً لحالهم، والتأويل هو الأولى والمختار لما عرفت من تعليله ولما ذكروا في حكمة إيراد المتشابهات من أنه ليظهر فيها فضل العلماء ويزداد حرصهم على أن يجتهدوا في تدبرها وتحصيل العلوم المتوقف عليها استنباط المراد بها فينالوا بها وبإتعاب القرائح في استخراج معانيها والتوفيق بينها وبين المحكمات معالي الدرجات لكن يميل إلى الأول قول مالك لمن سأله عن معنى: {**الرَّحْمَانُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى** }[170]. الاستواء معلوم والكيفية مجهولة والإيمان به واجب والسؤال عن هذا بدعة وأراك رجلاً سوءاً أخرجوه عني. وحمله أتباع الباقلاني **كابن عبد البر**: على ما سمعت من قولهم، وأهل التأويل على مذهبهم فقالوا: يعني أن محامل الاستواء في اللغة معلومة بعد القطع بأن الاستقراء غير مراد والكيف مجهول، يعني به أن تعيين محمل من المحامل اللائقة مجهول لنا والسؤال عنه بدعة، أي تعيينه بالطرق الظنية، فإنه تصرف في أسمائه وصفاته بزعم الظنون وما لم يعهد من الصحابة فهو بدعة.

وبالجملة قد حملوا نحو الاستواء على القهر والاستيلاء أو استتمام الخلق حيث لم يخلق وراء العرش شيئاً والوجه والنفس على الذات والعين على تمام الرعاية والكلأ والحفظ والساعد على القدرة واليد واليدين عليها أو على النعمة. وكذا الأصبعين أوهما جري الحكم ونفوذه والقدم والرجل على القوم والجماعة أو الجلال والقهر والتعيين والقوى والجوارح وكونه لنا ونحن له. كلها على أنه لدى تقرب العبد إليه بالنوافل كما في الحديث تصير نفسه التي كان يدعي استقلالها في صدور أحواله الباطنة والظاهرة نفس ربه صادرة عنه تعالى له مثل: { **هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ**}[171] أي مخلوقته منسوبة إليه وعليه حمل { **وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ**}[172] أي نفسكم التي خلقها منسوبة إليه فإذا كانت نفس المريد السالك لله بحكم { **لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ** }[173] {**وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ**}[174] فيكون العبد حينئذ سمع الله، أي يخلق تعالى لنفسه المذكورة سمعاً هو العبد وسمع النفس عين النفس ؛ وكذلك يكون العبد بصر الله لنفسه المذكورة. وهكذا باقي الجوارح فيصدق كونه لنا ونحن له القوى والجوارح والتعيين. وكذا الجوى، أي زيادة الحب وشدة الوجد. والجوانح، أي الأضلاع التي تحت الترائب وإن كان مأخذ الأول من نحو: { **يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ**}[175] والثاني من سؤال عروة عن عبد الله : **أيّ خلق أعظم؟ قال: الملائكة. قال: ومماذا خلقت؟**

---

[169] آل عمران:7

[170] طه:5

[171] الأعراف:73،هود:64

[172] آل عمران:28،30

[173] البقرة:284،آل عمران:129،109، النساء:132،131،126،النجم:30،الحشر:1،الصف:1،الجمعة:1،التغابن:1

[174] النمل:91

[175] المائدة:54

**قال: من نور الذراعين والصدور** . وأما نفس نحو: المحبّة والرأفة والشفقة فمحمول على الإنعام الذي هو الأثر والغاية ونفس نحو الذراعين والجوانح والأصبعين على القدرة والإرادة والأمر التكويني وكونه في قبلة المصلى وجليس الذاكر على التجلي في معرض القبول والمجازاة بالخطّ الأوفر والإنسان بنيانه على الخلق والتعديل والقوام الحسن على وفق المشيئة والقلب بيته على أنه مأوى الإيمان به وتوحيده ومعرفته ومودع سرّه ومحبته كما صرح به الحديث. وذلك معنى القلب يسعه، وكون الحجر الأسود يمينه على التمثيل بتشبيه حال العبيد مع خالقهم ومعاملته إياهم وعطفه عليهم[176](ب/21) بحال الملوك مع رعيتهم من نحو: طواف بيوتهم وتقبيل أياديهم والانعطاف عليهم والتوجه بالرقة والقبول، بل يحمل على نحو ذلك نفس إثبات الكرسي والعرش واستوائه عليه وحملته اليوم أربعة ويوم القيامة ثمانية والأرض قبضته وقلب المؤمن بين أصبعين آه. وكل ما ذكر في محاسبة العبيد من القدر عليهم والبروز بإحضار الملائكة والنبيين والشهداء ونصب الميزان وكل ما لا يليق به مما ذكر هنا وغيره.

وقد تحمل القبضة على التصرف التام واليمين على التوجه بالقبول والرضاء ونشر الأمان والملأ كلمته على الأمر التكوينيّ والصورة على خلقه وتصويره وصفاته فإنه الفاعل يظهر بأفعاله لا بذاته ويخلق من اختار على صفاته من العلم والقدرة وغيرهما وإن كان بين أوصاف الخالق والمخلوق بون بعيد

وقيل: إن الضمير في خلق آدم على صورته لمعلوم غير مذكور لما أنه عليه الصلاة والسلام رأى رجلاً يضرب عبده على وجهه فقال له ذلك، أي لا تضربه على وجهه فإن الله خلق أباكم آدم على صورة هذا الوجه، فكيف تضرب وجهاً يشبه وجه أبيك؟. وقيل: الضمير لآدم، أي على صورة آدم المقدرة الكائنة في علمه تعالى ونزوله على نزول أمره وحكمه وظهور آيات قدرته حلماً وقهراً كما في {**وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا** }.[177]

ويجوز الحمل على التمثيل أيضاً. وكذا الإتيان في الغمائم لكن إن أريد غمائم البشر يحمل على التجلّي في الصورة البشرية فإن الذي يصورها من العدم يظهر بها لها ولغيرها. وجميع الصور له بحكم { **وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ**} [178]وكل شيء محجوب بنفسه عن ربه فإذا فني عن نفسه زال الحجاب. كذا إتيانه موسى وإبراهيم محمول على الظهور بأفعاله فكشف أولاً لموسى أنها نار ثم أنها نور ثم كشف له أنه تجلى بصفة الربوبية ثم بصفة الألوهية ثم أسمعه كلامه في أثناء ذلك، وكل ذلك أفعاله. وكذا تجلى لإبراهيم بصورة الكواكب التي هي أفعاله على البدل حتى صرح بالمقام {**إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ** }[179] على ما حقق العارفون ولا يلزم من فعله الأفعال وظهوره بها تغير في نفسه أو صفة من صفاته، فهو يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد فينكشف لمن يشاء عمن يشاء ويمنع من يشاء عمن يشاء.

---

[176] ب:ولطفه بهم

[177] الفجر:22

[178] النمل:91

[179] الأنعام:79

وكل ما أتى في النصوص من أخبار تقتضي تغيراً عليه وانتقالاً فذلك من جهة المخلوقات لا في جهة الخالق؛ لأنه دائم على ما كان فالنزول والإتيان مثلاً في حقه خلو الموضع الذي ورد أنه ينزل إليه ويتجلى أمره فيه؛ لأنه خالق كل شيء وأمره كلمح البصر والتردد منه محمول على التلطف والمرحمة والمعاملة بالحلم والمعارج على الدرجات والمراتب العليّة التي لم يمنع من الصعود بها إلا حب الدنيا وإيثارها على الرب والبواقي بعضها بالنظر إلى مخلوقاته إلا أنه نسبه إليه تشريفاً وتلطفاً وترغيباً فيما عنده من الأجر وبعضها على القبول والرضاء والمجازاة بالحظ الأوفر وبعضها على الانتقام والمؤاخذة والمعاملة معهم معاملة من يفعل بغيره مكروهاً ولا تدع من يدك حديث التمثيل في الكلّ وإن أظنك(أ/ 22) إن راجعت التفاسير وشروح الحديث وكلام العارفين وجدت محامل ألطف مما سمعت وعجائب وغرائب أزيد.

وقد اختلفوا مع ما سمعت من مذاهبهم في المتشابهات في مسألة منها وهي أنه: هل يصحّ إطلاق جهة الفوقية والعلوّ عليه تعالى من غير تكييف وتحديد فيقال: الله فوقنا أو في السماء مثلاً فمنع جمهور المتكلمين وفحول العلماء وأهل الديانة لاستلزامه شيئاً من النقائص المذكورة تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً . وقد عرفت كيف أدب مالك من سأله عن المتشابه وزجره الزجر التام فما ظنك بمن صرح به وقضية عمر رضي الله عنه مع من سأله عن المتشابه وضربه إياه مرة بعد أخرى مشهورة حتى قال له: **إن كنت تريد قتلي فاقتلني وإلا فقد أخذت أدبي**.

وأما حديث السوداء **حيث سألها عن أينيته تعالى فقال: أين الله؟ فنظرت إلى السماء فقالت: فوقنا فلم ينهها عن ذلك**. فقد قالوا فيه أنه عليه الصلاة والسلام أراد أن يطلب دليلاً على أنها موحدة فخاطبها بما يفهم من قصدها ويكشف عن معتقدها؛ لأن علامة الموحدين التوجه إلى السماء عند إرادة الدعاء وطلب الحوائج كما كان عادة عبدة الأصنام الطلب منها، فأشارت إلى الجهة التي يقصدها الموحدون فإنها قبلة الدعاء كما أن الكعبة قبلة المصلين.

وذهب جماعة منهم إلى جواز نسبة ذلك إلى الله من غير تكييف ولا نظر إلى ما يوهم؛ لأنه توهم بعيد لا يقصد على أن الأصح أن معتقد الجهة والجسمية لا يكفر وهو الغالب على العوام؛ لأن لازم المذهب ليس بمذهب وبطلان اللازم وإن كان يستلزم بطلان الملزوم لكن لا يلزم من الإجماع على بطلان لازم قضية الإجماع فإن الإجماع طريقه النقل لاالعقل ويبعد لمن له أدنى مسكة من عقل ودين أن يحكم للأمة التي شهد لها رسول الله (ص) بالإيمان بشهادة كفرها فكيف بحكاية الإجماع على ذلك ألا يرى أن المبتدعة والخوارج يلزم من أقوالهم مفاسد كثيرة أولى مع أن المحققين قد تحاشوا عن اجتراء الحكم بكفرهم حتى الإمكان، نعم إن اعتقد القائل بالجهة والجسم لوازمهما من نحو الحلول والاستقرار والتحيز واللون والاتصال والانفصال فلا شك في أنه كافر يسلك به مسلك المرتدين وبدون ذلك أيضاً يردع ويزجر عن اعتقاده وإن كان بنية المذهب الثاني سيما إن كان يدعو الناس إليه فإن فتح مثل هذا الباب للعوام وسلوك طريق التأويل فيه إفساد لاعتقادهم وإلقاء تشكيكات عظيمة في دينهم.

واختلفوا أيضاً في قربه منا وكونه معنا هل هو بالعلم والصفات أو بالذات، والأول أكمل في الأدب لدى المعروف وإن كانت الصفات الإلهية لا تفارق الموصوف. وممن قال بالثاني منازعاً مع الشيخ زكريا والشيخ برهان الدين

والشيخ بدر الدين وغيرهم الشيخ إبراهيم الشاذلي ومن تمسكاته أنه تعالى قال: { **وَاللَّهُ مَعَكُمْ** }[180] { **وَهُوَ مَعَكُمْ**}[181] {**وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**} {**إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**}[182]

ومعلوم أن مدلول الله هو الذات اللازمة لها الصفات المتعينة لتعلقها بجميع الممكنات والقول بكون المعية لها يوجب انفكاكها عن الذات. وقال أيضاً(ب/22): {**وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لاَ تُبْصِرُونَ** }[183] ، وهو صريح في أنّ المراد به القرب الحقيقي المدرك بالبصر لو كشف الله عن بصرنا، فإن البصر إنما يتعلق بالحقائق المرئية لا بالصفات المعنوية. ولو أراد به العلم والقدرة والتدبير مثلا لقال نحو: { **وَلَكِنْ لاَ تَعْلَمُونَ** }[184] ونسبة أقربيته تعالى إلى الإنسان { **مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ** }[185] الذي قربه حسيّ دليل على أن قربه تعالى ذاتي؛ لأن قرب الصفات معنوي لا اشتراك له مع القرب الحسيّ ولا يلزم في { **وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ** }[186] توهم المكان في حقه تعالى؛ لأن الأين هنا أطلقت لإفادة معية مع المخاطبين في الأين اللازم لهم لا له فهو مع صاحب كل أين بلا أين.

وإليه يميل كلام الشيخ العارف بالله **محمد المغربيّ الشاذليّ شيخ الجلال السيوطي** حيث دخل على منازعتهم فقال: معيته تعالى أزلية ليس لها ابتداء وكانت الأشياء كلها ثابتة في علمه إذ لا تعيناً بلا بداية؛ لأنها متعلقة به تعلقاً يستحيل عليه العدم لاستحالة علمه الواجب وجوده بغير معلوم واستحالة طريان تعلّقه بها لما يلزم من حدوث علمه بها بعد أن لم يكن وكما أنّ معيّته تعالى أزلية كذلك هي أبدية ليس لها انتهاء، فهو تعالى معها بعد حدوثها من العدم عيناً على وفق ما في العلم تعيناً . وهكذا يكون الحال أينما كانت في عالم بساطتها وتركيبها وإضافتها وتجريدها من الأزل إلى ما لا نهاية له. ومن يريد معرفة هذه المسألة فوق السماع فليسلم قياده لي فأفطمه عن جميع الشهوات واللذات وألزمه الخلوات وأضمن له الوصول إليها بالذوق والمكاشفات فأدهش الحاضرين بحلو المقالات. وبالجملة أنه لو لم ينسب إلى نفسه المعيّة السارية مع جميع الخلق لم يقدر العقل أن يطلق عليه المعيّة وتسمى هذه المعية الوجودية الجامعة لحضرات جميع الأسماء والصفات وقد علم أن من الأدب أن نقول { **إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا**}[187] ولا نقول: نحن مع الله إذ به لم يرد به الشرع

---

[180] محمد:35

[181] الحديد:4

[182] العنكبوت:69

[183] ق:16

[184] الأعراف:38

[185] ق:16

[186] الحديد:4

[187] التوبة:40

## هل الإسم أوالصفة؟

ثم اعلم أن من الأدب أن نسمّي صفاته تعالى أسماء؛ لأنه قال: { **وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا** }[188] ولم يقل: فصفوه بها. فمن عرفه حق المعرفة سماه ولم يصف . وقد قال: {**سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ** }[189] فنزه نفسه عن الصفة لا عن الاسم. فهو المعروف بالاسم لا بالصفة وأسماؤه كلها المأخوذة من الصفات لا أعلامه الموضوعة في اللغات: كخدا[190] وتاكرى[191] وطق وكربطو ومكوى وآص ياص توقيفية.

فلا يجوز لنا أن نطلق عليه اسماً وكذا صفة على الأصحّ إلا إن ورد القرآن أو خبر صحيح، وإن لم يتواتر لجواز العمل بالضعيف في العمليات بصريح ذلك الاسم لا بأصله المشتق منه فقط فربما خاطبنا به على وفق عقولنا فنتلوه على سبيل الحكاية فقط فلا يشتق له إجماعاً من نحو: { **اللَّهُ يَسْتَهْزِىءُ بِهِمْ** }[192] ، { **وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ**}[193] { **وَهُوَ خَادِعُهُمْ** }[194] و{ **نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ** } [195]و{**يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ** }[196] { **وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا**}[197] إلى غير ذلك.

ويشترط أن لا يكون ذكره للمقابلة والمشاكلة في الجواب كما في { **نَحْنُ الزَّارِعُونَ** }[198] { **وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ**}[199]وليس منها نحو: **إنّ الله جميل يحب الجمال** [200]؛ لأنه إنما يصار إليها عند استحالة المعنى الموضوع له في حقه تعالى وليس الجمال كذلك؛ لأنه بمعنى إبداع الشيء على أتقن وجه وأحسنه(أ/ 23) وقد يلحق الإجماع الفعلي بالنصّ وعليه يبنى إطلاق نحو واجب الوجود والموجود والقديم وصانع العالم والواهب والجواد لا على أن الإذن بشيء إذنٌ بمرادفه أو لازمه؛ لأن ذلك ممنوع وقد يكون المرادف موهماً المنقص لكن عن الحسن بن علي رضي الله عنهما أنه علم إنسان في تهنئة الوالد بالولد بارك الله لك في الموهوب وشكرت الواهب . وفي حديث آخر طويل وذلك بأبي جواد ماجد ولا فرق بين المعرفة والنكرة. فإطلاق هذين عن نص. والمشهور أنّ كل ما ثبت له معناه ولم يرد به توقف يتوصل به إلى توصيفه بالذي وذهب كثيرون إلى ما عليه المعتزلة من أنه لا

---

[188] الأعراف:180

[189] الصافات:180

[190] بالكردي

[191] بالتركية في الكتابة بالعثمانية في بعض المواضع يكتب الكاف لكن يقرأ نونا

[192] البقرة:15

[193] آل عمران:54

[194] النساء:142

[195] التوبة: 67

[196] المائدة:54

[197] الكهف:65

[198] الواقعة:64

[199] آل عمران: 54

[200]رواه أحمد وأبى ريحانة، المستدرك، 1/ 78.

يشترط في إطلاق ما صحّ معناه ولو المجازي توقيف وعليه جرى ا **لحليمي** في قوله: يستحب لمن ألقى بذراً في أرض أن يقول: الله الزارع والمنبت والمبلغ

وأما ما يوهم نقصاً فلا يجوز اتفاقاً فلا يقال له عارف؛ لأن المعرفة قد يراد بها علمٌ يسبقه غفلة ولا فقيه؛ لأن الفقه فهم غرض المتكلم من كلامه وذلك يشعر بسابقة الجهل ولا عاقل؛ لأن العقل علم مانع من الإقدام على ما لا ينبغي مأخوذ من العقال ولا الفطن؛ لأن الفطانة سرعة إدراك ما يراد تعريضه على السامع فتكون مسبوقة بالجهل ولا الطبيب؛ لأن الطب يراد به علم مأخوذ من التجارب ودعوى مرادفته للشافي وهم فإنه من يفيد الشفاء من غير احتيال ولا مصدر الأشياء وإن كان له وجه بعيد إلى الصحة؛ لأنه يفهم منه الغافل أن العالم منفصل من ذات الحق بل صرح بعضهم بذلك وهو كفر كما تقدم وهكذا كل ما فه إيهام ما لا يسوغ في حقه تعالى بل كل ما خلا عن اقتضاء الكمال وإن لم يكن فيه نقصٌ

**وأسماؤه تعالى كثيرة لا تنحصر** في تسعة وتسعين واشتهار خصوصها لوقوعها كما هي في حديث معروف، بل قيل: له ثلاث آلاف اسم: ألف لا تعرفه إلا الملائكة وألف لا تعرفه إلا الأنبياء وثلشمائة في التوراة وثلشمائة في الزبور وثلشمائة في الإنجيل وتسعة وتسعون في القرآن وواحد لا يعرفه إلا هو سبحانه وتعالى.

**ومع كثرتها لا تخرج عن ثلاثة أقسام:.**

1 أسماء تدل على الذات

2 وأسماء تدل على التنزيه[201]

3 وأخرى تدل على صفات الأفعال وكلها موصوفة بالحسنى واجبة التعظيم ولا يجوز لنا التسمية بشيء منها وإن أطلقنا اسماً منها على أحد فإنما هو على وجه الذهول وعدم إرادة المعنى المتعلقة باسمه تعالى وقد اشتهر الخلاف في أن الاسم هل هو عين المسمّى أو غيره وقد حمله المحققون على أنه في لفظ الاسم المضاف إلى الأشياء نحو اسم الله واسم زيد واسم السلام

وقالوا: أن الخلاف لفظي؛ لأن للاسم ثلاثة معان:

**أ**– اللفظ المفرد الموضوع اسماً كان أو فعلاً أو حرفاً ومنه {**وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا**}[202]

**ب**–وذات الشيء ومنه {**مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً**}[203]

**ج**– والصفة يقال: الحق والحكيم والخالق أسماء لله تعالى فإن أريد بالاسم في قولهم هل الاسم عين المسمّى المعنى الأول، فلا شك أنه غيره أو الثاني فلا ريب في العينية أو الثالث فينقسم انقسام الصفة عند الأشعري فإن أريد به صفة من صفات الأفعال كالخالق فغيرٌ أو صفة هي عين الذات كالموجود وكذا الله باعتبار أصله فعين أو صفة من الصفات(ب/23) الذاتية الزائدة كالعليم والبصير فلا عين ولا غير

---

201 ب:على صفات الذات

202 البقرة:30

203 يوسف:40

وقيل: الاختلاف في كلّ فرد من أفراد الاسم ويردّه أنه لا يجوز إرادة الصفة من كل اسم وإن جاز إرادة الآخرين مطلقاً كما في كتب زيد وكتبت زيداً. والمفهوم من كلام بعض الأفاضل أن النزاع في أسماء الله تعالى خاصة والاسم الذي عينه خصوص الجلالة وهو المنقول عن الأشعري والانقسام المذكور عنده خاص بالصفة ولعلّه عليه اجترأ من قال:

**وليس الاسم غيراً للمسمى لدى أهل البصيرة خير آل**[204]

وما يتمسك به في العينية مطلقاً نحو: { **ذَالِكُمْ اللَّهُ رَبِّي** }[205] إذ لو لم يكن الاسم عين المسمى لم يصح حمل ربي عليه وكذا { **قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَانَ** }[206] حيث لم يقل ادعوا بالله وبالرحمن إن لم يجعل الدعاء بمعنى التسمية على تقدير سموه تعالى أيهما شئتم

وحديث: **أنا مع عبدي إذا ذكرني وتحركت بي شفتاه؛**[207] لأن الشفتين إنما تتحرك بالاسم فجعله عين ذاته

---

[204] بدأ الآمالى، البيت الثامن

[205] الشورى:10

[206] الإسراء:110

[207] بخارى، توحيد 43

## فصل في مسئلة الرؤية

واعلم أن كونه تعالى مرئياً لنا في الدنيا بعين الرأس جائز عقلاً بمعنى أن العقل إذا خلي ونفسه لم يحكم بامتناعه ما لم يقم له برهان فحكمه به بعد التخلية وإن كان إمكاناً ذهنياً فيكتفي [208] به كما اكتفوا في سائر السمعيات كالسمع والبصر والكلام وعذاب القبر بمجرد أنها أمور ممكنة أخبر بها الصادق ولم يتعرضوا لإثبات إمكانها الذاتي أصلاً.

ومن ادعى الامتناع فعليه البيان ومع ذلك فقد استدلوا على جواز الرؤية بأمور عقلية ونقلية. فمن الأدلة العقلية ما قالوا من أنّ العلّة المشتركة بين ما نرى من الأعيان والأعراض ونفرق بينها إما بالوجود أو الحدوث أو الإمكان والأخيران عدميان لا يصلحان للعلّية فتعين الوجود وهو باعتبار أن المراد به هنا كون الشيء له هوية ما مشترك بين الصانع وغيره فيصحّ أن يرى من حيث تحقق علّة الصحة واشتراط كون المرئي في مكان وجهة ومقابلة من الرائي بمسافة لا تكون في غاية القرب ولا في غاية البعد واتصال شعاع من الباصرة بالمرئي إنما هي في حقنا دون جنابه تعالى حتى يلزم ما هو محال عليه بل هي أسباب عادية يجوز أن يخلق الله الأبصار بدونها كأعمى الصين يرى بقّةَ أندلس وأن نرى الأصوات والطعوم والروائح وغيرها غاية الأمر أنه لم تجر عادته تعالى بذلك . ومن النقلية أن موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام قد سأل الرؤية بقوله: { **رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ** }[209] فلو لم تكن ممكنة لكان طلبها جهلاً منه بما يجوز على الله وما لا يجوز أو سفهاً أو عبثاً وطلباً للمحال والأنبياء منزهون عن كل ذلك من جوز واحداً منها عليهم فهو كافر مراق الدم وأن الله قد علّق الرؤية باستقرار الجبل وهو أمر ممكن في نفسه والمتعلّق بالممكن ممكن البتة إذ المحال لا يتعلق بالممكن أصلاً وسيرى في الآخرة وجوباً بنصّ { **لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى** }[210] ، أي الجنة { **وَزِيَادَةٌ** } [211]، وهي الرؤية { **وَجُوهٌ**(أ/24) **يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ** }.[212]

والنظر المستعمل بإلى نصّ في الرؤية. وقوله عليه الصلاة والسلام : «**أنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر**» [213]وإجماع الأئمة على ذلك قبل ظهور الابتداع وشيوع الشبه والتأويلات فإن أهل الجنة [214]كلهم يتمتعون برؤيته والنظر إلى وجهه الكريم حتى النساء ومؤمني الأمم السابقة والجن والملائكة على خلاف في هذه

---

[208] ب:لكن يكتفي

[209] الأعراف:143

[210] يونس:26

[211] يونس:26

[212] القيامة:22،23

[213] بخارى، أذان 129؛ مسلم، إيمان 399

[214] ب: النشأة الأخيرة

الأربعة بل إنها في الموقف تعمّ المنافقين والكفّار ثم يحجبون عنها وهو المراد بقوله تعالى: { **كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ** }[215].

ولا يلزم من حصول رؤيته تعالى حينئذ الاطلاع على حقيقته بل هم على الحيرة فيها [216]كما في الدنيا خلافاً لبعض؛ لأن المحققين على أنه لا يعرف إلا بحسب ما وقع به التجلي ولا انتهاء للتجليات وهي كلمح البصر لا يثبت الواحد منها آنين وإنما اختصوا أهل الآخرة بالرؤية لمتانة قواهم وخلقهم للبقاء فيروا الباقي بالباقي بخلاف أهل الدنيا فإنهم أهل فناء ضعفاء القوى لا يستقوون لذلك فمن المحال رؤية الباقي بالفاني ولذا لم تقع في الدنيا إلا لنبينا عليه الصلاة والسلام ليلة المعراج وقد كفر من ادعاها فيها يقظة بعين البصر كثيرون كصاحب الأنوار وغيره.

**وقال أحمد الشيباني:.**

**ومن قال في الدنيا يراه بعينه فذلك زنديق طغى وتمردا**

**وخالف كتب الله والرسل كلها وزاغ عن الشرع الشريف وأبعدا[217]**

بدليل اقتران النصوص الواردة في سؤال الرؤية بالاستعظام والزجر والاستنكار كقوله تعالى: { **وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ** }[218] { **يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ**}[219] { **وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلاَئِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْ عَتُوًّا كَبِيرًا** }[220] { **وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً** }[221]؛ وحديث مسلم: أنه (ص) قال: «**واعلموا أنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا**» [222] إلى غير ذلك.

والأصحّ أنه لا يكفر ما لم يضم إلى زعم رؤيته بعينه اعتقاد وجود جسم ولوازمه من نحو الصورة واللون والمكان وغيرها ولا كفر بمجرد زعم الرؤية برخصة أنها وقعت للنبي عليه الصلاة والسلام.

وحكي عن الأشعري قول بوقوعها لغيره؛ لأنه وإن كان في غاية الشذوذ غير مانع من التكفير لكن يقوى اعتبار الشروط

---

[215] المطففين:15

[216] ب:منها

[217] بيان المعاني في شرح عقيدة الشيبانية؛للسيد الشيخ علوان ابن السيد عطية الحسيني الحموي،ص: 36.

[218] البقرة:55

[219] النساء: 153

[220] الفرقان:21

[221] الشورى:51

[222] لم أجد هذا الحديث بهذا الفظ لا في مسلم و لا في غيره من الكتب الصحاح.

وأما في المنام فقد وقعت لكثير من الأفاضل بل نقل عن أبي حنيفة رضي الله عنه أنه قال: رأيت رب العزّة في المنام تسعة وتسعين مرة ثم رآه مرة أخرى تمام المائة وقصته طويلة ولا ريب في أن له تنزلات وتجليات صفاتية وأفعاليّة بوجوه شتى متفاوتة المراتب يسميها أهل التصوف بالرؤية وليست بها في الواقع بل راجعة إلى الرؤية القلبية وغلبة الأحوال التي تجعل الغائب كالشاهد وإليها الإشارة في نحو قول عمر رضي الله عنه: رأى قلبي ربي . وقول علي: لم تره العيون بمشاهده لكن تراه القلوب بحقائق الإيقان وذلك لأنه كما حققوا وأوضحوا [223] قد يتجلى [224] من حضرة الهوية التي هي مرتبة غيب الغيب إلى حضرة الأحدية وتسمى مقام أحدية الجمع والطامة الكبرى والأدنى من قاب قوسين ؛ ومنها إلى حضرة الواحدية وهي مقام قاب قوسين ومجمع البحرين ؛ ومنها إلى عالم الأعيان الثابتة؛ ومنها إلى عالم الجبروت؛ ومنها إلى عالم الملكوت؛ ومنها إلى عالم المثال.؛ ومنها إلى عالم الملك فالسالك لا وقوف له ما دام في سلوكه بل لا يزال يتصاعد من مقام إلى مقام إلى أن ينتهي إلى مقام تجلي الذات الذي هو حضرة الهوية وهناك ينقطع عن السلوك ويقال له عارف بالله فإن في استغراق صفات الذات ينقلب سيره في الله بعد ما كان إلى الله وهنا طاحت الإشارات وذهبت العبارات وانمحى الاسم والرسومات. وإذا رجع عن هذا الجمع بكمال الفناء إلى مقام الفرق الخاص بالأنبياء فهناك يصلح للإرشاد والتربية ويحصل له البقاء ولا ينقطع من بعد القرب والإحسان والصفاء لكن أكثر أهل الكشف على امتناع تجلّي الذات والمعتزلة أنكروا جواز الرؤية دنياً وعقبى ولو[225] على وجه الانكشاف الذي نفينا عنه شرائط الرؤية بدعوى أن أدلتها العقلية لا تخلو من دخل وخفاء والنقلية مؤولة بنحو؛ لأن سؤال موسى عليه السلام كان لأجل قومه حيث طلبوها فسأل ليعلموا امتناعها كما علمه هو على أنا لا نسلم أن المعلق عليه ممكن؛ لأنه استقرار الجبل حال تحركه وهو محال والآيات المتقدمة المشتملة على زجر طالبيها أوضح دليل على امتناعها وكذا آية { **لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ** }[226] وأجيب بأن كل ذلك خلاف الظاهر لا ضرورة في ارتكابه على أن القوم إن كانوا مؤمنين كفاهم قول موسى عليه السلام أن الرؤية ممتنعة وإن كانوا كفاراً لم يصدقوه في حكم الله بالامتناع وأيا ما كان كان السؤال عبثاً إلا أن يقال أنهم كانوا مؤمنين سمعوا كلام الله مع موسى في غمام غشيهم فارتدوا بقولهم بعد ذلك { **لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً** }[227] فقد كانوا حاضري الواقعة فلم يتوقف علمهم بامتناع الرؤية على أن يصدقوه في حكم الله بذلك لسماعهم له بالنفس وأن الاستقرار حال التحرك ايضا ممكن بأن يقع السكون بدل الحركة وإنما المحال اجتماعهما وليس كلمة لن للتأبيد كما ظنوا بل للتأكيد ولذا تقيد بأبداً وإن سلم التأبيد فإنما يكون في الدنيا كقوله تعالى: { **وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ** }[228] مع أنهم يتمنون الموت في الآخرة للخلاص من العقوبة والزاجرات المتقدمة إنما هي

---

[223] ب:أطلقوا

[224] ب:يتنزل

[225] ب:حتى ما

[226] الأنعام:103

[227] البقرة:55

[228] البقرة:95

لمجرد اجترائهم على الله وطلبهم رؤيته عناداً وقبل أوان وعدها ويشهد لذلك ذمّه تعالى للكفار بعدم رجائهم لقائه في الآخرة والظاهر أن الإدراك في {**لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ**}[229] هو الرؤية على وجه الإحاطة بجوانب المرئي وهي أخص من الرؤية مطلقاً ولا يلزم من نفي الخاص نفي العام وأن اللام في الأبصار للاستغراق فالنفي رفع للإيجاب الكلي فتكون سالبة جزئية وإن سلم أن الآية عامة في الأشخاص(أ/ 25) فلا نسلم عمومها في الأوقات فإنها سالبة مطلقة نقول بموجبها في الدنيا فقط ولا دليل لهم في التمدح المفهوم من الآية، بل هو حجة لنا؛ لأنه لو امتنعت الرؤية لم يكن فيه تمدح إنما التمدح للتمنع والتعزز بحجاب الكبرياء مع إمكان الرؤية ولأن عدم رؤيته في الدنيا مع كونه أقرب من حبل الوريد كان في المدح فلا ينافي رؤيته في دار الآخرة.

---

[229] الأنعام:103

## فصل في مسار خلق العالم

ثم أنه تعالى أحدث العالم بجميع أجزائه وأبدعه بمشتتات أنواعه وأحواله من العدم كما سبقت الإشارة إليه من غير سبق مثال منتظم على عكس ما عليه العباد فإن أحداً منهم كعيسى عليه السلام وغيره لا يقدر بإرادة الله على اختراع شيء إلا إن أنشأه في نفسه أولاً عن تدبر وتصور ثم أبرزه بالقوة العملية إلى الوجود الحسّي والتشكل المثلي. وهذا في حقّ الله محال بل إنه علم الأشياء قبل وجودها في عالم الشهادة فأوجدها على حدّ ما علمها فلم يزل عالماً بها وبتنوعات أحوالها لم يتجدد له علم عند تجددها فالعالم استفاد ببروزه إلى عالم الشهادة علماً بنفسه لم يكن عنده لا أنه استفاد حالة لم يكن عليها فما أوجده [230] إلا ليكشف عن أعيانها وتنوعات أحوالها شيئاً فشيئاً على التتالي والتتابع فتشهد بعجيب حكمته وصنعه البارع فإن قلنا: هي موجودة من عدم صدقنا أو من وجود، أي في العلم صدقنا أو حادثة من الوجهين أو قديمة منهما أخطأنا وبذلك يجمع بين قول الأشعرية أنها خلقت ووجدت من عدم متقدم وقول المعتزلة: وجدت عن وجود وما يغالط به من أنّ الإيجاد إن كان حال العدم فهو جمع النقيضين أو حال الوجود فهو تحصيل الحاصل مدفوع بأن الإيجاد للموجود بوجود علمي أو مقارن لا متقدم فليس فيه تحصيل الحاصل.

والحاصل أنه أوجدها من غير حاجة إليها ولا موجب أوجبها عليه وإنما علمه به سبق فلا بدّ أن يخلق ما خلق فهو تعالى {**غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ**}[231] فاعل بالاختيار لا موجب بالذات موجود بذاته مع جميع كمالاته من غير افتتاح ولا انتهاء، بل وجوده مستمر قائم بذاته بلا مراء حتى لا يجوز أن يقال أنه مفتقر في ظهور أسمائه وصفاته إلى وجود العالم ولا أن وجودها علامة على ثبوته كيف وللدليل فخر على المدلول لعدم التوصل إليه إلا به فينافي غناه المطلق بل يلزم أن يقال: قد كانت ثابتة في علمه القديم الأزلي مشهودة له في حال عدمها النسبيّ كما هي مشهودة في حال وجودها سواء فهو يدركها [232]على ما عليها في حقائقها حال وجودها وعدمها بإدراك واحد فسئلت بلسان وجودها في علمه أن يخرجها من العدم ويوجد أعيانها ليكون العلم لها ذوقاً فأوجدها لها لا له وإنما نصبها ليعلم العبد أنه إله واحد لا إله إلا هو ولا شريك له في جلال ذاته وجمال صنعه وصفاته فينال سعادة الدارين ويظهر له عجزه وفقره وحاجته إليه ألا يرى أن ذات أحدهم لو لم يتصف بالوجود فبماذا كان ينظر.

ومن هنا قال بعض العارفين: عرفت الله بالله وعليه ورد [233]**كنت كنزاً مخفيًّا فأحببت أن أعرف فخلقت خلقاً فتعرفت إليهم فبي عرفوني**، [234] يعني أنه كان كنزاً مخفياً في مرتبة الأحدية فأحب أن يظهر جمال رحمته وكمال

---

[230] ب:المخلوقات

[231] آل عمران:97

[232] ب: ثبوتا

[233] ب: يحمل

[234] كشف الخفى 132/2، ر2016.

قدرته وجلال عظمته ونوال نعمته وبواهر صفته وأسرار حكمته فخلق (ب/ 25) عالم الأرواح وعالم الأجساد وجميع ما احتوى عليه من العجائب والغرائب تعرف إليها **فأول** ما خلق منها على الإطلاق نور محمد عليه الصلاة والسلام كما في حديث: **أن الله خلق نور محمد قبل الأشياء من نوره**[235]

وأما حديث: **أول ما خلق الله روحي والعالم بأسره من نوري كل شيء يرجع إلى أصله** [236] فلم يتحقق راويه لكن على نحوه جرى ساداتنا الصوفية حيث جعلوا كل شيء راجعاً إلى الحقيقة المحمدية وإليه ينساق حديث : **يا جابر إن الله خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره فجعل ذلك النور يدور بالقدرة حيث ما شاء الله ولم يكن في ذلك الوقت لوح ولا قلم ولا جنة ولا نار ولا ملك ولا سماء ولا أرض ولا شمس ولا قمر ولا جن ولا إنس فلما أراد أن يخلق الخلق قسم ذلك النور أربعة أجزاء فخلق من الجزء الأول القلم ومن الثاني اللوح ومن الثالث العرش؛ ثم قسم الرابع إلى أربعة أجزاء: فخلق من الأول حملة العرش ومن الثاني الكرسي ومن الثالث باقي الملائكة ؛ ثم قسم الرابع فخلق من الأول السماوات ومن الثاني الأرضين ومن الثالث الجنة والنار؛ ثم قسم الرابع فخلق من الأول نور أبصار المؤمنين ومن الثاني نور قلوبهم وهي المعرفة بالله. ومن الثالث نور ألسنتهم وهو التوحيد: لا إله إلا الله،**[237] الحديث

وكذا ما اشتهر وإن كان فيه نوع شائبة من الإسرائيليات من أنه تعالى خلق جوهراً لطيفاً عظيماً من نور ذاته أولاً ثم خلق من ذلك الجوهر جميع الكائنات بالتدريج واختلفوا في كيفية خلقها منه بوجوه شتى: منها أنه خلق نوره عليه الصلاة والسلام من نوره قبل كل شيء بنحو ثمانية آلاف سنة ثم خلق له اثني عشر حجاباً . حجاب القدرة والعظمة والمنة والمرحمة والسعادة والكرامة والمنزلة والهداية والنبوة والرفعة والطاعة والشفاعة. فبقي في كل منها مدة لا يعلم قدرها إلا الله وهو يسبح له تعالى في كل منها نوعا من التسبيح ثم ألقاه في بحر النضرة والرحمة والقدرة والعرفان فبقي في كل منها ما شاء الله . فلما خرج من الأخير تقاطر منه مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً خلقت منها أرواح الأنبياء ثم خلق من ذلك النور جوهراً أومىء إليه فصار نصفين فخلق من أحدهما ناظراً إليه بعين الشفقة العرش والكرسي واللوح والقلم وقيل: الجنة أيضاً ومن الآخر ناظراً إليه بين الهيبة الماء فاضطرب من هيبته ولم يبق له قرار وسكون كما يرى فتزبد. وخرج منه دخان فخلق من الزبد الأرض بل جهنم والنار أيضاً ومن الدخان السماء.

وقيل: أنه أوجد من كتم العدم جوهرا أخضر أنور فسماه الجوهر الأول والنور المحمدي. ثم نظر إليه نظر محبة فذاب من حيائه وجرى مثل الماء وتزبد فخلق من تلك الزبدة النفس الكلية، أي الروح المحمدية ثم أرواح الملائكة فالأنبياء فالأولياء فالعارفين فالعابدين فالمؤمنين فالكفار فالجن فالشياطين فالحيوانات فالنبات فالمعادن فالطبائع وعيّن لكل نوع من الأرواح المذكورة مقامات معلومة على مراتبهم فوجد كل روح جنسه وصارت جنوداً مجندة

---

[235] السلسلة الصحيحة1/ 820

[236] لم نطلع عليه

[237] كشف الخفى، ج،1، 310

واقفة بمقامها ونظر إليه مرة أخرى فتزبد ثانياً فخلق من أعلى تلك الزبدة العرش ومما تحتها الكرسي وهكذا إلى أسفل(أ/26) السافلين وقيل غير ذلك.

**وبالجملة** أنه خلق بعد النور المحمدي **القلم** كما صحّ من طرق متعددة. أول ما خلق الله القلم وفي رواية لابن عساكر: ثم **النون** أي الدواة. وفي أخرى { **ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ** }[238]. قال لوح من نور وقلم من نور يجري إلى يوم القيامة وفي رواية ضعفها جماعة أن الله خلق العرش بصورة جوهر أخضر لا يوصف فاستوى عليه، أي استواء يليق بجلال ذاته ثم خلق القلم، أي واللوح المحفوظ أيضاً فأمره أن يجري بإذنه فقال: يا رب بمَ أجري؟ قال: بما أنا خالق وكائن في خلقي من قطر أو نبات أو أثر أو رزق أو أجل فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة كما قال عليه الصلاة والسلام: «**جفّ القلم بما أنت لاق**[239] وذلك ليعلم أهل السماوات والأرض أن جميع أحكام الخلائق جارية على وفق علمه السابق في الأزل ومطابقة له إلى الأبد . وإنما لم يأمره بكتابة ما يقع بعد يوم القيامة إلى أبد الآبدين؛ لأن كل ذلك من توابع الأحكام التي كتب عليهم حتى الشقاء الأبدي لتجزى كل نفس بما تسعى أبد الآبدين ودهر الداهرين ولفظ حديث البخاري **كان الله ولم يكن شيء قبله وكان عرشه على الماء ثم خلق السموات والأرض وكتب في الذكر، أي أم الكتاب كل شيء**[240]

قال كعب الأحبار[241]: **خلق الله ياقوتة خضراء فنظر إليها بالهيبة فصارت ماء ثم خلق الريح فجعل الماء على متنها، ثم وضع العرش على الماء**

والظاهر من هذا وما قبله أن أول ما خلق بعد النور المحمدي الماء ثم العرش ثم القلم

وأخرج الترمذي: **قلت يا رسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه؟ قال:** «**كان في العماء ما تحته هوى وما فوقه**[242] **هواء وخلق عرشه على الماء**[243]. قال **أحمد**[244]: يريد بالعماء ليس معه شيء وقيل: أنه في اللغة السحاب الرقيق أو الكثيف أو الضباب وحينئذ تقدير الحديث: أين كان عرش ربنا؟ على حذف المضاف دل عليه وخلق عرشه على الماء. ومنهم من قال: نؤمن به ولا نكيفه.

---

[238] القلم:1

[239] بخارى، نكاح 8

[240] بخارى، بدء الخلق 1

[241] اسمه أبي بن كعب أبو المنذر كان قبل الإسلام حبرا من أحبار اليهود، ولما أسلم كان من كتاب الوحي، شهد المشاهد كلها مع رسول الله(ص)، وكان مفتيا على زمنه مات بالمدينة سنة 642/21 . راجع الاعلام للزركلي 78/1

[242] ب:لا

[243]، إبن ماجه، مقدمة 13 ترمذى، تفسير سورة 11

[244] هو بن محمد بن حنبل ابو عبد الله إمام المذهب الحنبلي مروي الأصل ابوه كان واليا لسرخس، ولد ببغداد سنة 780/164، من كتبه تامشهورة المسندة، توفي سنة855/241. راجع الأعلام للزركلي 192/1-193.

وحكى عن بعضهم: عما بالقصر [245] وهو كل أمر لا يدركه الفطن، ثم أنه خلق حملة العرش الأربعة لكل أربعة أوجه فحملوه على أعناقهم إلى يوم القيامة. ويوم القيامة يحمله ثمانية.

ثم خلق الملائكة الكروبيين بتخفيف الراء، أي سادة الملائكة على ساقات العرش ثم خلق الملائكة الصافين الحافين حول العرش سبعين: ألف صف أكثرهم على صورة الإنسان ولهم أجنحة كثيرة لكن يقال: ورد أنه خلق بينهم وبين العرش ثمانية أنهر أبيض من الثلج وأحلى من العسل تجري حول العرش وألف حجاب من نور وألفاً من الظلمة لئلا يحترقوا من شدة نور العرش وخلق ورائهم حيّة عظيمة صفراء، أي ملكاً بتلك الهيئة أحاطت بالكل ووضعت رأسها على ذنبها تقدر أن تجعل السموات والأرض لقمة واحدة لو لم يلهمها التلطف في تسبيحها لهلك جميع المخلوقات من مهابة صوتها.ثم خلق من نور العرش الكرسي في لون الياقوت الأحمر على أربعة قوائم متصلاً بساق(ب/26) العرش خلق فيه ملائكة كثيرة من جنس طبيعة جميع السموات والأرض بالنسبة إليه كحلقة في فلاة. كما أنه بالنسبة إلى العرش كذلك. وخلق من نور العرش بمقابل الكرسي فضاء عظيماً من لون الدرّة واسمها سدرة المنتهى إذ إليها ينتهي علم الخلائق وأعمالهم أو ما ينزل من فوقها وما يصعد من تحتها وهي منبت شجرة طوبى التي إنبثّت أغصانها على الجنان كلها يأكل أهلها من أثمارها التي لا تحصى. ويتلذذون بها . وخلق فيها ملائكة لا تحصى رئيسهم الموكل بها بجثة عظيمة وشكل عجيب له سبعون وجهاً في كل وجه سبعون فماً في كل فم سبعون لسان يسبح الله بكل لسان على لغة أخرى. وجعل بينها وبين العرش سبعين حجاباً لئلا تحترق ملائكتها من نوره وخلق فيها أيضاً عموداً عظيماً في شكل المنارة من الزمرد الأخضر ارتفاعه من السدرة مسافة ألف فرسخ وخلق على رأسه قبة عظيمة من الدرة البيضاء وعلى رأسها ملكاً عظيماً بألوان أنواع الجواهر في شكل الطاووس له ألف وخمسمائة جناح في كل جنح مائة ألف ريشة يقال له: ديك العرش في كل وقت من أوقات الصلوات يضرب أجنحته بعضها ببعض ويصيح فيظهر من كل ريشة صوت آخر بحيث تتحرك أغصان أشجار الجنان وتمتليء حورها وغلمانها سروراً ويخرجون رؤوسهم من الغرف يبشر بعضهم بعضاً بأنه قد جاء وقت صلاة أمة محمد ويقول: يا رب إنما أفعل ذلك طالباً رحمتك لعبيدك كلما يتوجهون إليك بعبادتك وصلواتك فيقول تعالى: إني أرحمهم وأعتقهم من النار وأسرهم بنعيم الجنان . وخلق من نور العرش أيضاً متصلاً بساقه شيئاً أجوف طويلاً بشكل قرن عظيم بلون المرجان الأحمر سطحه المقعر مثل قرص العسل مثقب هي عشوش طيور الأرواح التي خلقت في البرزخ الأول، أي قبل تعلقها بالأبدان على حسب رتبهم وذلك قوله عليه الصلاة والسلام:

**«الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»** [246]

والتي في البرزخ الثاني، أي حين تخرج من الأبدان فإنها تأوي إليه منتظرة النفخ فيه وحشر الأجساد لترجع إليها وهو صور إسرافيل المشهور لكن الحقّ إن الأرواح متفاوتة وأن أرواح الكفار لا سبيل لها إلى الصعود إلى السماء. والعول على ما اختصرنا من كتاب السيوطي فراجعه.

---

[245] ب:مقصورا

[246] بخارى، أنبياء 3؛ مسلم، بر 159

وخلق تحت الكرسي وفوق السموات السبع من نور العرش ومن الماء الجنات الثمانية بأنهارها وأشجارها وقصورها وحورها وولدانها بعضها داخل بعض. والداخلة أعلى من الخارجة المحيطة بها حتى أن الثامنة المسماة بالعدن التي هي مقام الصديقين وحفظة القرآن ومحل تجليات الرحمن مشرفة على جميعها كقلعة جوانية على رأس جبل عالٍ في وسط بلدة مسورة

وقد خلق الله علماً عظيماً طوله مسافة ألف سنة وقصبته فضة بيضاء مرصعة بالزبرجد الأخضر(أ/ 27) وسنامه ياقوت أحمر وله ثلاث زوايا بين كل زاويتين مسافة خمسمائة سنة ووضعه في صحراء بلا نهاية فوق جبل الحمد وهو لواء الحمد الذي وعد حبيبه الأكرم أن يقبل شفاعته في المحشر للذين يجتمعون تحته في مقامه المحمود الموعود. وتحت هذا اللواء سبعون ألف لواء أيضاً وتحت كل منها سبعون صفاً من الملائكة في كل صف سبعون ألف ملك قائم يسبحون الله تعالى . وخلق تحت الجنات من نوع ضوء الشمس سبعين ألف حجاب وتحتها من نوع نور القمر كذلك ومن الظلمة كذلك. وتلك الحجب عبارة من أنواع الملائكة وخلق تحتهم البحر المسجور ثم تحته بحر الرق المنشور ثم بحر الرزق المقسوم ثم بحر الأنعام ثم بحر القمقام، ثم تحت ذلك بحر الحياة.

**وهذه البحور عبارة عن خزائنه تعالى وكناية** عنها وخلق تحتها السماء السابع من النور الأزهر أو الياقوت الأحمر واسمه عروب. ثم تحته السادس المسمى رفعاء من اللؤلؤ الصافي ثم الخامس المسمى دنيقا من الذهب الأحمر ثم الرابع المسمّى أرقلون[247] من الفضة البيضاء ثم الثالث المسمّى ماعون من الياقوت الأصفر ثم الثاني المسمّى بقيدم من الياقوت الأحمر ثم الأول المسمّى بالسماء الدنيا والرفيع من الزبرجد الأخضر وقد ملأ كلًّا بنوع من الملائكة مخالف للآخر خلقاً وصورة وتسبيحاً وسخن كل خمسمائة سنة، وكذا ما بين كل اثنين منها وبين الأخير وبين[248] الأرض وفيه البيت المعمور كان أنزله ياقوتاً أحمر من الفردوس لطواف آدم وحواء لما قبل توبتهما فرفعه من زمن الطوفان سوى الحجر الأسود فكان قد خبئها جبرائيل في جبل أبي قبيس فأتى بها لإبراهيم لما بنى الكعبة بمكانه ولم يجد حجراً يستقيم بركنها التي هي الآن فيه يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك من ملائكة سمائه ولا تأتي نوبة لمن دخله مرةً إلى يوم القيامة . وقد زيّن هذه السماء بالكواكب وحفظها من الآفات ومن الشياطين المسترقة للسمع بأن قدر أن يخرج من الكوكب نار شهب تحرقهم فلا يصلون إلى مرادهم. ومع ذلك هم مولعون على الصعود لا يتوبون رجاء للحصول مع سلامتهم بعض المرات. وقيل: ربما استرق الأعلى فألقاها إلى الأسفل منه فسلم وأتى به وهو الأوفق لظاهر {**إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ**}[249] إلخ

وصريح الأحاديث وتزيينها بها اعتبار أنها تتلألأ عليها سواء قلنا أنها مركوزة فيها أو في كل من السبع واحد من السيارات والبواقي في الكرسي المسمى بلسان الحكماء فلك الثوابت أو سابحة في البحر على ما ذهب إليه كثير

---

[247] ب: او الحاقور

[248] ب: والباقي من قوله فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة إن حمل على عروج ونزول الملائكة لا على يوم القيامة هو سخن العرش والالف من سماء الدنيا إلى الأرض.

[249] الحجر:18

من أهل التفاسير والحديث من أنه تعالى خلق تحت السماء الدنيا بحراً من الماء متصلاً به ساكناً على الهواء بقدرة الله وجعل جميع النجوم مخلوقة من نور العرش سباحة فيه كالحيتان من المشرق إلى المغرب ليتبين للعباد أوقاتها حيث هيأ لكلّ من الصغار ملكاً يحركها فيه ولكل من الكبار عشرة

وخلق للشمس عجلة من الجوهر الألماس بثلاثمائة وستين عروة وللقمر أخرى من الياقوت الأصفر بثلاثمائة وعين لكل عروة ملكاً يأخذ بها ويجرونهما في ذلك البحر فإذا قدر الكسوف والخسوف وقعا عن العجلة في عمق البحر إلى صوب السماء كلًّا(ب/ 27) أو بعضاً بقدر ما أراد فتتسبب الملائكة في جرها على العجلة مسبحين لله فيرجعونهما إلى حالتهما الأولى في مقدار ساعتين أو ثلاث مع عدم الإبطاء عن جريهما المعتاد . وقد جعل للشمس في طرف المشرق مائة وثمانين مطلعاً من الينابيع التي تنبع وتغلي غليان المراجل على النار من الطين الأسود فتطلع كل يوم في مطلع وتغرب في مغرب فإذا تمّت ستة أشهر رجعت عليها حتى تأتي مكانها في تمام السنة فلذلك يرى طلوعها وغروبها في فصل الشتاء بسمت الجنوب وفي أيام الصيف بسمت الشمال وجعل الكل من القمر والخمسة الأخر من السيارات السبع مطالع ومغارب في الطرفين أيضاً. وخلق للقمر غلافاً من جوهر[250] أزرق لاجورديّ له ستون عروة موكل بكل ملك فكلما بعده ملائكة العجلة من الشمس أخرجه ملائكة الغراف منه شيئاً فشيئاً حتى يقابلها بالتمام ويرى بدراً كاملاً وكلما قربه منها أولئك أدخله في غلافه هؤلاء فحتى[251] يقارنها يدخل في غلافه بالكلية فينمحق وهكذا إلى يوم القيامة.

وقد كان منوراً كالشمس فمسح جبرائيل وجهه بجناحه فمحا عنه تسعة وستين جزء من سبعين وحوّلها إلى الشمس ليتعين الليل من النهار وينضبط عدد السنين والحساب وذلك قوله تعالى: { **فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً**}[252]. وفي كل ليلة الملك المعين لظلمة الليل يدلّي الجوهر الأسود من السماء إلى طرف المشرق ويرفع ملك النهار جوهر النهار بالتدريج حتى يحيط جوهر الليل جميع آفاق الأرض لا السماء إذ لا ليل فيه. وكذا الحال من جانب ملك النهار قبل طلوع الشمس مقدار ساعتين فإن ملائكتها يصعدونها بعد الغروب من سماء إلى سماء إلى أن يأتوا بها مقدار ساعتين إلى تحت العرش فتسجد كملائكتها للرحمن فيأذنها بالخروج من مطلعها فينزلونها سماء سماء فيأتون بها إليه فيطلعونها ويدلي ملك النهار الجوهر الأبيض النهاري ويرفع ملك الليل جوهره شيئاً فشيئاً حتى إذا قربت الساعة فلم يأذنها مقدار ثلاثة أيام فتبقى تحت العرش فتطول تلك الليلة يحس بها المتهجدون فيأمرها بعد ذلك بالخروج إلى المغرب إلى أن تبلغ حدّ العصر ثم يأمرها بالطلوع من مطلعها وبعد هذه العلاقة ينسدّ باب التوبة ولا ينفع الندم عن الكفر والمعاصي.

وقالوا: قد خلق تحت ذلك البحر المرقوم في وسط الهواء البحر المكفوف وفيه نحو مائة ألف نوع من المخلوقات يسبحون ويدبرون فيه وبماء هذا البحر كان طوفان نوح ومنه ينزل المطر حيث تنزل الأرزاق المقسومة من بحر

---

[250] ب:يقال له الصلهوز ففى القاموس الصاهوز غلاف القمر

[251] ب:فحين

[252] الإسراء:12

الأرزاق الذي فوق السموات إليه وتحمل على الريح ويلهم السحاب أن تنخل الماء الممتزج بالأرزاق كالغربال ويجعله قطرات الأمطار بإذن إسماعيل وكيل ميكائيل في ذلك، وينزل بكل قطرة ملك يضعها موضعها ولا تبلغه النوبة مرة أخرى. وللطافتهم لا يتزاحمون في النزول وقد خلق تحت هذا البحر في الهواء أيضاً ألوف جبل من الثلج والبرد فإذا أراد إنزالها أمر ميكائيل فيأمر وكيله إسماعيل فيرسل ذلك مع الملائكة كل حبة(أ/ 28) بالمقدار الذي يريد وذلك قوله تعالى: {**وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ**}[253]

ولما خلق الله تعالى الجوهر الأخضر المرسوم منه الماء خلق من بخاره الريح، فالريح الذي بين السماء والأرض ثلاثة: الريح العقيم الذي أرسلها لإهلاك قوم عاد، والريح السوداء التي حملت البحرين المذكورين وجبال الثلج والبرد، وريح أهل الأرض التي تتحرك صوب المشرق والمغرب والجنوب والشمال وهي الهواء المحرك للغيوم والجامع والمفرق لها إلى الجهات والأراضي التي يريد ميكائيل إنزال المطر أو الثلج أو البرد عليها فهبوبها وسكونها منوط بإذنه وفي هبوبها فوائد كثيرة كالأمطار والنبات وتحسين الوجوه وحفظ الحياة تنشيف الأشياء وإصلاحها وقطع النتن والعفونات كما أنّ الهواء المجاور لوجه الأرض جعل لطيفاً معتدلاً بين الحرارة والبرودة ليستنشقه المخلوقات ويتنفسوا به ويجدوا الحياة والعيشوشة إلى وقت آجالهم.

وقد خلق الله تعالى السحاب والغيوم أجساماً لطيفة مجوفة يجمعها في الهواء أعوان ميكائيل فإذا رفعوها صوب السماء تبعد من الأرض ولا تتبين فيكون صحواً لطيفاً وإذا أنزلوها إلى قرب الأرض تستر وجه السماء وتتكاثف . وقد خلق الله الرعد ملكاً صغيراً لسوقها بأمر ميكائيل إلى محل يريده وله سوط حديد يضربها به قد يخرج منه نار يقال له البرق الخاطف وإن نزل من شرارتها إلى الأرض فتلك [254] الصاعقة والصوت الهائل هو صوت صياحه عليها فقيل: قد تخرج لغضبه [255] وشدة صياحه مسبحاً نار هي الصاعقة والبرق من لماح أجنحته وذلك قوله تعالى: {**وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ**}[256]الآية.

والقوس الملوّن بالأخضر والأحمر والأصفر والأرجواني هو قوس الله علامة لرحمته وإظهار لقدرته وميمنته. قيل: أول ما حدث يوم الطوفان استئناساً وأمناً لأهل السفينة ويكره تسميته قوس القزح لأن القزح اسم الشيطان كما في الحديث وما سمعت من إيجاد السموات السبع أيضاً قبل الأرض هو الذي جرى عليه كثيرون نظراً إلى قوله تعالى: {**وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا** } [257] والذي صححه الأكثرون أنه خلق الأرض أولاً كخبزة ثم استوى وقصد إلى السماء فسواهن سبع سموات في يومين حملاً لثم على أصل معناها لا التراخي الرتبي ثم توجه إلى الأرض مرة أخرى فدحاها وبسطها وجعلها سبع طبقات كالسموات عداً وسمكاً وبعداً

[253] النور:43

[254] ب:فذالك

[255] ب:لغيظه

[256] الرعد:13

[257] النازعات:30

فمنهم من يقول: إنه خلق في كل من الطبقات الأخر مخلوقات كثيرة متخالفة أسماء وصوراً وطبيعة، أقدامهم صوبنا ورؤوسهم صوب السفل أو مثلنا ويقال للطبقة السادسة منها: سجّين فيها أيضاً دفاتر أهل النار وفيها تحبس أرواح أهل النار إلى يوم القيامة على رواية.

وللسابعة عجباً وفيها أصل مقام إبليس فيجلس على تخته ويعرض عليه أتباعه تلبيساتهم ومكرهم في إضلال بني آدم فأيّهم يرى فساده أكبر كالذي يمكر حتى يوقع الفراق بين المرء وصاحبته يعدّ من المقربين لديه . ومنهم من يقول: أنه ليس في غير الطبقة التي نحن على وجهها مخلوق (ب/ 28) أصلاً ولا فيها انتفاع ولذا تفرد في الغالب ولا تجمع كالسموات وهو الظاهر من النصوص وإن جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: { **وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ** }[258] أنه قال: **سبع أرضين في كل أرض نبي كنبيكم وآدم كآدمكم ونوح كنوحكم وإبراهيم كإبراهيمكم وعيسى كعيساكم**[259] لما صححّ البيهقي أنه شاذ المتن وإن سلمنا كونه صحيح الإسناد، أي فهو ضعيف لا يعاول عليه في مثل هذا المقام على أنه يمكن أن يؤول بأن المراد بهم النذر الذين كانوا يبلّغون الجن عن أنبياء البشر كل منهم باسم النبي الذي بلغ عنه ثم أنه جعل من فوقها رواسي تسكيناً لها من الاضطراب على عكس ما هو العادة من نصب عماد الشيء من تحته لتشهد بعجائب قدرته ويظهر للناظر ما فيها من وجوه الاستبصار.

وخلق محيطاً بأطرافها جبل القاف المشهور من الزبرجد الأخضر في باطن السماء الدنيا يشرق عليه ضياء الشمس وأنوار القمر والكواكب فينعكس لونه على الهواء فيتبين الهواء أزرق فيظن العوام أن ذلك لون السماء وقيل: خضرة السماء من صخرة تحت الأرض خضراء وقد ربط عروق جميع الجبال به ووكّل بها ملكاً عظيماً فإذا أراد زجر قوم يأمره بتحريك عروق الجبال القريبة من أرضهم فتقع بها الزلزلة ليتنبهوا ويتوجهوا إلى باريهم ويلتجؤوا إليه ويطيعوه في أوامره ونواهيه.

وقد خلق ورائه سبعة أخرى باسمه أيضاً وضع على كل منها أطراف سماء من السبع المشابهة للقباب والخيم وخلق بين كل من الثمانية بحراً مملوءاً بألوف من نوع من المخلوقات عرضه مسافة خمسمائة سنة ككل من الجبال المذكورة وخلق ورائها[260] حية عظيمة أحاطت به مثل الحلقة فوضعت رأسها على ذنبها تسبح الله بأعلى صوتها إلى يوم القيامة.

وبعد قد كانت الأرض في نوع اضطراب وتحرك في وسط تلك البحار فعيّن ملكاً عظيماً فقبض أطرافها ووضعها على منكبيه فسكنت وخلق صخرة عظيمة مربعة لأجل قرار قدم ذلك الملك عليها.

ثم خلق ثوراً عظيماً أحمر اللون ذا رؤوس وقرون وأرجل كثيرة اسمه ليونان فحمل الصخرة على قرونه وظهره ثم خلق حوتاً عظيماً بحيث تكون البحار السبعة في فمه لتستقر أرجل الثور على ظهرها وخلق تحتها بحراً واسعاً لتستقر

---

[258] الطلاق:12

[259] البيهقي، الأساء والصفات،ص472؛ راجع مجموع الفتوى، لإبن تيمية، ج،2، ص.428.

[260] ب:الثامن

فيه. وخلق تحته سبع طبقات جهنم بكيفيتها الهائلة وشدتها الغائلة كما نطق به النصوص السائلة وخلق تحتها ريحاً عاصفة لتستقر عليها وخلق تحت الريح ظلمة وتحتها حجاباً لا يصل علم الخلائق إلا إلى هذا الحجاب. والظاهر أن كل ذلك غير الرواسي في يومين وجعل في الأرض رواسي { **وَبَارَكَ فِيهَا** }[261] ، بخلق أنواع النباتات والحيوانات {**وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا** }[262]بأن عيّن لكل نوع ما يصلحه ويعيش به في يومين آخرين فالمجموع مع يومي السموات السبع ستة فقد تأنى ولم يخلق جميع الكائنات بلمحة تعليماً وتفهيماً لعباده الصبر والتأني في جميع الأفعال والمقاصد.

ثم بعد مدة مديدة (أ/ 29) كما سبقت الإشارة إليه خلق أبا الجان من العناصر الأربعة غالباً فيه المارج، أي الدخان الناري وسماه مارجاً أيضاً، وخلق بعده زوجته مرجة فتولد منهما طائفة الجانّ وكثروا حتى بلغوا نحو ألف قبيلة منهم إبليس وقبيلة أولاده. فلما ملئوا وجه الأرض وما وسعتهم صعد هو وأولاده إلى السماء الدنيا يعبدون هناك وكلهم في غاية العبادة والإطاعة لله. ثم بعد نحو سبعة آلاف سنة فشا فيهم الفساد وسفك الدماء . قيل: فكان تعالى يبعث لهم في رأس كل مائة سنة نبياً، أي منذراً فقط كما هو الأصح من أنه ليس فيهم إلا النذر فيهلكونه حتى قتلوا نحو مائتين وعشرين نبياً ثم غضب الله عليهم وأرسل إليهم إبليس وأولاده من الملائكة أيضاً فجمعوهم في مكان فنزلت بهم ناراً حرقتهم أو قتلوا عامتهم وما بقي منهم بقية آووا شعب الجبال وحجر الأرض[263] فأنزل مكانهم ذرية إبليس وتمم وجه الأرض من الملائكة ورفعه إلى السماء السابعة؛ لأنه كان في غاية الإطاعة بأوصاف الملائكة ولذا استثنى منهم إبليس. وقيل: إنّ أبا الجان إبليس كلهم من نسله إلا أن منهم مؤمن وكافر.

---

[261] فصلت:10

[262] فصلت:10

[263] ب:وخزائن البحر

## فصل في مسار خلق الإنسان

ثم بعد ذلك بكثير أيضاً أراد أن ينشيء أبا البشر ثمرة شجرة الطعام أبانا آدم عليه السلام فبعث عزرائيل أن قبض قبضة من موضع قبر النبي (ص) وجرّ عروق الأقاليم السبعة المختلفة ألواناً وطيباً وخبثاً وسهلاً وحزناً فلذا يرى بنوه مختلفة على حسبها.

ثم بعث جبرائيل فعجن ذلك الطين بمياه الجنة والمياه المختلفة وخمره أربعين يوماً كالعجين ثم صوره الله تعالى في بطن وادي نعمان في أحسن تقويم ونفخ فيه من روحه من جانب رأسه الشريف وأسجد له الملائكة في وجه الأرض وجعله نبياً لأولاده وأبى إبليس عن السجود له فصار ملعوناً مطروداً من باب الله فطلب المهلة منه إلى يوم القيامة فوجد هو وذريته الفرصة بالتسلط على ذرية آدم فيدخلون في أجسامهم ويجرون منهم مجرى الدم للوسوسة والإضلال على وجه التحسين لا الجبر فإن كيدهم ضعيف لا يماثل كيد النفس ولا سلطان له على الخواص المخلصين ثم رفع آدم بعد نحو أربعين يوماً إلى السماء وأسكنه الجنان وألبسه حللها ومتّعه بجميع نعمها وكان كلما يخاطبه لدى نعمته: يا آدم هل أنت قانع بنعمي هذه فيقول: لا يا رب حتى أخذته غفلة كالنوم الخفيف فخلق من ضلعه المعوجّ الأيسر أمنا حواء ففتح عينيه ورأى أن إنساناً محبوباً مثله جالس بجنبه فسر بها وألفها وأخذ مراده منها فقال: قد امتلأت الآن من شكر إحسانك هذا بالسرور والحضور فقال: { **اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ** }[264] ، حواء جنتي وخذا لذة كل نعمة منها لكن لا تقربا شجرة الحنطة فقط وقيل: غيرها. وقيل: شجرة العلم حيث أمرا بالتوجه إليه تعالى بالمشاهدة ونهياً عن الاكتفاء في معرفته بالعلم فالأكل حينئذ عبارة عن اكتفائهما به فبقيا في ذوق وصفاء الجنة(ب/ 29) مدة ألف سنة حتى اتبعت أمنا حواء وسوسة الشيطان وأمرت أبانا آدم بأكل الشجرة على ما هو المعروف من القصة فعريا من حلل الجنة وأخرجا منها فهبطت حواء بجدة وآدم بجبل عال من سرنديب الهند وهو يبكي ويتضرع وينادي: { **رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا** }[265] نحو مائتي سنة حتى قبل توبته فقام يطلب حواء وكانت هي أيضاً تبكي وتدور أطراف الأرض وتطلبه فتلاقيا على جبل عرفة ثم جاء إلى دمشق الشام فبقيا هناك خمسمائة سنة فتولد[266] بينهما أربعون ولداً بعشرين بطناً كل بطن ذكر وأنثى إلا شيثاً عليه السلام فإنه ولد وحده كرامة لنبينا (ص) فإنه من نسله وكان آدم يزوّج أنثى كل بطن من ذكر البطن الآخر فإن اختلاف البطون في شريعته كان بمنزلة اختلاف الأنساب فأبى قابيل من تزويج توءمته لزيادة جمالها من هابيل فقتله وخرج مسود الوجه إلى جبل الحبش وذهبا هما أيضاً إلى سرنديب فمات آدم هناك بالغاً عمره ألفي سنة ورجعت حواء إلى

---

[264] البقرة:35

[265] الأعراف:23

[266] ب:فتوالد

الجدة وماتت هناك وانبث من نسلهما ذرية كثيرة حتى ملأت وجه الأرض وقد بلغوا في حياته أربعين ألفاً ثم غرقوا كلهم في طوفان نوح عليه السلام إلا ثمانين بين الذكور والإناث آمنوا بنوح فحملهم على السفينة.
فلما خرجوا منها مات الكلّ إلا ثلاثة من أولاده [267]: سام وحام ويافث ونسائهم، منهم امتلأ وجه الأرض مرة أخرى ولذا يقال لنوح آدم الثاني . وبعد مرور نحو ستة آلاف سنة أو أكثر جاء نبينا لعالم الوجود فمجموع الأجسام البسيطة، أي عن المواليد الثلاثة عدّوها خمسة عشر نوعاً: العرش والكرسي والجنة والجحيم والسموات السبع والعناصر الأربعة مع الأنواع الأربعة عشر للروح تصير تسعة وعشرين عدد حروف الهجاء ويقال له العالم الكبرى وعالم الملكوت ويقال خاصةً للأعلى من عالم الأرواح وأصفاها وألطفها عالم الغيب وعالم اللاهوت وعالم الجبروت ولأوسطه عالم الأرواح وعالم المعاني وعالم الأمر ولأدناه وأكثفه وأقربه إلى عالم الأجسام عالم المجردات وعالم البرزخ وعالم المقال. ويقال لأعلى عالم الأجسام العالم العلويّ وعالم الأجسام وعالم البقاء وعالم الآخرة ولأوسطها العالم المتوسط وعالم الأجرام الأثيرية وعالم الأفلاك وعالم السموات ولأدناها العالم السفلي وعالم العناصر وعالم الكون والفساد وعالم الدنيا . لكن قد وقع منهم في كيفية التسمية وجوه أخر فليست بضرورية التعين ويقال لمجموع ذلك[268] العالم الكبرى كما مرّ. وهي إنما تكونت خاصة للعالم الصغرى، أي عالم الإنسان ليعتبر من صنائع بارئها ويعرف أنواع حكمة ناشئها وليس فيها شيء من العجائب والغرائب والطبائع والمنابع إلا[269] وله فيه نظير إراحة له وإغناء عن تكلف مشقة ما لا يمكن من تتبع آثارها والاطلاع على جميع حقائقها ودقائقها قال تعالى: {**وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ** }[270] ولذا قيل: تفكر فيك يكفيك، اعرف نفسك يا إنسان لتعرفني فعالم الإنسان(أ/230) مظهر للعالم الكبرى وهي مظهر لعالم الأعيان الثابتة، أي هذه الأعيان والصور من حيث هي عين الإلهي وهي مظهر للأسماء الإلهية وهي مظهر لحضرة الأحدية وهي مظهر لحضرت الهوية فعالم[271] الإنسان مظهر للجميع فسبحان من تاهت العقول في جلال ذاته وكمال صفاته وجمال فعاله وإلى حقائق هذه الثلاثة وما يليق بها نظر حجة الإسلام الغزالي رحمه الله حيث قال: ليس في الإمكان أبدع مما كان، أي كلّ كائن إلى الأبد حتى دخل في حيز كان لا أبدع منه من حيث أن العلم أتقنه والإرادة خصصته والقدرة أبرزته ولا نقص في هذه الثلاثة.
فكذا في أثرها فكأن بروزه على أبدع وجه وأكمله ولم يتفاوت بالنسبة إلى باريه { **مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَانِ مِنْ تَفَاوُتٍ**}[272] بل لذاته باعتبار الأحكام والآثار وعليه يبنى نحو تفضيل بعض على بعض فقد جهل وأخطأ من اعترضه بأن ذلك يستلزم عجزه تعالى عن إيجاد أبدع منه أو بخله به، أو وجوب فعل الأصلح عليه أو أنه موجب

---

[267] ب:إلا أولاده الثلاثة

[268] ب:ما ذكر

[269] ب:وقد خلق، ج :وقد أودع

[270] الذاريت:21

[271] ب:فكأن

[272] الملك:3

بالذات بناء على أن عدم إمكان الأبدع منه تعالى إما لأنه غير قادر عليها أو لا يسخى به أو يجب عليه هذا الموجود الأصلح أو يقتضي ذاته هذا الموجود فيلزم من كل من هذه واحد مما ذكر على الترتيب . كما أن الأجسام وسائر الأعراض كلها من محض خلق الله كذلك أفعال العباد كلها من الخير والشر والإيمان والكفر والطاعة والعصيان. والاختيارية وغيرها من نحو الطول والألوان بدليل النصوص الواردة في ذلك كقوله تعالى: { **لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ** } [273]أي ممكن بدليل العقل وقوله في مقام التمدح بالخالقية وكونها مناطاً لاستحقاق العبادة {**أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لاَ يَخْلُقُ** }[274] والحمل على خلق الجواهر أو الخلق بلا آلة ومباشرة الأسباب خلاف الظاهر وقوله: {**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا** }[275]

---

[273] الأنعام:102

[274] النحل:17

[275] الشمس:7،8

## فصل في خلق افعال الإنسان

وقوله: { **وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ** }[276] ، أي معمولكم على أنّ ما موصولة وهو لكونه عاماً وضعاً وإن حوجت إلى القول بحذف العائد أولى من جعلها مصدرية لأنه يقتضي أن يجعل المصدر بمعنى المفعول ليصح تعلق الخلق به ثم تحمل الإضافة بمعونة مقام التمدح على الاستغراق لئلا يحمل على بعض المعمولات كالسرير بالنسبة إلى النجار فإنه معموله باعتبار أنه تعلق به الأفعال والحركات الصادرة عنه ولا خلاف في أنه يخلق الله فلا يتم المقصود فالخلاف فيما يقع بكسب العبد ويسند إلى الله من الأعراض مثل الصوم والصلاة والأكل والشرب والقيام والقعود ونحو ذلك. ومما يتمسك في ذلك أن العبد لو كان خالقاً لأفعاله لكان عالماً بتفاصيلها؛ لأن الإيجاد بالقدرة والاختيار لا يكون إلا كذلك وليس كالكسب(ب/ 30) الذي يكفيه القصد والعلم الإجمالي مع أن الشيء من موضع إلى آخر مثلاً قد يقع فيه سكونات واختلاف حركات وأخذٌ وبطش وتحريك عضلات وتمديد أعصاب إلى غير ذلك ولا شعور للماشي بشيء من ذلك أصلاً وليس ذلك ذهولاً عن العلم بل لو سئل عنها ولو حال المباشرة لم يعلم فالكل بإرادته تعالى ومشيئته. وحكمه التكويني فإن خطاب التكوين لم يتوقف على الفهم ويشتمل على الوجود الذي هو أعظم الفوائد فيتعلق بالمعدوم وقضائه، أي فعله مع زيادة أحكامه فإنه لغة إتمام الشيء قولاً أو فعلاً يعبر عنه بواحد من الحكم والأمر والإعلام والتبيين بحسب مناسبة المقام فهو من الصفات الفعلية.

وفي اصطلاح الأشاعرة: هو إرادته الأزلية المتعلقة بالأشياء على ما هي عليه فيما لا يزال لكن ذكر الإرادة يمنع التفسير به هنا.

وعند الفلاسفة: علمه بما ينبغي أن يكون الموجود عليه حتى يكون على أحسن النظام وأكمل القوام وهو المسمى عندهم بالعناية الأزلية التي هي مبدأ لفيضان الموجودات من حيث جملتها على أحسن الوجوه وأكملها وإليه يرجع قول بعض أنه عبارة عن وجود جميع المخلوقات في اللوح المحفوظ والكتاب المبين مجتمعة ومجملة على سبيل الإبداع وما يتوهم في أنه يلزم الرضاء بالكفر لوجوب الرضاء بالقضاء مدفوع بأنّ القضاء غير المقضي واستلزام رضائه رضاء المتعلق إنما هو من حيث أنه متعلق لا من حيث ذاته ولا من حيث سائر الجهات والرضاء بالكفر من حيث هو مقضي ليس بكفر ولذا يحمل قول بعضهم: ' ( على كل حال سوى الكفر والضلال على أنه أخذه من هو فعل العبد . وأما إذا أخذ من حيث أنه مخلوق الله تعالى فيحمد عليه فإنه لا يفعل شيئاً خارجاً عن الحكمة والمصلحة، ولو بالنسبة إلى جميع العالم ولا مانع من توارد أمرين متضادين على شيء واحد إذا كان باعتبارين كما أنه يجب بعض الفاسق من حيث أنه فاسق ومحبته من حيث أنه مؤمن وبتقديره الذي هو تحديد كل مخلوق بحده

---

[276] الصافات:96

الذي يوجده من حسن وقبح ونفع وضر وما يحويه من زمان ومكان وما يترتب عليه من ثواب وعقاب كل شيء بقضاء وقدر . والمراد تعميم إرادته تعالى وقدرته لجميع المخلوقات والمحدثات وكان متفقاً عليه حتى من محققي الحكماء قبل ظهور البدع والأهواء.

والمخالف في كل ذلك الآن المعتزلة فإنهم زعموا أن العبد خالق لأفعاله وأنّ المؤثر فيها قدرته بلا إيجاب واضطرابٍ وقد كان أوائلهم يتحاشون عن إطلاق لفظ الخالق عليه ويكتفون بلفظ الموجد والمخترع وللحدث والفاعل ونحوها. وحين رأى متأخروهم: أن معنى الكل واحد وهو المخرج من العدم إلى الوجود تجاسروا على إطلاق لفظ الخالق عليه لكن لا مع اختلاج إثبات نحو وجوب الوجود أو استحقاق(أ/ 31) العبادة حتى يكون شركاً منهم بل لا يجعلون خالقية العبد كخالقية الله لافتقاره إلى الأسباب والآلات التي هي تخلق الله وقد تمسكوا في ذلك بنحو: **{كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ }**[277] ، **{ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ }**[278] **{فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ }**[279] ، **{مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا }**[280] إلى غير ذلك مما فيه وعد ووعيد وإضافة الفعل إلى العبد ونحو: **{ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ }**[281] **{ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي}**[282] ، وأنه لو كان الكل بخلق الله لبطل[283]كون المكلف به اختيارياً التي هي قاعدة التكليف والمدح والذم والثواب والعقاب.

والجواب: أن النسبة إلى العبد والوعد والوعيد باعتبار الكسب والخلق هنا بمعنى التقدير والبطلان إنما يتوجه على الجبرية [284]القائلين بأن المؤثر في فعل العبد هي قدرة الله تعالى بلا قدرة واختيار له أصلاً تمسكاً بنحو: **{ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ }**[285] وأما نحن فنقول بضرورة بطلان ذلك لأنا نفرق بالضرورة بين حركة البطش والارتعاش ونعلم أن الأولى بالاختيار دون الثانية فتبت أن للعباد أفعالاً اختيارية يثابون عليها إن كانت طاعة ويعاقبون عليها إن كانت معصية حيث خلق فيهم قدرة واستطاعة تصلح للكسب لا للإيجاد فالأفعال منسوبة إليه تعالى من جهة الخلق والإيجاد وإليهم من جهة الكسب وصرف القدرة والإرادة فليست كحركات الجماد ولا حجر في دخول المقدور الواحد تحت قدرتين بجهتين مختلفتين ولا شركة في ذلك وهذا القدر من المعنى ضروري وإن لم نقدر على أزيد من ذلك فالمنفي عنهم في الآية الاختيار الذي بمعنى القدرة الإيجادية

---

[277] المدثر:38

[278] الجن:23

[279] الكهف:29

[280] فصلت:46

[281] المؤمنون:14

[282] المائدة:110

[283] ب:لبطل قاعدة التكليف

[284] الجبرية من الجبر وهو إسناد الفعل إلى الله ، والدبرية إما متوسطة تثبت للعبد كسبا فى الفعل كالأشعرية وإما خالصة لا تثبت له قدرة على الفعل أصلا كالجهمية .فلينظر :التعريفات للجرجانى، 67؛ وكشاف اصطلاحات الفنون للتهاونى، 200/1

[285] القصص:68

والأرادة وما ثبت لهم هو الاختيار بمعنى قصد الفعل والميل والقدرة الكسبية وكون ذلك الاختيار بإيجاد الله لا يوجب الجبر المطلق بل جبراً متوسطاً وهو غير قادح فهو من قبل ما تقرر أنه تعالى موجب بالنسبة إلى الإرادة وغيرها من الصفات وإن كان مختاراً بالنسبة إلى الأفعال الصادرة يتوسطها . وما يقال من أن القدرة ما لم تؤثر فتسميتها قدرة مجرد اصطلاح (ب/31) مدفوع بأنّ القدرة لا تستلزم التأثير بل ما هو أعم منه ومن الكسب وفي الفرق بين الخلق والكسب عبارات مثل: أن الكسب ما وقع بآلة وفي محلّ القدرة ولا يصح انفراد القادر به والخلق بخلاف[286] ذلك في الكل وما يتوهم من أن الجبر بعد تعميم علم الله وإرادته وقضائه لازم البتة فمدفوع أيضاً بأنه يعلم ويريد ويقضي أن العبد يفعل الفعل الفلانيّ أو يتركه باختياره فلا إشكال وبعبارة أخرى أنه تعالى يعلم في الأزل ما يكسب العبد باختياره [287] فيريده ويقضي به على وفق ما علم به فهو متقدم حتى على العلم لبداهة تقدم المتعلَّق على المتعلِّق إلا أن أفعاله الحسنة بأمر الله الذي تقدم ورضائه ومحبته، أي الإرادة مع ترك الاعتراض ونفس ذلك الترك دون القبيحة المذمومة { **وَلاَ يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ** }[288] مع وقوعه من بعضهم بمشيئته لقوله تعالى: {**وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ**}[289]. نظم:

**مريد الخير والشر القبيح ولكن ليس يرضى بالمحال[290]**

ولا قبح في إرادة القبيح وخلقه وإنما القبح في كسبه وأمره ومحبته ورضائه وقد عرفت أنها غير الإرادة أو أخص منها وذهب المعتزلة إلى أنها متحدة مع الإرادة سيما مع ملاحظة أن صفاته تعالى كلها كاملة تعمل كل فعل أخواتها فأنكروا إرادته للشرور والقبائح حتى أنه أراد من الكافر والفاسق الإيمان والطاعة لا الكفر والمعصية فعندهم أكثر وقوع أفعال العباد على خلاف إرادته وهو شنيع جداً فمن أقبح المحال وأخبث الداء أن يجري في ملكه ما لا يشاء ولا قبح في نسبة فعل العباد إليه تعالى؛ لأنّ الشيء إنما هو قبيح بالنسبة لفعلنا لا لفعله تعالى؛ لأنه يتصرف في ملكه بما يشاء و{ **لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ** }[291]ولذا يقال لهم: القدرية على العكس في النسبة حيث نفوا القدر وقد حملوا نحو: و{ **لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا** }[292] {**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآَمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا**}[293] {**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً** (أ/32) **وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ**}[294] على مشيئة الإلجاء والقسر وهو خلاف الظاهر.

---

[286] ب:لا بأنه ولا فى محل القدرة ويصح إنفراد القادر به

[287] ب: فيما لا يزال

[288] الزمر:7

[289] الأنعام:137

[290] شرح بدأالأمالي لعلي ابن سلطان محمد القارى،ص:4،46

[291] الأنبياء23

[292] الرعد:31

[293] يونس:99

[294] هود:188

بل المراد أنه لم يرد إيمان الجميع ومن شاء إيمانه يؤمن البتة لوجوب وقوع ما أراده ولصعوبة هذا المقام ذهب كل من الفرق الثلاث إلى ما عرفت له والفلاسفة فيما يظهر من كلامهم إلى أنه بقدرة العبد مع الإيجاب وامتناع التخلف وهو المرويّ عن إمام الحرمين والأستاذ أبو إسحاق إلى أنها بمجموع القدرتين على أن يؤثرا في أصل الفعل . وكذا القاضي لكن على تأثير قدرته تعالى بأصل الفعل وقدرة العبد في جعله موصوفاً بنحو كونه طاعة أو معصية.

وذهب كثير من أهل التصوف وغيرهم إلى أن وضع التكاليف وشرع الثواب أو العقاب إنما هو لمجرّد رفع الأنانية عن العبد ولا دليل للمعتزلة وغيرهم في { **إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ** }[295] ؛ لأن القراءة المتواترة نصب كل حتى عندهم وهي نص في خلق الله الأفعال وقراءته الرفع شاذة محتملة فلا نص فيها ولا في { **بِيَدِكَ الْخَيْرُ** }[296] و{**مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ** }[297]. كما أطالوا في الاستدلال به؛ لأنه وارد على وجه أنه قد لا ينسب الشر إلى الله عند الانفراد رعاية للأدب والنظر إلى ما في كسبه من ارتكاب الجناية على النفس واستحقاق الانتقام . ومن هذا القبيل قول إبراهيم عليه السلام: { **وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ** }[298] مع أنه هو الخالق للمرض والشفاء وينسب إليه في الجملة كما قال: { **قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ** }[299] مع أن الحسنة والسيئة هنا بمعنى النقمة والنعمة والطاعة والمعصية فلا حجة لنا ولهم فيهما وإليه إشار من قال أو المعنى: وما أصاب الإنسان من بليّة فمن نفسه، أي بذنوبه. كما قال: { **وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ**}[300].وللنظر إلى ما للإنسان من التسبب في المرض قال إبراهيم عليه السلام: {**وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ** }[301]، وما في القرآن من نحو الختم على القلب والسمع والطمع والكنان والرين على القلب والوقر في الأذن والغشاوة على البصر كلها تحقق مذهب أهل السنة سواء كانت كناية عن خلق الكفر أو عن الداعية التي إذا انضمت إلى القدرة وقع وإن حاولت المعتزلة تأويلها على وفق تشهيهم وعقولهم القاصرة من الحمل على الاستعارة المفردة على تشبيه إعراضهم عن نحو الحق وتمكن ذلك في قلوبهم بالوصف الخلقي والتمثيلية على تشبيه حال قلوبهم بقلوب البهائم وما يوجد من الألم في الضرب عقب ضرب إنسان والانكسار في الزجاج عقب الكسر والموت عقب القتل وغير ذلك حتى نحو حصول العلم بالنتيجة عقب النظر في الدليل كله مخلوق لله تعالى ولو شاء خلقه بدون فعل كأعمى الصين يرى بقة أندلس؛ لأنه الخالق على الإطلاق كل الكائنات مستندة إليه، فكما لا صنع للعبد فيه بطريق المباشرة لا صنع له فيه بطريق التوليد خلافاً للمعتزلة.

---

[295] القمر:49

[296] آل عمران:26

[297] النساء:79

[298] الشعراء:80

[299] النساء:78

[300] الشورى:30

[301] الشعراء:80

## مبحث الاجل

والمقتول ميت بأجله ووقته الذي قدر الله موته وبطلان حياته فيه بحيث لا محيص عنه لا تقدم وتأخر على ما يشير إليه {**فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ**}[302] ولو لم يقتل[303] لأمكن أن يموت في ذلك الوقت وأن لا يموت من غير قطع بالموت بدل القتل كما قال الهذيلي. ولا بامتداد العمر على أنّ الله قطع عليه الأجل كما ذهب إليه جمهور المعتزلة متمسكين بالأحاديث الواردة في أن بعض الطاعات(ب/ 32) يزيد في العمر وبأنه لو كان ميتاً بأجله لما استحق القاتل ذماً ولا عقاباً ولا قصاصاً ولا دية.

والجواب: أن وجوب العقاب والضمان على القاتل تعبديّ أو لارتكابه المنهي وكسب الفعل الذي يخلق الله عقبه الموت بطريق جري العادة وأنّ الأحاديث مؤولة بالبركة فيه والتوفيق للطاعة وصيانة أوقاته من الضياع أو بالزيادة بالنسبة إلى ما يظهر للملائكة لما قال أهل الكشف أن لله وراء القلم الأعلى واللوح المحفوظ ثلاثمائة وستين قلماً وستين لوحاً تسمى ألواح المحو والإثبات تكتب الأقلام فيها ما يحدثه الله تعالى في العالم من الأحكام المشار إليها بقوله: {**يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ** }،[304] أي اللوح المحفوظ فالمكتوب فيه هو القضاء المبرم الذي لا يتبدل ولا يغير. ولذا يسمى بالمحفوظ. ومنهم من قال: أن أمّ الكتاب وأصله العلم القديم الأزلي الذي فيه الكتاب المحفوظ وما في الكتاب وما يمحو منه وما يثبت فيه فجوزوا المحو والإثبات في اللوح المحفوظ كما في صحف الملائكة وهو المنقول عن ابن عباس وغيره وقيل: المراد بالزيادة الذكر الجميل فكأنه لم يمت.

وقيل: الأحاديث أخبار آحاد فلا تعارض الآيات القطعية وقيل: معناها: أن الله كان يعلم أنه لو لم يفعل هذه الطاعة لكان عمره أربعين مثلاً لكنه علم أنه يفعلها فقدره سبعين بحيث لا يتصور التقدم والتأخر عنه فلكون طاعته بمقتضى علمه تعالى سبب الثلاثين نسبت إليها وليس المراد أنه قدر عمره أربعين على تقدير وسبعين على آخر حتى يلزم تبدل الأجل إذ الأجل واحد لا غير لا كما زعم الكعبي: أن للمقتول أجلين: القتل والموت وأنه لو لم يقتل لعاش إلى أجله الذي هو الموت، ولا كما زعمت الفلاسفة أن للحيوان أجلاً طبيعياً هو وقت موته بتحلل وانطفاء حرارته الغريزيتين في نحو مائة وعشرين سنة غالباً وآجالاً أخر احترامية بحسب الآفات والأمراض . والموت قائم بالميت مخلوق لله لا صنع للعبد فيه اكتساباً ولا تخليقاً، أي أنه معنى وجوديّ يخلقه الله في الجسد مضاد للحياة يقترن بحدوثه قبول الانحلال والانتقال من دار إلى دار كما هو المختار بدليل قوله تعالى: { **خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَوةَ**}[305] وقيل: أنه عدميّ وهو عدم الحياة المعبر عنه بمفارقة الروح البدن والخلق في الآية بمعنى التقدير.

---

[302] الأعراف:34

[303] ب:إذ عاى تقدير عدم القتل لا قطع بوجود الأجل وعدمه فلا قطع للموت والحيوة

[304] الرعد:39

[305] الملك:2

## كيفية الروح و القلب

وأما الروح والنفس فهو جسم لطيف سار في البدن سريان الماء في الورد وفي العود الأخضر والنار في الجمر كما هو رأي المتكلمين دليلهم على ذلك وصفها في الأخبار بالهبوط والعروج والتردد في البرزخ. وعند جمع منهم أنها عرضٌ، وهو الحياة التي صار البدن بوجودها حياً.

وعند الفلاسفة جوهر مجرد غير متحيز متعشق للبدن متعلق به تعلق التصرف والتدبير وليس داخلاً فيه ولا خارجاً عنه وهي المعبر عنها بالنفس والعقل ويقال له: اللب قوة لها به تستعد للعلوم والإدراكات وهي المعنى بقولهم غريزة يتبعها العلم بالضروريات عند سلامة الأسباب وبقول القاموس والحق أي من اختلاف في تعريفه أنه نور روحاني به تدرك النفوس العلوم الضرورية والنظرية وابتداء(أ/33) وجوده عند اجتنان الولد ثم لا يزل ينمو إلى أن يكمل عند البلوغ ومأواه القلب ولذا يعبر به عنه وإنما قد يذهب بالضرب على الرأس لعروق له فيه. وقد يعبر بكل منه والنفس أيضاً عن الآخر والمفهوم من كلامهم أن النفس غير الروح حيث قالوا: الحياة قوة تتبع الاعتدال النوعي ويفيض عنها سائر القوى الحيوانية، وهي مشروطة باعتدال المزاج وبالروح التي هي جسم لطيف متولد من بحار الأخلاط سارية في عروق تنبت من القلب وهي التي تسمى الشرائين لدى بعض ويبحث عنها الأطباء والنفس تتعلق أولاً بالروح فتفيض من النفس على الروح قوة تسري بسريان الروح إلى أجزاء البدن وأعماقه فتثير على كل عضو قوًى تليق به فيقوى نفعه وتلك القوى بأسرها تنقسم إلى محركة ومدركة ظاهرة هي المشاعر الظاهرة وباطنة هي الحواس الباطنة كل ذلك بارادة العليم الحكيم وقد تكلموا على الروح بنحو ألف قول منها ما ذكر هنا؛ ومنها أنها الدم خاصة؛ ومنها أنها الأنفاس الداخلة والخارجة بدليل موت الشخص لدى انقطاعها ؛ ومنها أنها الأخلاط ومنها أنها عبارة عن شكل البدن إلى غير ذلك . وإنما أمر النبي عليه السلام بالمسك عنها بقوله تعالى: {**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي** }[306] نظراً إلى أنه لا فائدة في بيانها لهم وحملاً على التأدب. ولذا قيل: الأدب أن نمسك نحن أيضاً عنها ونكتفي بالتعبير عنها بموجود وإلا فليست من الأشياء التي استأثرها بعلمه كما قيل ولا أصعب من معرفته تعالى وقد تكلم عليها أوساط العقلاء من الفلاسفة والمتكلمين فكيف بمن هو أفضل الفضلاء وأعلم العلماء للخصوص بعلم الأوّلين والآخرين.

وأما القلب فهو مضغة في الفؤاد معلقة بالنياط وبعبارة أخرى هو حبّة الفؤاد وسويداه فهو أخصّ من الفؤاد الذي محله الصدر خلافاً لمن قال بترادفهما ويؤيد الفرق قوله عليه السلام: «**ألين قلوباً وأرق أفئدة**»[307]

وفرق الزمخشري بأن الفؤاد وسط القلب سمى به لتفؤده، أي توقده والقلب مشتق من التقلب الذي هو المصدر لفرط تقلبه كما في الحديث **ومثله كمثل ريشة ملقاة في فلاة تقلبها الريح في فلاة بطناً**[308]لظهر فنعم ما قيل:

---

[306] الإسراء:85

[307] بخارى، مغازى 74

[308] ابن ماجه، مقدمة، 10؛ابن حنبل مسند، 408/4

**وما سمي الإنسان إلا لنسيه وما القلب إلا أنه يتقلب**[309]

## مسئلة الرزق

**والحرام رزق**؛ لأن الرزق اسم لما يسوقه الله إلى الحيوان فيأكله وذلك قد يكون حلالاً وقد يكون حراماً ويشهد لذلك الآيات والأحاديث منها حديث ابن ماجه : **لقد رزقك الله حلالاً طيباً فاخترت مما حرم الله عليك من رزقه مكان ما أحلّ الله لك من حلاله**[310]

وعند المعتزلة: ليس برزق لأنهم فسّروه تارة بمملوك يأكله المالك وتارة بما لا يمنع من الانتفاع به، أي شرعاً وذلك لا يكون إلا حلالاً ويلزم عليهما أن لا يكون من أكل جميع عمره الحرام مرزوقاً وعلى الأول أن لا يكون ما تأكله الدواب والأطفال رزقاً فينافي {**وَمَا مِنْ دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا**}[311] وكلٌّ يستوفي رزقه الذي قدر أن يأكله سيما الذي به قوام البنية المحمول عليه نحو (ب/ 33) {**وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ**}[312] الآية فلا يتصور أن لا يأكل الإنسان رزقه أو يأكله غيره بل في حديث: «**ما من لقمة إلى عليها أنها يأكلها فلان بن فلان**»[313] لكن قد جاء بمعنى مطلق الملك كما في {**وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ**}[314] وظاهر {**وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ**}[315] ثم رزقكم فلا يمتنع أكل الغير منه وقد يفسر في هاتين الآيتين بما يعمّ النعم الظاهرة والباطنة كالجاه والعلم ويؤيده حديث: **إن علماً لا يقال ككنز لا ينفق منه**[316]

وأما في { **وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ** }[317] فهو بالمعنى اللغوي. أي الحظ والنصيب والاستطاعة حقيقة القدرة التي يكونها الفعل، أي الصفة التي يخلقها الله تعالى عند قصد اكتساب الفعل بعد سلامة الأسباب والآلات سواء قلنا: أنها شرط عاديّ له كيبس الملاقي للنار كما هو رأي الجمهور أو علّة عادية كالنار للإحراق على رأي صاحب التبصرة[318] فإن قصد العبد فعل الخير خلق الله قدرته وإن قصد فعل الشر خلق قدرته فيستحق العقاب والذم على تضييعها بترك الواجبات وعدم إتيانها كما يستحقهما على كسب القبيح وصرفها فيه فلا تصلح للمتعلق بالضدين بل بأحدهما وهو ما قصد العبد فظهر أنها عرض مقارن للفعل بالزمان لا سابقة عليه كما ادّعت

---

[309] من ديوان بشار بن برد

[310] ابن ماجه، حدود 38

[311] هود:6

[312] الذاريات:22

[313] لم اجده في كتب الصحاح

[314] البقرة:3

[315] النحل:70

[316] لم اجده في كتب الصحاح

[317] الواقعة:82

[318] صاحبه:أبي المعين ميمون بن محمد النسفي المتوفى سنة 1114/508،فيه أعظم من الدلائل فى المسائل الاعتقادية له نسخ مخطوطة فى المكاتب المختلفة، طبع بتحقيق حسين آتاى بأنقرة سنة 1993، وبتحقيق كلود سلامة فى دمشق سنة 1993،1990

المعتزلة وإلا لزم وقوع الفعل بدونها لامتناع بقاء الأعراض والقول بتجدد الأمثال اعتراف بالمقارنة لكنهم لا يوجبون السابقية البتة ويمنعون المقارنة رأساً حتى يمتنع حدوث الفعل في زمان حدوث القدرة مقرونة بجميع الشرائط بل يقولون بجواز السابقية وإمكان وامتناع الفعل في الحالة الأولى لمانع أو انتفاء شرط ووجوبه في الثانية لتمام الشرائط مع أن القدرة التي هي صفة القادر في الحالتين على السواء.

## مسئلة الاستطاعة و التكليف

ولذا حاكم الإمام الرازي ودفع المنازعة بين الفريقين بأنه إن أريد بها القدرة المستجمعة لجميع شرائط التأثير العاديّ فالحق أنها مع الفعل وإن أريد بها القدرة التي هي مبدأ الأفعال المختلفة التي نسبتها إلى الضدين سواء، أي سلامة الأسباب والآلات كما في { **وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً** }[319] ، فهي قبل الفعل. وأما امتناع بقاء الأعراض فمبني على مقدمات صعبة البيان كما سبقت الإشارة إليه لكن على أصلهم الشنيع من أن العبد خالق لفعله فقدرته كقدرة الله فتوجد قبل الفعل وتصلح المتعلق بالضدين

ولا شك أن صحة التكليف تعتمد على هذه الاستطاعة فلا يلزم الأشعري من كون الكافر مكلفاً بالإيمان والفروع والتارك للصلاة بالصلاة بعد دخول الوقت تكليف العاجز والعجز صفة وجودية تقابل القدرة تقابل الضدين

وقيل: هو عدم القدرة عما من شأنه القدرة فالتقابل تقابل العدم والملكة كما أن الأمر كذلك على القول بأن العبد خالق لفعله ولا يكلف العبد بما ليس في وسعه اتفاقاً سواء كان ممتنعاً في نفسه أى عقلا وعادة كجمع الضدين وإعدام القديم وقلب الحقائق، أو ممكناً في نفسه ولا يمكن من العبد عادة كخلق الأجسام وحمل الجبل والطيران إلى السماء ومشي الزمن لقوله تعالى: { **لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا** }البقرة:286، ، والأمر في {**أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ**} البقرة: 231 للتعجيز دون التكليف(أ/ 34) والمراد بالتحميل في { **وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ**} [320]إيصال ما لا يطاق من العوارض إليهم لا التكليف. وأما ما يمتنع بناء على أنه تعالى علم وأراد خلافه كإيمان الكافر وطاعة الفاجر فلا نزاع في وقوع التكليف به كما لا نزاع في عدم جوازه بالقسم الأول كما قيل، وإنما النزاع في جواز وقوعه بالثاني فمنعه المعتزلة بناء على القبح العقليّ. وجوزه الأشعري لأنه لا يقبح من الله شيء مع أنه يجوز أن يخلق في العبد قدرة على ذلك الفعل على خلاف العادة وما يقال من أنه وقع بعين القسم الأول حيث كلف أبا لهب بالإيمان وهو تصديق النبي عليه الصلاة والسلام في جميع ما علم مجيئه به، ومن جملته أنه لا يؤمن فقد كلف بأن يصدقه في أن لا يصدقه وإذعان ما وجد من نفسه خلافه أو بأن يصدقه في الإخبار بأنه لا يصدقه بشيء مما جاء به وهو يستلزم عدم تصديقه في ذلك الإخبار أيضاً مدفوع بأنه مكلف بتصديق هذا الخبر الوارد منه تعالى وهو أنه لا يؤمن لا بأن يجعل هذا الخبرصدقاً حتى يكون ماموراً باستمراره على الكفر الموبق المحال أن يأمر الله به، إنه لا يأمر بالفحشاء وقول بعض: أنه كلف بأن يؤمن وبأن لا يؤمن صوابه إسقاط

---

[319] آل عمران:97

[320] البقرة:286

الواو وبأن الإيمان الإجمالي في حقّه غير مستلزم للمحال وإنما المحال هو التفصيلي ووجوبه مشروط بالعلم التفصيلي.

فالتصديق بأنه لا يؤمن المستلزم للمحال إنما يكلف به إذا علمه ووصل إليه بخصوصه وهو ممنوع لاحتمال أن الأمر قبل إعلامه أنه لا يؤمن وعلم الله وأخباره للرسول لا ينافي ذلك فهو كقوله تعالى لنوح عليه السلام: { **لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ** }[321] لكن لا يخفى أن هذا إنما يدفع الشبهة عن الوقوع لا عن الجواز لأن وصول ذلك الإخبار إليه ممكن والمعلق بالممكن ممكن.

وقد صرح البيضاوي في منهاجه كغيره من الأصوليين أن الخلاف في جواز هذا القسم.

## مسئلة وجوب شيء(الأصلح، الوعد ، والوعيد) أو عدم وجوبه علي الله

ولا يجب عليه تعالى شيء لا بموجب إذ لا موجب غيره تعالى ولا بإيجابه على نفسه؛ لأنه غير معقول مع أنه خالق الخلق فكيف يجب لهم عليه شيء سواء أخذ الواجب بمعنى ما قدر على نفسه أن يفعله ولا يتركه وإن كان تركه جائزاً على ما قاله بعض الصوفية والمتكلمين لما يشعر به الآيات والأخبار من نحو: { **كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ**}[322] و{ **حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ** }[323] {**إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ** }[324]، وحديث: «**يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي**[325]» فإن إطلاق الوجوب عليه مجرد اصطلاح كما يشعر به أخذ جواز الترك في تعريفه أو بمعنى ما يستحق تاركه الذم كما قاله بعض المعتزلة؛ لأنه المالك على الإطلاق كيف يتوجه إليه ذم من تصرفه في ملكه بل هو المحمود في كل فعاله أو عبارة عما تركه مخلّ بالحكمة كما قاله بعض آخر؛ لأنا نعلم إجمالاً أن جميع أفعاله وإن لا تخلّ عن حكم ومصالح إلا أنه لا يجب التزام رعاية ذلك {**لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ** }[326]

والمعتزلة أوجبوا عليه اللطف الذي هو عبارة عن خلق قدرة العبد على الطاعة وبعبارة أخرى ما يقع عنده صلاح العبد آخرةً في آخر عمره (ب/34) وبأخرى عبارة عما يقرب العبد إلى الطاعة ويبعده عن المعصية بحيث لا يؤدي إلى الإلجاء كبعثة الأنبياء مستدلين بأن تركه نقص غرض التكليف؛ لأن المكلف إذا علم أن المكلَّف لا يطيع إلا باللطف. فلو كلف بدونه يكون ناقضاً وهو فرع على مذهبهم الباطل من كون أفعاله معلّلة بالأغراض ومخالف لما حقق أهل السنة أن لله تعالى لطفاً لو فعله بالكفار لآمنوا اختياراً وبالعصاة لاجتنبوا استبصاراً غير أنه لم يفعله وهو في فعله متفضل وفي تركه عادل على أنه إنما يتماشى فيما تتوقف عليه الطاعة وترك المعصية والتعريف أعمّ من ذلك وأوجب عليه معتزلة بغداد الأصلح في الدين والدنيا حكمة وتدبيراً ومعتزلة البصرة الأصلح في الدين فقط

---

[321] هود:36

[322] الأنعام:12

[323] غافر:6،يونس،33

[324] الغاشية:26

[325] صحيح مسلم، 4/ 1994؛ بدائع الفوائد390/3

[326] الأنبياء:23

بمعنى الأنفع فيه بجانب علم الله أو بغيره ويرد عليهما أن الأصلح بحال الكافر الفقير المبتلى بالآلام والأسقام أن لا يخلق أو يموت طفلاً أو يسلب عنه عقله بعد بلوغه فلم أبقاه حتى فعل ما يوجب خلوده في النار وأن يكون إبقاء إبليس طول الزمان وإقداره على إضلال العباد أصلح له مع أنه يوجب مزيد عذابه وأنه لا منّة له على العباد واستحقاق شكر في الهداية وإفاضة أنواع الخيرات لكونها أداء الواجب ولا يخفى أن مرادهم الأصلح بالنسبة إلى الشخص لا بالنسبة إلى الكل من حيث الكلّ كما ذهب إليه الفلاسفة في نظام العالم فلا يمكن لهم أن يقولوا أن في خلق الكافر المذكور وإبقاء إبليس مصلحة بالنسبة إلى نظام الكلّ. ولهذا واعتبار الأنفع في جانب علم الله بهت الجبائي في سؤال الأخ الثاني، أي الميت عاصياً من الثلاثة التي سأله عنهم الأشعري كما هو المشهور . ومن اعتبر الأنفع في نفس الأمر وزعم أن من علم الله منه الكفر على تقدير التكليف يجب تعريضه على الثواب لزم أن يقول بترك الواجب في الأخّ الذي مات صغيراً.

ومنهم من قال: مراد معتزلة بغداد بالأصلح الأوفق في الحكمة والتدبير سواء كان فيه نفع العبد في أحد الدارين أو كليهما أو لم يكن فلا يرد عليهم شيء من الأسئلة أصلاً وأوجب عليه المعتزلة والخوارج الإثابة على الطاعة والعقاب على المعصية فحرموا عفوه صاحب الكبيرة إذا لم يتب . واستدلوا بأنه أوعده العقاب فلو لم يعاقب لزم الخلف في وعيده والكذب في خبره، وهما محالان.

والجواب: أن الوعد والوعيد مشروطان بقيود وشروط معلومة من النصوص كالإصرار وعدم التوبة وعدم الشفاعة وعدم العفو تفضلاً كقوله تعالى: { **وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ** }[327] { **اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا**}[328] {**وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ** }[329] ، { **وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ** }[330]؛ وقوله عليه الصلاة والسلام: «**التائب من الذنب كمن لا ذنب له** [331]» إلى غير ذلك. ولعلّ من جوّز الخلف في الوعيد كالأشاعرة على ما قيل تمسكاً ببعض الأحاديث وبأنه كرم محض وتفضل لا يعدّ خلفاً عند الكرماء قال:

**وإني وإن أوعدتهم أو وعدتهم لمخلف إيعادي ومنجز موعدي[332]**

وأنه حق على العباد لا حقهم كالوعد إن شاء أخذ وإن شاء عفا وهو أحق بالعفو فقد أراد أنه يعدّ خلفاً بحسب الظاهر والنظر الجليل. وأما عند دقة النظر وحقيقة الأمر فلا خلف فيه بناء على التقييد بالشرائط والسر في عدم عدّ العرب خلف الوعيد فيما بينهم مذموماً هو أن من دأب الكريم إذا أوعد بشيء أن يعلّقه(أ/ 35) بالمشيئة وإن لم يظهرها. وأما الوعيد على الكفر فلا تقييد فيه إذ لا دليل على معرفته ولهذا لم يجوّز الخلف فيه ولو كان

---

[327] النساء:48

[328] الزمر:53

[329] الشورى:30

[330] الرعد:6

[331] ابن ماجه، زهد 30.

[332] وهو لأخفش أنشد لعامر بن الطفيل لسان العرب. 14/1، 223/63.

مستلزماً للكرم وبهذا يظهر التحقيق بين { **يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ** }[333] وبين { **مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ** }[334] الذي تمسك به الأكثرون في عدم جواز الخلف في شيء من الوعد والوعيد فالتحقيق أنه إن أثاب فبمجرد فضله من غير وجوب عليه ولا استحقاق من العبد كيف لا وما يصدر عنه شيء من الطاعات إلا بخلقه تعالى وعون منه مع أنه لو اجتمع كلها لا تفي بشكر أقل قليل من نعمه فكيف يستحق العوض لولا فضل [335] الكريم، وإن عاقب فبعداه؛ لأنه لا حق لأحد عليه والكلّ ملكه يتصرف فيه كيف يشاء فله أن يعذب نحو الأطفال والبهائم من دون ذنب ومجازاة كما قد يعفو العاصي مع قبح دأب ولا قبح منه ولا ينسب فيما يفعل ويحكم إلى وجود وظلم؛ لأنه مالك الأمور على الإطلاق يفعل ما يشاء فلا ظلم في التعذيب والإيلام المذكورين لو فرض وقوعهما لكن لا يقع منه ذلك لإخباره بإثابة المطيع وتعذيب العاصي ولم يرد إيلام الأطفال والبهائم في غير قود والأصل عدمه؛ فهو أحكم الحاكمين لا يضع شيئاً إلا في موضعه الأصلح المتين يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد فطاعة العبد لمجرد طلب الثواب ودرىء العقاب غير مقبولة ولا صحيحة ما لم يكن معها قصد امتثال العبودية وأعلاها ما كانت لخصوص الامتثال والقيام بحقّ الربوبية.

## الهداية والضلالة

{**يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ** }[336] بمعنى بيده خلق الضلالة والاهتداء بأقسامهما وأنواعهما. وأعلى طبقات الاهتداء الإيمان وأقبح طبقات الضلال الكفر قال: { **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً** }[337] ، ولكن {**يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ** }[338]، {مَنْ **يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** }[339] أي يخلق ما شاء منهما فيمن يشاء كما عليه مشائخنا فالصحيح أن نسبتها في بعض المرات إلى النبي والقرآن مجاز في الإسناد كنسبة الإضلال إلى الشيطان والأصنام ونحو: هداه فلم يهتد {**وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى**}[340] مجاز عن الدلالة وتحمل الآية على الارتداد [341] بعد خلقها إذ لا دلالة في أوّلها وآخرها على نفي الحصول ونحو: {**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ** }[342] ، محمول على طلب التثبت والدوام وليس الإضلال بمعنى وجدان العبد ضالاً أو تسميته ضالاً؛ لأنه لا معنى لتعلّقه بمشيئته تعالى وفيه فوات مقابلته للهداية ولا الهداية بمعنى

---

[333] الرعد:39

[334] ق:29

[335] ب:فضله

[336] النحل:93،فاطر:8

[337] المائدة:48

[338] النحل:93،فاطر:8

[339] الأنعام:39

[340] فصلت:17

[341] ب:تحتمل الآية الإرتداد

[342] الفاتحة:6

بيان طريق الصواب كما ادّعته المعتزلة؛ لأنه عام للكل لا يختص بمن يشاء ويرده نحو : **اللّهمّ اهد قومي** ،[343] و{**إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ**}[344] لأنه بيّن الطريق ولا يخفى أنّ مآل ما ذكر أن الهداية عندنا شرعاً غالباً الدلالة الموصلة وعندهم الدلالة على ما يوصل سواء حصل الوصول والاهتداء أو لم يحصل فلعلّ ما اشتهر من أنّ الأمر بالعكس مبني على اللغة والعرف لا الشرعي ويشهد له أنّ الدلالة الموصلة هي خلق الاهتداء بعينه وهم لا يقولون به لكن يحدثه؟ أن صاحب الكشاف مع توغله في الاعتزال اختار هذا في تفسير {**هُدَىً لِلْمُتَّقِينَ**}[345] فيظهر أنه الشرعي عندهم إلا أن يقال أنه جرى على غير الغالب ففسر باللغويّ وقيل: هي مشتركة بينهما وقيل: إن تعدّت إلى المفعول الثاني بنفسها كما في { **اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ** }[346] فهي بالمعنى الأول أو بإلى واللام فهي بالمعنى الثاني فالمقدر في { **إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ** }[347] الحق بدون الجارّ وفي { **وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى** }[348] ، إلى الحق (ب/ 35) ولا تعلل أفعاله بعلّة وغرض؛ لأن الغرض هو الأمر الباعث للفاعل وبه يصير الفاعل فاعلاً وهو تعالى منزه من أن ينفعل من شيء أو يستكمل بشيء والنصوص الموهمة للعلل والأغراض في أفعاله مؤوّلة بالحكم والمصالح فإنها مع خلوها عن باعث أقدمه عليها لا تخلو عن حكم ومصالح ولو بالنسبة إلى نظام الكلّ لطفاً وترحماً لا وجوباً وتحتماً فلا يكون تمسكاً للمعتزلة ويبطل دعواهم العبث.

## مسئلة الحسن و القبح

وليس للعقل حكم في حسن الأشياء وقبحها وكون الفعل سبباً للثواب والعقاب وليس للفعل صفة حقيقية أو اعتبارية يحسن باعتبارها أو يقبح باعتبارها بل الحسن ما حسنه الشرع والقبيح ما قبحه الشرع ولو عكس لكان الأمر بالعكس.

وقالت المعتزلة: أن للفعل في نفسه مع قطع النظر عن الشرع حسناً أو قبحاً يقتضي مدح فاعله وثوابه أو ذمّه وعقابه لكن تلك الجهة قد تدرك بالضرورة كحسن الصدق النافع وقبح الكذب الضارّ وقد تدرك بالنظر كقبح الصدق الضارّ وحسن الكذب النافع وقد لا تدرك إلا بالشرع كحسن صوم آخر يوم من رمضان وقبح صوم أول شوال.

وقد تبين أن محلّ الخلاف كونهما بمعنى تعلق المدح والذم عاجلاً والثواب والعقاب آجلاً وقد يطلقان على صفة الكمال والنقص فيقال: العلم حسن، أي لمن اتصف به كمال وارتفاع شأن والجهل قبيح، أي لمن اتصف به نقصان وإفضاح حال وعلى ملائمة الغرض ومنافرته وقد يعبر عنهما بالمصلحة والمفسدة فيقال: الحسن ما فيه

---

[343] الجامع الصغير، 407/1.

[344] القصص:56

[345] البقرة:2

[346] الفاتحة:6

[347] القصص:56

[348] فصلت:17

مصلحة والقبيح ما فيه مفسدة وما خلا منهما لا يكون شيئاً منهما ولا نزاع في أن هذين المعنيين ثابتان للصفات في أنفسها وأن مأخذهما العقل ويختلف بالاعتبار ثم إن جمهور أوائل المعتزلة على أنّ حسن الأفعال وقبحها لذواتها لا لصفة زائدة عليها وبعضٌ أسندها إلى الصفات. وذهب بعض متأخريهم إلى أن القبح لصفة توجبه دون الحسن إذ يكفيه نفي ما يوجب القبح.

**وقال الجبائي**: هما لوجوه اعتبارية وأوصاف إضافية تختلف بحسب الاعتبار كما في لطم اليتيم للتأديب أو الظلم ويرد عليه أنه يلزم أن يكون فعل واحد حسناً تارة وقبيحاً أخرى وأنه يلزم اجتماع النقيضين في نحو قولك: لأكذبن غداً وأنه يلزم قيام العرض بالعرض؛ لأنهما معنى زائد على الفعل والأفعال الاختيارية قبل البعثة متوقف فيها حلًّا وحرمة عند الأشعري والصيرفي مباحة عند البصرية محرمة عند البغدادية وبعض الإمامية والتحقيق في كتب أصول الفقه تفصيلاً وأدلة لا يفي به المقام

## عذاب القبر وسؤاله

**ومما هي أحق حق** نطقت به النصوص وأخبر بها الصادق بحيث لا يرتاب فيها محقّ عذاب القبر للكفرة ومن أراد تعالى من عصاة المؤمنين كغير نحو من مات ليلة الجمعة أو يومها أو رمضان أو غلب عليه موجب النحاة ونعيم أهل الطاعة فيه كما يعلمه الله ويريده بخلق نوع حياة في جميع أجزاء البدن أو بعضه قدر ما يدرك ألم العذاب أو لذة النعيم وهذا لا يستلزم إعادة الروح إلى البدن بل يكفيه أدنى تعلقّ يكون لها معه ويمكن إحساسها بذلك من غير احتياج إلى البدن ولا أن يتحرك و(أ/ 36) يضطرب ويرى أثر العذاب حتى إن الغريق والحريق ومأكول السبع والمصلوب يعذب وإن لم نطلع عليه

وقد ورد أن الحيات تلدغ المقبور وإن لم نشاهد ذلك لعدم صلوح هذه العين لمشاهدته وذلك كما كان عليه السلام يرى جبرائيل وهو بين أظهر أصحابه مع ستره عنهم وأمثال ذلك من عجائب قدرته وغرائب صنعته كثيرة لا يرتاب فيها إلا سخيف عقل

ورد أنه عليه السلام كان يستعيذ دائماً من عذاب القبر ويأمر به، يقول أكثره من عدم التنزه من البول، مرّ بقبرين فقال: «**إنهما يعذبان وما يعذبان في كبير**» ، أي عندكم بلى إنه كبير، أي عند الله . **أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة وأما الآخر فكان لا يستنثر من بوله فدعا بجريدة خضراء فشقها نصفين وغرز بكل قبر واحداً** ، وقال: «**لعلّه يخفف عنهما ما داما رطبين** »[349]. وقال: «**القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران**»[350] إلى غير ذلك . وقال تعالى: { **النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ**

---

[349] بخارى، وضوء 55.

[350] ترمذى، قيامة 26.

**فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ** }[351] وقال: { **أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا** }[352] ، أي عقب ذلك من غير تراخٍ كما هو مقتضى الفاء وسؤال منكر ونكير، أعني الملكين المشهورين الموصوفين في الأحاديث لكل ميت بأيّ كيفية مات أيضاً غير نبي وملك وصبي ومجنون اتصل جنونه ببلوغه قيل وغير شهيد لأحاديث صحيحة بذلك . ولذا لا يسن تلقينهم والحق به مرابط وشهيد الآخرة فقط. وقيل: وصديق؛ لأنه أعلى مرتبة من الشهيد. قيل: وكذا من مات في نحو يوم الجمعة ومن يقرأ تبارك الملك كل ليلة قياساً على عذاب القبر ولا ينبغي أن يقال في ذلك من قبل الرأي بل يتبع فيه ما ورد وصحح. قيل: وغير الكافر المعلن لبداهة حاله ورجّح. وقيل: هو من خواص هذه الأمة لحديث مسلم: أنّ **هذه الأمة تبتلى**[353] فإن سلم فهو لزيادة درجة هذه الأمة ولخفة أهوال القيامة عليهم؛ لأن المحن إذا تفرقت هان أمرها. قال عليه الصلاة والسلام: { **يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ** }[354] ، نزلت في سؤال القبر إذا قيل: من ربك؟ وما دينك ومن نبيك؟ فيقول: الله ربي وديني الإسلام ونبيي محمد عليه الصلاة والسلام ويصورون روحانيته عليه الصلاة والسلام لكل مسؤول ويقولون ما تقول في هذا الرجل وإن كانوا ألوفاً في آن واحد فلا حجر في إتيان الكل معاً ولا التصوير لهم جميعاً ومقتضى الأحاديث أن الفاسق يجيب كالعدل لكن بشارته يحتمل أن تكون بحسب حاله والمنافق يرجع فلا يقدر على الجواب كما فصّل في أحاديث أخر.

فإن الأحاديث في ذلك كثيرة حتى كأنها متواترة المعنى وإن لم يبلغ آحادها حدّ التواتر. وفي حديث رواه **ابن مسعود**[355]: **أنه يأتي الميت قبلهما ملك آخر اسمه رومان يستكتبه عمله أنه يأتي الميت قبلهما ملك آخر اسمه رومان يستكتبه عمله** وكل ذلك بإعادة الحياة كما يدل عليه حديث: يقيمانه ويجلسانه . وقد نقل عن الشارع: أن الآدمي يتطور في الإحياء والإماتة ستة **الأولى**: يوم { **أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ** }[356] حين استخرجوا من ظهور بني آدم كالذرة فإنها كانت مركبة في أجسام خلافاً لمن أنكره وعجيب من البيضاوي وغيره: أنه وافقهم. وقد قال بعض الأئمة: إنكاره إلحاد في الدين . **والثانية**: الحياة الدنيوية المعروفة . **والثالثة**: احياء القبر عند مجيء الملكين للسؤال. **الرابع**: الأحياء الإبراهيمي (ب/36) حين نادى بعدما بنى البيت: ألا إن ربكم بنى لكم بيتاً فحجوا. الحديث. **والخامسة**: الأحياء المحمدي حين أراد تعالى إسماع أصواتهم لموسى عليه السلام فنادى: يا أمة**!** فقالوا: لبيك يا ربنا. فقال: أعطيتكم قبل أن تسألوني وغفرت لكم قبل أن تستغفروني . **السادسة**: الأحياء الأبدي في الآخرة وللملائكة حياتان: الأولى الدنيوية والموت بعدها، والثانية: الأخروية وللبهائم حياتان وموتان: الدنيوية ثم

---

[351] غافر:46

[352] نوح:25

[353] مسلم، جنة 67.

[354] إبراهيم:27

[355] اسمه عبد الله بن مسعود أبو عبد الرحمن من أكابر الصحابة علما قربا من رسول الله (ص) من السابقين الى الإسلام ولي بعد وفات النبي بيت مال الكوفة .فتوفي فى المدينة سنة 653/32 . راجع للزركلي 280/4

[356] الأعراف:172

الموت بعدها ثم الحياة للقصاص ثم عودها تراباً فلعل { **أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ** }[357] وإن سلم فيه حصر فهو باعتبار المشهور الذي يعرفه كل أحد

والأصح أن السؤال بالعربية كلسان أهل الجنة وأفتى البلقيني بأنه بالسريانية ولعلّه أخذه من حديث طويل في الصور: **فيه يخرجون منه شباباً كلهم أبناء ثلاث وثلاثين واللسان يومئذٍ سرياني سراعاً -إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ-**[358][359] ولا دليل فيه لاحتمال اختصاصه بيوم النفخ لا وقت كونهم في الصور حتى يعمّ السؤال وتمام أحوال الأموات وما يجري عليهم ومنهم فيما انتخبنا من تصنيف مولانا الجلال السيوطي في "شرح الصدور بشرح أحوال الموتى والقبور".

## الحشر بالجسم أو الروح

والمعاد الجسماني والحشر بإيجاد أجزاء البدن الأصلية وعوارضها بعد فنائها ولو بأكل إنسان فإنه يعاد من كل من الآكل والمأكول أصوله الباقية من أول العمر. والأجزاء المأكولة فضل من الأكل حتى أنه لو تولد منها ولد لا تحسب من أصليّاته. وقيل: يجمع متفرقات البدن فإنّها غير فانية والحق فناؤها إلاّ عجب الذنب فإنه لا يأكله التراب ولا يفنى أبداً إلا أنه لا تبلى أبدان الأنبياء والشهداء ولا تأكل الأرض أجسادهم وكذا العالمون العاملون والحكام العادلون وحملة القرآن والمؤذنون احتساباً ومن لم يعمل خطيئة.

وذهب الفلاسفة إلى أن المعاد روحاني وهو عود النفس بعد مفارقة البدن إلى تجردها متلذذة بالكمال أو متألمة بالنقصان كما هو مفصل في كتبهم. وقال بعض: أنه جسماني وروحاني، أي جسم وروح تعاد إليه بناء على أنها جوهر مجرد يتعلق بالبدن تعلق تدبير وتصرف من غير أن تحلّ فيه ولا تفنى بفنائه بل ترجع إليه على ما كانت عليه من التجرد.

قال الإمام الرازي: وأما القائلون بذلك فقد أرادوا أن يجمعوا بين الحكمة والشريعة فقالوا: إن سعادة الأرواح بمعرفة الله وصفاته وسعادة الأجسام في إدراك المحسوسات ولا يمكن الجمع بينهما في هذه الحياة؛ لأن كلاً من الاستغراق في تجلّي عالم القدس والاستغراق في استيفاء اللذات الجسمانية مفوت للآخر لضعف أرواح البشرية هنا فإذا فارقت بالموت واستمدت من عالم القدس قويت وكملت فقدرت على الجمع بين الأمرين إذا أعيدت إلى الأبدان ثانياً وذلك الغاية القصوى في مراتب السعادة ولا يخفى أن المعاد الجسماني هو الذي يجب الاعتقاد به ويكفر منكره دون الروحاني؛ لأن النصوص في تضليل مستعجبي ذلك[360] قال تعالى: { **أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ *بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ** *}[361] {**وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ** }[362]،

---

[357] غافر: 11

[358] مسند إسحاق بن رواحة، 54/1.

[359] يس: 51

[360] ب: ولا يخفى أن الذى يجب الإيمان به ويكفر منكره إنما هو المعاد الجسماني دون الروحاني لأن النصوص فى تضليل مستعجب ذلك

[361] القيامة: 3،4

{ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ }[363] {قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي(أ/37) أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ}[364] {أَلاَ يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ }[365]؛ وقوله عليه الصلاة والسلام : «**أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلاً**»[366] أي غير مختونين؛ لأن الجلدة التي قطعت في الختان وكل ما انفصل عنه في الحياة كالشعر والظفر يردّ إليه ليذوق نعيم الثواب وأليم العذاب. فهم في أول النشأة عراة على الهيئة التي توفوا عليها حتى الطفل والسقط ثم تتبدل هيآتهم في الجنة والنار كما يأتي. والعينان في الوجه ولذا استعظمت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها كشف العورات، فأجاب عليه الصلاة والسلام بأن لكل منهم يومئذٍ شأناً يغنيه عن النظر إلى الآخر ورجت منه امرأة أن يدعو لها بالستر يومئذٍ فدعا لها به. لكن ورد أيضاً أن العينين حينئذ في الرأس وصحّ يبعث الميت في ثيابه التي يموت فيها لكن حمل أكثرهم على الشهداء . وأخرج الدنيوي عن الحسن: أن أهل الزهد كالشهداء فإذا ثبت ذلك لهؤلاء فالأنبياء أولى . وجاء عن عمر ومعاذ رضي الله عنهما: أحسنوا أكفان موتاكم فإن الناس يحشرون في أكفانهم وهذا منهما في حكم المرفوع. ولكن صحّ أن الناس يحشرون يوم القيامة على ثلاثة أفواج: فوج طاعمين كاسين راكبين ،وفوج يمشون ويسعون ،وفوج تسحبهم الملائكة على وجوههم ، وسيأتي تمام بحث الحشر في الأواخر

## وجود الوزن والحساب والكتاب والمجازاة

**والوزن والحساب والكتاب والمجازاة** . فتوزن الأعمال مصورة حسناتها بجواهر بيض وسيئاتها بجواهر سود أو عين صحفها أو أشخاص كاسبيها على اختلاف في ذلك مأخوذ من الأحاديث بميزان له لسان وكفّتان كما ورد في الحديث. فهو واحد وجمعه في نحو: { **وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ** }[367] للاستعظام. وقيل: لكل ميزان خاص وقيل: لا وزن حقيقة بل هو كناية عن القضاء والعدل في المجازاة. وقيل: الميزان عبارة عمّا يعرف به المقادير فنؤمن بظاهره ونفوض كيفيته إليه تعالى ويحاسبهم مع كثرة أعمالهم في مقدار لمحة أو نصف يوم، أي خمسمائة سنة، فإن كل يوم من أيام يوم القيامة بألف سنة إما بالتكلم عن أحوال أعمالهم وكيفية ما لها من الثواب والعقاب والعتاب بخلق سمع في آذانهم تسمع كلامه القديم . وإما بخلق علم ضروري في قلوبهم بذلك فهو من إطلاق السبب على المسبب، أي الإعلام ويقرب منه ما روي عن ابن عباس: أنه لا حساب لهم بل يقفون بين يديه تعالى يعطون كتب حسناتهم وسيئاتهم ويعمل معهم بمقتضاها وهي تعطى للمؤمنين بإيمانهم وللكافرين بشمائلهم وراء ظهورهم. وقيل: يغلّ بيمينه إلى عنقه وتجعل يساره من وراء ظهره بضربها في صدره وإخراجها منه او بقلعها ونقلها إليه قال

---

[362] الروم:27

[363] المؤمنون:16

[364] يس:79

[365] المطففين:4،5،6

[366] مسلم، جنة 56.

[367] الأنبياء:47

تعالى: { **وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا *اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا** * }[368] ، الآية. { **فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ *فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا** *}[369] وقال عليه الصلاة والسلام: « **إن الله يدني المؤمن فيضع كنفه ويستره الله فيقول: أتعرف** (ب/37) **ذنباً كذا فيقول: نعم أي ربّ حتى يقرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه قد هلك قال: سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم فيعطى كتاب حسناته . وأما الكفار والمنافقون فينادى لهم على رؤوس الخلائق: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين**» [370] وذلك قوله تعالى: { **يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ** }[371]، فإنهم لا يسألون سؤال استعلام للاستغناء عنه باعترافهم بالظلم، بل سؤال توبيخ كما هو عموم { **فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ** }[372] أي الأمم عن إجابتهم الرسل وعلمهم فيما بلغوهم { **وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ** }[373]، أي عن الإبلاغ وما أجيبوا به وأما { **لاَ يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلاَ جَآنٌّ** }[374] فهو حين ما يخرجون من قبورهم ويساقون إلى الموقف كما هو مقتضى يومئذٍ. وفائدة ذلك كله إظهار العدالة وقطع العذرة كشهادة الجوارح والجلود بصنع أصحابها وإظهار فضائل المتقين ومناقبهم وفضائح العصاة ومثالبهم على أهل العرصات تتميماً لمسرة الأولين وحسرة الآخرين كما يعرض عليه أعمال العباد صباحاً ومساء عند صعود الملائكة بها ثم مجموع ما في الأسبوع كل اثنين وخمسين ثم مجموع ما في السنة ليلة النصف من شعبان لنحو ذلك.

## وجود الحوض

**والحوض:** قال تعالى: { **إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ** }[375]. وقال عليه الصلاة والسلام: «**حوضي مسيرة شهر زواياه سواء وماؤه أبيض من اللبن وريحه أطيب من المسك وكيزانه أكثر من نجوم السماء. من شرب منها الماء فلا يظمأ أبداً**[376] إلى غير ذلك من الأحاديث: «**ولا يحرم منه أحد من مسلمي أمّته إلا المرتد** [377]»، وإن نقل عن العلماء: أنه يطرد أيضاً من أحدث بدعة كالروافض والظلمة المسرفين والمعلن بالمعاصي فإنهم يشربون منه آخراً. فإذا دخل أحدهم النار لا يعذب بالعطش بل بشيء آخر، وهذا يدل على أن الحوض قبل الصراط والذي رجح من ظاهر الأحاديث أنه بجانب الجنة ينصب فيه الماء من النهر الكوثر الذي داخلها الذي تتفجّر جميع

---

[368] الإسراء:13،14
[369] الإنشقاق:7،8
[370] صحيح بخارى 862/2
[371] القصص:78
[372] الأعراف:6
[373] الأعراف:6
[374] الرحمن:39
[375] الكوثر:1
[376] صحيح بخارى، 5/ 2405؛ مسلم، 4/ 1793.
[377] لم أجده في المراجع

أنهارها، أعطي لنبينا خاصة أيضاً. وجاء: في الحوض ميزابان مدادهما الجنة، ألي تمدهما أنهارها فلو كان قبل الصراط كانت النار بينه وبين الماء الذي ينصبّ إليه.
وروي في بعض التفاسير: إن الكوثر حوض على ظهر الملك يأتي به حيث يأتي النبي عليه الصلاة والسلام فإذا كان في الموقف يأتي به الموقف وإذا دخل الجنة يأتي به الجنة . وقيل: له حوضان كلاهما يسمّى كوثراً. والكوثر عند العرب الخير الكثير فعليهما كونه في الجنة كما قال بعض: لا ينافي في كونه في الموقف أيضاً. وقد صح: أن لكل نبي حوضاً وأنهم يتباهون أيهم أكثر وردة وإني أرجو أن أكون أكثرهم وردة فلا يرد أحد منهم حوض نبينا ولا أصل لما قد يذكر أن الأولياء يردون الحوض مع النبي عليه الصلاة والسلام قبل الأنبياء مؤيداً بأن اتباع العظماء لقربهم منهم قد تصل إلى منزلة قبل من هو أشرف منهم

## وجود الصراط

**والصراط**: لنصوص شائعة فيه أيضاً وعليه حمل: { **وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا** }[378] ومنهم من قال: إن ورودها عبارة عن أنه لا يبقى أحد إلا يذوق ألمها ولو بمسّ قليل ليعرف قدر(أ/ 38) النجاة منها نعيم الجنة وهو جسر ممتد على متن جهنم أدقّ من الشعر وأحدّ من السيف على ما ورد في الحديث الصحيح . تمرّ عليه جميع الخلائق والنبي عليه الصلاة والسلام يقول: « **يا رب سلم سلم**»[379] فيعبره أهل الجنة وتزل فيه أقدام أهل النار فيظهر للمؤمنين عظم فضل الله بالنجاة وتصير الجنة بعد ذلك أسرّ لقلوبهم ويتحسر الكفار بفوز المؤمنين مع اشتراك كلهم في المرور والعبور عليه وإن كان محالاً عادة فهو ممكن بحسب الذات فلا عبث ولا تعذيب لنحو: الأنبياء والصالحين، فإن منهم من يجوزه كالبرق الخاطف ومنهم كالريح ومنهم كالسهم الخارج من القوس ومنهم كالفرس الجواد ومنهم كالماشي عادة. ومنهم من حمل سيئاته فيمشي ثقيلاً ومنهم من تجوز رجلاه وتعلق يده ومنهم من ينجر على وجهه فيزل قدمه وينكب في النار ويجعله الله في أعين المؤمنين كالصحراء الواسع على كيفية أعمالهم . وصرح القرطبي: أن في الآخرتين صراطين:صراط لعموم الخلق إلا من يدخل الجنة بلا حساب ومن يلتقطهم عنق النار . وصراط للمؤمنين خاصة فمن تلتقطه النار من الكفار والبعث الذي يخرج إليه منهم قبل نصبه لا يمرون عليه.
وأنكر المعتزلة كلًّا أو بعضاً جميع المذكورات غير الحشر وتمسكاتهم مما يبطلها كثير مما مرّ في التقرير، فلا حاجة إلى أن نطيل الكلام ببيانها.

---

[378] مريم:71

[379] أخرجه الترمذي (/691 ، رقم 2557 وقال : حسن صحيح

## مسئلة مرتكب الكبائر من الكهانة والطيرة و النجوميات والسحر والكتابة اللتي لا يعرف معناها

والكبيرة غير الكفر لا تخرج العبد المؤمن عن الإيمان ولا تخلده في النار، بل مآل عذابه إن لم يعفَ عنه بدونه أن يخرج ويغمس في ماء الحياة فيكون في غاية الجمال ثم يدخل الجنة منعماً بسابق ما أعدّ له لإيمانه وما قبل له من الأعمال كما نصت الأحاديث لبقاء التصديق الذي هو حقيقته ومجرد الإقدام على كبيرة لنحو غلبة شهوة أو حمية أو أنفة أو كسل خصوصاً إذا اقترن به خوف العقاب ورجاء العفو والعزم على التوبة لا ينافيه. نعم إذا كان ذلك عن طريق الاستحلال والاستخفاف كان كفراً لكونه علامة التكذيب . ولا نزاع في أن من المعاصي ما جعله الشارع أمارة لتكذيب الشرع كسجود الصنم وإلقاء المصحف في النار والقاذورات وتلطيخ المسجد ولو نحو جداره من خارج بالنجاسة. ورد النصوص ولو الإجماع وإنكار أحكامها والاستهزاء على الشريعة أو الشارع واليأس من الله والأمن من عذابه وتصديق الكاهن والمنجم بما يخبره عن الغيب؛ لأنه مما استأثره تعالى بعلمه ولم يطلع عليه إلا أنبيائه ورسله بواسطة نحو تنجيم أو رجز أو خطّ أو بغير واسطة. وقد أكذب مدعي علم الغيب وأخبر بأنه العالم ما كان أو يكون في غير ما آية . فقال: {**عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا** }، { **قُلْ لاَ يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ** }[380]. وقال عن عيسى عليه السلام { **وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ** }[381] وعن يوسف عليه السلام: {**لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ**}[382] الآية، فجعل ذلك من دلائل النبوة. وقال عليه الصلاة والسلام: «**من أتى كاهناً أو عرافاً أو منجماً فقد كفر بما أنزل الله على محمد صلى الله تعالى عليه وسلم**[383] (ب/38) ». وقال: «**العيافة والطرق والطيرة من الجبت**»،[384] أي من أعمال السحرة والكهنة

وقال: «**الطيرة شرك، الطيرة شرك**[385]» قاله ثلاثاً فمن ادعى نحو قدوم غائب. أو ما يخفيه الناس وينطوون عليه أو ما ينفع من غلاء الأسعار ورخصها ونزول المطر ووقوع القتل والفتن وغير ذلك من المغيبات فقد أبطل دلائل النبوّة وكذّب القرآن فمن المحال أن يصح لغير نبيّ ووليّ بواسطته توالي الأخبار بالمغيبات من غير أن يقع منه غلط أو كذب، بل ما يقع منه من صدق ليس عن صدق وإنما هو مصادفة ومبنيّ على مجرد حزر وتخمين في أمر إجمالي لا تفصيلي يعتذرون عما سواه بما لا ينفعهم . فسائر الناس مثلهم في ذلك وما يقع منهم تفصيلاً نادر مع أن الصواب أنه من علوم الأنبياء التي حفظت ودونت ولم تبدل فما أخبر به شق وسطيح من أخبار الزمن الذي وقع بعدهما يحمل على أنه وصل إليهما من الأنبياء.

---

[380] .الجن:26،27

[381] النمل:65

[382] يوسف:37

[383] ابو داود، طب 21.

[384] ابو داود، طب 23.

[385] ابو داود، طب 24؛ ترمذي، سير 46

وكذا الكاهن الشامي الذي أتى بهندام معاوية لما اتهمها زوجها الأول بالزنا وقد جرّبه أبوها أولاً فقال: خبأتم تمرة في كمرة. وفي رواية: حبة برّ في إحليل مهر ثم لمس على ظهر هند وقال: إنها بريئة ليست بزانية وستلد ملكاً اسمه معاوية فطلقها أبوها من زوجها تعصباً لما كان اهتمّ بقتلها أولاً وزوجها أبا سفيان فولدت معاوية وكثيراً ما يجد في الملاحم ما يصحّ ويقع كما يحكى . فقيل: سببه أن نبينا عليه الصلاة والسلام تكلم بكلمات من الغيب فانفرد بحفظها بعض الصحابة ولم يظهر ولكن رد بأنه لو كان كذلك لظهرت كيفية ما جاء عنه عليه الصلاة والسلام. وقيل: أنه عمل دانيال عليه السلام؛ لأنه كالأنبياء يوحى إليه. وقيل: أنه عمل الكهنة قبل وجود نبينا عليه الصلاة والسلام.

واختار المارزي ما قيل: أنها مبنية على النجوم. وتحقيق مذهبنا في النجوميات أن المنجم إذا أحال علمه بنحو المغيبات المذكورة على مجرد خلق الله والعادة الإلهية لدى بعض الحادثات الكونية ولم يدع علم الغيب ولا اعتقاد النجوم فاعلاً فلا كفر بل لا إثم عليه وعلمه مباح كالقسم الذي يستدلّ به على منازل القمر وعرض البلاد ونحوها ويجب الذي يستدل به على نحو القبلة والأوقات واختلاف المطالع واتحادها وغير ذلك.

وأما الطبيعي فإن أريد به معرفة الأشياء على ما هي عليه على طريق الشرع فلا مانع منه أو على طريق الفلاسفة فهو حرام لتأديه إلى قدم العالم ونحوه من مفاسدهم وقبائحهم المحرمة كالتنجيم المحرم ويقرب منه السؤال عن النحس والسعد والأيام والليالي التي تصلح لنحو: السفر والانتقال؛ لأنه سنّة اليهود لا من هدي الإسلام الذين لا يحسبون وعلى ربهم، يتوكلون وعلى نص الشارع فقط، يعتمدون.

وما ينقل عن علي رضي الله عنه من الأيام فكذب محذور لا أصل له إلا أن يتمسك بالعادة الإلهية والتجربة في ذلك أيضاً ومما يحكم بحرمته علم الرمل والجفر والشعبذة والشعير والحصى والعجائب التي يفعلها أهل الحيل الذي في الطرقات من نحو قطع رأس الإنسان وإعادته وجعل نحو: الدراهم من التراب وغير ذلك مما هو مشهور منهم. فلا يجوز لأحد(أ/39) الوقوف عليهم . وخبر مسلم عن ابن عباس: أنه عليه الصلاة والسلام سئل عن الخطّ فقال: «**كان نبي من الأنبياء يخطّ فمن وافق خطه علم**» وفي رواية: **سئل عن الخطّ في التراب فقال**: «**علم نبيّ من الأنبياء فمن وافق علمه علم** [386] يتعين حمله بما عرفت من أحوال عبارة الأخبار عن المغيبات على أنه خبر في معنى الإنكار ككثير مما في القرآن والسنة من نحو: {**فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ**}[387] ، ونحن أحق بالشك من إبراهيم؛ لأن المراد نفي الشكّ في المعتقدات بالنفي عن إبراهيم أو على أنه علق الحل بالموافقة بخط ذلك النبي وهي غير واقعة في ظنّ الفاعل إذ لا دليل عليها إلا بخبر معصوم، وذلك لم يوجد فبقي النهي على حاله وأخذ بعض من ظاهر الحديث

---

[386] مسلم، مساجد 33؛ ابو داود، طب، صلاة 167؛ نسائ، سهو 20.

[387] الزمر:15

وما نقله[388] بعض عن ابن عباس: حلّه لفاعله وإن لم نتحقق إصابته. وأما ما يفعله أصحاب الحيل بمعونة الآلات والأدوية أو خفّة اليد وما يفعله الحذاق الذين يغلب سلامتهم كالبهلوانية وضرب نحو الرفاعية الدبوس واصطياد الحية وغير ذلك فهو غير مذموم وتسمية بعضه سحراً مجاز. وكذلك حكاية الأعاجيب والغرائب وإن كانت كذبة إن قصد بها ضرب الأمثال والمواعظ وتعلم نحو السخاوة والشجاعة على ألسنة آدميين وحيوانات خلافاً لمن أطلق حرمة ذلك سيما في المساجد ومما يباح بل قد يسن علم الأوقاف ما لم يستعمل في محرم؛ لأنه مجرد توسل لنحو قضاء الحوائج وإخراج مسجون ووضع جنين وما في هذا المعنى بكتابة عدد حروف آية أو اسم شريف على وجه مخصوص. ثم التوسل بالروحانية الموكلة بذلك كما هو مفصل في كتبه . وكان الغزالي رحمه الله يعتني به كثيراً حتى نسب إليه وللأفاضل فيه تصنيفات كثيرة وممن كان يحسنه ويعمل به شيخ الإسلام زكريا الأنصاري وله فيه مؤلف نفيس. وكذا عمل التمائم والرقي بنحو آيات القرآن والأسماء التي يعرف معناها لنحو الصبيان والدواب والمجانين وإخراج الجان من المصروع والعطف والمحبة إلى غير ذلك لثبوت الرقي منه عليه الصلاة والسلام لذلك واستحسانه من بعض أصحابه وقوله: «**إن أحسن ما أخذتم عليه أجراً كلام الله**»[389]، ولما أنهم عرضوا عليه رقاهم استحسن بعضاً وأمر بترك بعض وقال: «**لا أرى بأساً من استطاع منكم أن ينفع أخاه فلينفعه**» [390]، كما هو مفصل في الأحاديث وقد جاء عنه الأمر بالتنفر عن بعض الأشياء كقوله: «**فرّ من المجذوم**[391] **فرارك من الأسد**» [392] ومنه يؤخذ حرمة دخول بلد الطاعون ولو قبل أن يعمّ وإن قال: **لا عدوى ولا هامة ولا صقر**[393] ؛ لأن المراد أن لا عدوى من حيث نفس البلاء دون إرادته تعالى . وقد جاء عنه إثبات أصل التطير حيث قال: «**وإن تكن الطيرة في شيء ففي الدار والفرس والمرأة**» [394] وكان يعجبه إذا خرج لحاجة أن يسمع: يا راشد يا نجيح . وقال رجل: يا رسول الله إنا كنا في دار كثر فيها عددنا وأموالنا فتحولنا إلى دار قلّ فيها عددنا وأموالنا فقال عليه الصلاة والسلام: «**ذروها ذميمة**»[395]. وقال له آخر: أرضٌ عندنا هي أرض ريعنا(ب/ 39) وميرتنا وأن وبائها شديد فقال: «**دعها عنك فإن من القرف التلف**» [396]، يعني أن القرب من المتلف متلف . وجاء: أنه كان لا يتطير من شيء فإذا بعث [397] عاملاً سأل عن اسمه فإذا أعجبه فرح به ورئي بشر ذلك في وجهه، وإن كره اسمه

---

[388] ب:وساقه

[389] بخاري، اجارة 16؛ ابن ماجه، بحارات 8.

[390] مسلم، سلام 60، 62، 63؛ مسند، 3، 302.

[391] ب:الجذام

[392] أخرجه البخاري في كتاب الطب، باب الجذام، وأحمد في المسند، باقي مسند المكثرين، باقي المسند السابق، برقم 9429.

[393] أخرجه بخاري، بيوع 36، طب 19؛ مسلم، سلام 102؛ ابو داود، طب 24؛ ترمذي، سير 46؛ ابن ماجه، مقدمة 10.

[394] مسند، 6، 240؛ ابن ماجه، نكاح 55.

[395] ابو داود، طب 24؛ موطا، استاذان 23.

[396] ابو داود، طب 24؛ مسند، 3، 451.

[397] ب:لكن إذا

رئي كراهة ذلك في وجهه؛ وإذا دخل قرية سأل عن اسمها فإن أعجبه اسمها فرح ورئي بشر ذلك في وجهه وإن كره اسمها رئي ذلك في وجهه.

وصحّ عنه الأكل مع المجذوم تارة وعدم مصافحته أخرى وكل ذلك منه بيان لسعة الأمر على الأمة بناء على تمام التوكل وعدمه والأكثر على أنه يحرم كتابة وقراءة الحروف والأسماء التي لا يعرف معناها فإن منها ما يكون كفراً . ومن ادعى الكراهة نظر لعدم تحقق سبب الحرمة وعليهما لا مرخص للتعول عليها إلا أن توجد في كتاب من يوثق به علماً وديناً وأمر بكتابتها وقراءتها ولا يفي ذكرها من غير أمر ولو من إمام كائناً ما كان؛ لأن الغالب من أحوال أرباب هذه التصانيف أن يذكروا ما وجدوا من غير فحص لمعناها بمجرد رجاء مستعملها كالأشياء التي في ورد الإمام اليافعيّ فانه لا يجد مستعملها شيئاً من خواصّها ومنافعها أصلاً ، وذلك كما ذكر الدميري في كتابه: حياة الحيوان، خواصها ومنافعها. ومع ذلك لا يصحّ من المائة واحد وقد بالغ أكثر الأئمة المالكية في ذمّ التمائم والرقى حتى لم يجوزوا ولو من رجل صالح يفعلها بلا أجرة إلا ما لنحو الحمى والشفاء والحفظ من القرآن أو ذكر معروف.

ثم من النصوص الدالة على إيمان صاحب الكبيرة وعدم خلوده { **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى**}[398] {**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا** } التحريم:8، {**وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** }[399] الآيتين. وقوله عليه الصلاة والسلام لأبي ذرّ لما بالغ في السؤال: **وإن زنى وإن سرق على رغم أنف أبي ذر**[400] من قال: «**لا إله إلا الله دخل الجنة**»[401] إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث الدالة على أنّ الفاسق مؤمن مع إجماع الأمة من عصر النبي عليه الصلاة والسلام إلى الآن على الصلاة على من مات من أهل القبلة ولو فاسقاً من غير توبة والدعاء لهم مع الاتفاق على أن ذلك لا يجوز لغير المؤمن ولا ينفع المخلد والآيات المشعرة بخلوده من نحو: { **وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا** }[402] الآية محمولة على المستحلّ فإنه كافر أو المراد بالخلود المكث الطويل فإنه جاء له أيضاً أو المراد أن جزاءه ذلك أن عذب وإلا فقد يعفو عنه ويرضى خصمائه لكن يجب اعتقاد دخول بعض العصاة من غير تأبيد وفي إنكاره تكذيب للنصوص . وأما نحو قوله عليه الصلاة والسلام: « **إذا كان يوم القيامة دفع الله لكل مسلم يهودياً أو نصرانياً فيقول: هذا فداؤك من النار**»[403] فقد ذهب أكثر العلماء إلى أنه ليس على إطلاقه وعمومه بل هو في أناس مذنبين تفضل الله عليهم برحمته ومغفرته ففعل معهم ذلك.

---

[398] البقرة:178

[399] الحجرات:9

[400] مسلم، ايمان 154؛ مسند، 5، 166.

[401] عجلونى، كشف 269/2 من البزار و الطبرانى

[402] النساء:93

[403] ابن ماجه، زهد 34؛ مسند، 4، 402.

وذهب الخوارج إلى أن مرتكب الكبيرة بل الصغيرة أيضاً كافر تمسكاً بنحو: { **وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ** (أ/40) }[404] وقوله عليه الصلاة والسلام: « **من ترك صلاة متعمداً فقد كفر** »[405] من النصوص التي يجزم أنها عندنا متروكة الظاهر بتأويلات صحيحة للنصوص القاطعة بأن مرتكب الكبيرة ليس بكافر في شيء. وكالآيات التي يتمسك بها المرجئة في دعواهم أنه لا يضرّ مع الإيمان ذنب كما لا ينفع مع الكفر طاعة وقال الحسن البصري أنه منافق، أي بهذا النوع من الكفر. وزعمت المعتزلة أنه ليس بمؤمن ولا كافر، أي منزلة بين المنزلتين تركاً للمختلف فيه وأخذاً بالمتفق عليه وتمسكاً بنحو قوله تعالى: { **أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا** }.[406]

وقوله عليه الصلاة والسلام: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن** »[407] الحديث. وقوله: « **لا إيمان لمن لا أمان له**[408]» أي لا أمانة له. اهـ

والجواب: أن الفاسق في الآية هو الكافر والحديث وارد على سبيل التغليظ حيث أراد الإيمان الكامل إلا أنه ترك إظهار التقييد مبالغة بدليل أدلتنا والمنزلة بين المنزلتين مخالف لما أجمع عليه السلف ولا يخالفه قول الحسن؛ لأن النفاق كفر مضمر وليس المراد بالكبيرة ما يوجب الحدّ كما يتبادر من الاقتصار على البحث عنها فقط في الفقه بل الأشمل المختار من سبعة أقوال لهم في تحديدها وما في معناها أنها كل جريمة تدل على قلة اكتراث مرتكبها، أي اهتمامه بالدين ورقة الديانة ومن قال: الذنوب كلها كبائر فقد نظر إلى أنّ عظمة وجلالة شأنه آبٍ أن تسمى معصية صغيرة؛ لأن الصغيرة بالنظر إلى ذلك كبيرة، أي كبيرة. ولذا لا يجوز استصغار الذنوب بحال وذلك لأن كل معصيته ترك لأمر الله وترك أمره عظيم والجرأة على إقدامه سوء أدب في حقه خسران واستخفاف وحرمان .

والجمهور نظروا إلى النصوص الفارقة واختلفوا في عددها بنحو عشرة أقوال . قال ابن عباس رضي الله عنهما: أنها إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع إلا أنه لا كبيرة مع الاستغفار، أي التوبة بشروطها ولا صغيرة مع الإصرار فما جاء في الأحاديث من أنها سبع أو أزيد أو أنقص فمحمول على بيان المحتاج إليها. منها وقت ذكرها لا حصر مطلقها في ذلك { **إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ** }[409] ، أي أعظم الكبائر التي هي الكفر مطلقاً إلا أنه عبر عنه بما اتصف به كفار العرب.

وقد أجمع المسلمون على عدم العفو عنه سمعاً وقد منعت المعتزلة العفو عنه عقلاً أيضاً بحجة أن قضية الحكمة التفرقة بين المسيء والمحسن والكفر نهاية في الجناية لا تحتمل الإباحة ورفع الحرمة مع أنّ الكافر يعتقده حقاً ولا يطلب عفواً ومغفرة فلا حكمة في عفوه وهو أيضاً اعتقاد الأبد فيوجب الجزاء الأبديّ وردّ بمنع كون التفرقة قضيته

---

[404] المائدة:44

[405] مسند، 6، 421.

[406] السجدة:18

[407] ابن ماجه، فتن 3.

[408] مسند، 135/3، 154، 210.

[409] النساء:48

الحكمة لجواز أن يكون عدم التفرقة متضمناً لحكمة خفية مع أنه يمكن التفرقة بوجه آخر غير تعذيب المسيء كإثابة المحسن دونه ثم إن نهاية الكرم تقتضي العفو عن نهاية الجناية وإيجاب الجزاء الأبدي دعوى بلا دليل لولا السمعي { **وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ** }[410] وإن لم يتب كما دلت(ب/ 40) عليه الآيات والأحاديث خلافاً للمعتزلة حيث خصوا المغفرة بالصغائر وبالكبائر المقترنة بالتوبة على معنى ويغفر ما دون الشرك من الصغائر والكبائر لمن يشاء وهو التائب ومرتكب الصغائر دون من لا يشاء وهو مرتكب الكبيرة الغير التائب فهم وإن قالوا أن متعلق المشيئة أصحاب الصغائر والكبائر المقرونة بالتوبة، وقيدوا بهما النصوص الواردة بدون تعليق من نحو: {**وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ** }الرعد:6، و{**إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ** }[411]ا و{**غَافِرِ الذَّنْبِ**}[412] فقد تركوا المعلقة بها كهذه الآية ونحو{**فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ**}[413] ، على عمومها فلا إشكال.

ومنهم من قال: أنهم يقيدون نفس الآيات والأحاديث مطلقاً فلذا أشكل عليهم بأن التخصيص مع كونه عدولاً عن الظاهر بلا دليل إذ ليس عموم آيات الوعيد بالمحافظة أولى منه، أي من الوعد، أي آياته بل الأولى العكس لرجحان جانب الرحمة على الغضب لا يتماشى في المتعلقات بالمشيئة؛ لأنه لما تساوى الشرك وما دونه في عدم المغفرة على تقدير وبالمغفرة على تقدير لا وجه للحكم على مجرد الشرك بعدم المغفرة على تقدير عدم التوبة وبالمغفرة لما دونه على تقديرها وأيضاً أن المغفرة بالتوبة عندهم واجبة عقلاً بناء على أنها حسنة ومجازاة الحسنة واجبة فلا يظهر للتعليق بالمشيئة فائدة، فإنه يفيد أن المغفور بعض العصاة.

وكذا لا يصحّ التخصيص بالصغائر؛ لأن مغفرة الصغيرة عامّة للجميع عندهم وإن جاء عندنا العقاب عليها كجواز العفو عن الكبيرة سواء اجتنب مرتكبها الكبيرة أو لا لدخولها تحت { **وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ**}[414] ولنحو: { **لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا** }[415] ، { **وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ** }[416] لأن الإحصاء والرؤية إنما يكونان للسؤال والمجازاة ونحو: { **إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ**}[417] لا يدل على امتناع وقوع العقاب عليها؛ لأنه مقيد بالمشيئة والكبيرة فيه محمولة على فردها الكامل وهو الكفر والجمع بالنظر لأنواعه أو أفراده القائمة بالمخاطبين وإلا[418] لبقي التقييد بلا دليل

---

[410] النساء:48

[411] لنحل:110

[412] غافر:3

[413] البقرة:284

[414] النساء:48

[415] الكهف:49

[416] الزلزلة:8

[417] النساء:31

[418] ب: ولولا ذلك الحمل

والتعليق بالاجتناب بلا فائدة لجواز مغفرة الصغائر بدونه. كذا قيل: والذي عليه الأكثر أن الكبائر على عمومها والتعليق مفيد ولا تقييد. غاية الأمر أن الآية محملة مبنية للآية المحكمة المتقدمة وإليه أشار من قال أنه تعالى وعد العفو عن الصغائر وجعل نحو الصلوات الخمس وصوم بعض الأيام كفارة لها ما لم يقع الإصرار عليها ولم تكن مع كبيرة تفضلاً ورحمة كما ضاعف لنا الحسنة بعشر وأكثر إلى سبعمائة أو ما لا يحصى ولم يكتب لنا السيئة إلا بواحدة ودفع عنا الخطأ والنسيان. وحديث النفس حتى الهمّ والقصد من غير تصميم وعزم جازم قال عليه الصلاة والسلام: «**إنّ الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل به أو تتكلم به**»[419]

وقال: **من همّ حسنة ولم يعملها كتبت له ومن همّ سيئة ولم يعملها لم تكتب** ،[420] أي عليه وقيل: بل مع العزم أيضاً لظاهر الأحاديث وآية { **وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ** }[421]ا غير محمولة عليه بل على العقائد الرديئة كالكفر والكبر والعجب والحسد والرياء(أ/ 41) وقبل توبتنا من الذنوب بحيث تمحو أثر كل ما وقعت عليه ولا يعود إثمه وإن تكررت هي وهو في اليوم سبعين مرة كما في الحديث وتصحّ من ذنب مع الإصرار على آخر كالزنا بامرأة دون الزنا بأخرى لا إحدى مرتي الزنا بامرأة دون المرة الأخرى وإن صححها بعض أيضاً وهي لغة الرجوع والندم ومعنى تاب الله عليه رجع إلى عفوه وقبل توبته وشرعاً عبارة عن ثلاثة أشياء: الندم على ما مضى حياءً من الله وأسفاً على عدم رعاية حقه تعالى لا لحظ دنيوي كدفع عار أو ضياع مال أو تعب بدن. والعزم على أن لا يعود في المستقبل إليه أو إلى مثله إن تصور منه ذلك وتدارك ما عليه من حقّ الله تعالى حتى التمكن من نحو حدٍّ ثبت وجوبه عليه أولاً لا الإقرار بما يوجبه حتى يحدّ؛ لأن المستحب التستر وعدم الإقرار بالمعصية أياً ما كانت

وكذا تدارك حق الآدمي بنحو رد المال أو بدله والتمكن من حدّ قذف أو استحلال فإن لم يمكن الرد للمالك ولا لوارثه لعدمه أو انقطاع خبره دفعه للإمام ليجعله في بيت المال أو إلى الحاكم المتوليّ على مال المصالح فإن تعذر لنحو جور منهما تصدّق به عنه أو صرفه في وجه آخر من المصالح بنية الغرم.

وكذا حكم مال حرام أخذه من نحو: سلطان لا يعرف مالكه وله صرفه على نفسه وعلى عياله إن احتاج وإن عسر به انتظر إلى ميسرته وصحت توبته فإن مات قبل إمكان الأداء انقطع عنه الطلب في الآخرة ويرجي من فضل الله تعويض المستحق. ونحو: الدين والمظلمة الذي استحقه وارث بعد وارث ولم يستوفه أحد منهم يكون المطالب به في الآخرة صاحبه الأول وشرط قبول التوبة إن تقع قبل الغرغرة ومعاينة العذاب. ولذا حكموا بعدم قبول توبة فرعون وإن قال حين أدركه الغرق: { **آمَنْتُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ**}[422] ، فكرر الإيمان مرتين بناء على فتح أنّ وثلاثاً على كسرها . وقول ابن عربي في فتوحاته بقبولها

---

[419] بخارى، عتق 6؛ طلاق 11؛ مسلم، ايمان 201؛ ابو داود، طلاق 15؛ ترمذى، طلاق 8؛ نسائ، طلاق 22؛ ابن ماجه، طلاق 14، 16.

[420] مسلم، ايمان 206.

[421] البقرة:284

[422] يونس:90

وحمل{**آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ** }[423]،الآية على خطاب عتاب رجع عنه في موضع منها. وفي بعض آخر من تصانيفه والتفصيل في الزواجر وأن لا تكون عن اضطرار بظهور الآيات كطلوع الشمس من مغربها وإما نحو: مفارقة مكان المعصية وتكررها كما تذكرها والاستغفار باللسان وعدم العود للذنب فمستحب لا واجب وهي واجبة فوراً إجماعاً حتى عن الصغيرة ولا اعتداد بخلاف الجبائي فيها وكونها مكفرة لا يمنع الإجماع على وجوب التوبة منها؛ لأن الكفر لا يزيد على الستر المرجو به محوها فربما لا يقع لعدم وجوب شيء على الله تعالى فالتوبة هي التي تزيل وصمة البروز بعصيان الجليل جلّ جلاله والذي صحح من خلافهم أنّ قبول توبة الكافر بإسلام قطعيّ وقبول توبة غيره ظنيّ.

## ثبوت الشفاعة

**والشفاعة:** التي هي السعي في إصلاح حال المشفوع فيه عند المشفوع إليه ثابتة للرسل والأنبياء والملائكة والأخيار على قدر رتبهم في حقّ أهل الكبائر حتى يشفع نحو المتهجد في أهل بيته؛ لأنه لما جاز العفو عنها بدون الشفاعة فبها أولى وقد استفاض بها الأخبار (ب/ 41)من نحو: «ا **دخرت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي** »[424] وغير ذلك وقال تعالى: { **يَوْمَئِذٍ لاَ تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَانُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً** }[425] ، { **مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ**}[426] {**وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ**}[427]

والمعتزلة لما لم يجوزوا العفو عن الكبائر بدون التوبة لم يجوزوا الشفاعة ولم يجعلوها على القول بثبوتها إلا لرفع الدرجات وأجيب عن تمسكهم بنحو: {**وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَ تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ**}[428] و{**مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ** }[429] بمنع دلالته ،على العموم في الأشخاص والأحوال ولئن سلم يجب التخصيص بالكفار كما في {**فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ** }[430] جمعاً بين الأدلة.

ثم الشفاعة الكبرى في فصل القضاء وتعجيل الحساب بين أهل الموقف حين يفزعون إلى نبينا عليه الصلاة والسلام بعد اليأس عن الأنبياء كلهم كما هو مفصل في الأحاديث هي مختصة به عليه الصلاة والسلام؛ لأنه صاحب لواء الحمد الذي آدم فمن دونه تحته. وهذا المقام المحمود الذي يحمده فيه في الأولون والآخرون ويغبطونه فهو الشافع[431] الذي يسجد تحت عرش الرحمن فيقال له: ارفع رأسك واشفع تشفع وسلْ تعط ولا يرد مطلوبه أصلاً

[423] يونس:91

[424]ابو داود، سنة 24؛ ترمذى، قيامة 11؛ ابن ماجه، زهد 37.

[425] طه:109

[426] البقرة:255

[427] محمد:19

[428] البقرة :48

[429] غافر:18

[430] المدثر:48

[431] ب:المشفع

{**وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى** }[432] ، فهو لا يرضى إلا بإخراج كل من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان ولو بعد حين فنعم ما أنشد:

**ألم يرضك الرحمن في سورة الضحى فحاشاك أن ترضى وفينا معذب[433]**

وقد صحّ أن له خمس شفاعات:

1 هذه النعمة العظمى المذكورة

2 وشفاعة في إدخال خلق كثير من أمته الجنة بغير حساب[434]

3 وأخرى في رفع الدرجات في الجنة

4 وأخرى في أناس استحقوا النار فلا يدخلونها

5 وأخرى في إخراج من أدخل النار من الموحدين ويختص به الأوليان من هذه الأربعة بتردد من بعض. وخص به **القاضي عياض** الأخيرة كذلك أيضاً

والكلام في الشفاعة العامة يوم القيامة فلا يرد أنه يشفع لمن مات بالمدينة وللتجاوز عن التقصيرات ولتخفيف عذاب القبر والتخفيف عن بعض من استحق الخلود كأبي طالب ولدخول أطفال المشركين الجنة لدى بعض وبما سمعت من شمول شفاعته الكبرى للكفار أيضاً تبين سرّ { **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ** }[435] أي دنياً وعقبى كما تبين بالنسبة لدفع الخسف والمسخ عنهم عموماً وإن وقعا خصوصاً إلى غير ذلك حتى يحكى أنها لما نزلت توسل به إبليس فدفع عنه الضربة التي كان يضربها ملك على رقبته كل يوم فيبقى أثرها إلى اليوم القابل بعدما كان عصى مع أنه سر أوضح من أن يخفى حيث نالتهم رحمته وبيّن لهم أمر الدنيا والدين إلا أنهم عموا و صموا ففوتوا حقهم ولم يهتدوا لنيل نجاتهم وإيثار عزهم

## مخلوقية الجنة والنار

**والجنة والنار**: مخلوقتان اليوم، فهذه أسفل الأرضين على الصخرة وتلك فوق السماء السابعة كما صرّح به { **عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى *عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى** * }[436]؛وحديث: «**سقف الجنة عرش الرحمن** »[437] فيسعها هناك وإن

---

[432] الضحى:35

[433] هذا من قصيدة مصطفى بن عبد الملك (أو عثمان) البابي الحلبي.شاعر من القضاة. نشأ بحلب وولى قضاء طرابلس الشام، ثم مغنيسيا، فبغداد، فالمدينة المنورة (سنة 1091) وحج تلك السنة وتوفي بمكة.. ونسبته إلى (الباب) من قرى حلب. اوله:

قضى عجباً من حاله المتعجب يجد اشتعالاً رأسه وهو يلعب

أيبغي التصابي بعدما ابيض فوده فيا للنهى للشيخ بالدف يضرب

[434] بخاري، لباس 18؛ مسلم، ايمان 369، 370، 373.

[435] الأنبياء:107

[436] النجم 14،15

[437] لم أجد هذا الحديث بهذا اللفظ في كتب الصحاح

وصفت بأن {**عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ**}[438] فلا مجال لأن يقال(أ/42): أنه لا يسعها عالم العناصر ولا عالم الأفلاك، ولا نسلم وجود عالم آخر مع أنه يستلزم الخلاء بين العالمين ومما يصرح بخلقهما قصة آدم وحواء ونحو: {**أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ**} [439]{**أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ**}[440] إذ لا ضرورة في العدول عن الظاهر وإن عارض المعتزلة بمثل {**تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا** }[441] الآية، قلنا: نجعلها بمعنى نعطيها لا بمعنى نخلقها مع أنه يحتمل الحال والاستمرار ولا معارض للقصّة، والقول بأن تلك كانت بستاناً بفلسطين من أرض الشام علي علوّ مخالف للإجماع جار مجرى التلاعب ومعنى {**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ**} [442] أن كل ممكن هالك في حدّ ذاته لا وجود له بجنب الوجود الواجبيّ أو خاص بغير الجنة والنار والأرواح وعجب الذنب أو أنها تهلك لمحة وتعاد فلا تدافع { **أُكُلُهَا دَائِمٌ**}[443] حتى يحكم بمقتضاه أنهما سيوجدان [444] بعد إعادة الخلق لكنه الرأي لأهل الكشف أيضاً حيث قالوا: إن الجنة التي وعدها الله عباده مدخرة في علمه لم تخلق بعد والجنة التي كان فيها آدم ويفتح للميت منها روضة في قبره وتسرح [445]فيها أرواح الشهداء هي جنة البرزخ التي فوق جبل الياقوت لا الجنة الحقيقية . وكذا القول في النار حتى ما رأى عليه الصلاة والسلام فيها بعض الناس.

## خلود الجنة وجهنم

وبالجملة: إنهما دارا خلود لا يفنيان ولا يفنى أهلهما لقوله تعالى في حقّ الفريقين: { **خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا** }[446] وفي وصف نعيم الجنة {**لاَ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ** }[447] ، {**أُكُلُهَا دَائِمٌ**}[448] وفي وصف أهل النار { **كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا**}[449] {**كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ**}[450] **وصح أنه يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار ثم يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت**[451] ولا تحديد في { **لاَبِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا** }[452] سيما إن جعل { **لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا**}[453]

---

[438] الحديد:21

[439] آل عمران:133

[440] البقرة:24،آل عمران:131

[441] القصص:83

[442] القصص:88

[443] الرعد:35

[444] ب:مدخران فى علم الله

[445] ب:وترى فى نجعه او الكشف والمنام

[446] النساء:57

[447] الواقعة:33

[448] الرعد:35

[449] الحج:22

[450] النساء:56

[451] بخارى، تفسير 19؛ مسلم، جنة 40؛ ترمذى، تفسير 19

اهـ. حالاً على معنى { **لاَبِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا** } [454] بهذه الحالة وأحقاباً بحالة أخرى إلى غير ذلك من الأحوال والأحقاب والتوقيت فيهما بـ { **مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ** }[455] أي مدة دوامهما في الدنيا للتأكيد والمبالغة بما كانت العرب يعبرونه على سبيل التمثيل لا لقصد ارتباط دوامه بدوامها المستلزم تساويهما في الانقطاع والتأبيد فينافي النصوص الدالة على انقطاع هذا وتأبيد ذاك والاستثناء في { **إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ** }[456] ،من قبيل التعليق بالمحال حيث يثبت محالية المعلق الذي هو الخروج ويكون كدعوى الشيء بالبينة فيكون تأكيداً للخلود والدوام على سنن { **حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ** }[457] ولا يبعد أن يكون للتنبيه على أن الخلود في الموضعين ليس أمراً واجباً عليه تعالى حتى لا يمكن تبديله لقبحه عقلاً كما قالت المعتزلة: بل لو شاء لأمكن تبديله إلا أنه لا يتعلق به المشيئة لسبق القضاء والقدر.

وعن بعض أهل الكشف **كابن عربي وصاحب تفسير حسام الدين** : الحكم بخروجهم بعد لبثهم فيها أحقاباً كثيرة كما تخرج فسقة المؤمنين لظاهر هذا الاستثناء. ونحو حديث ابن مسعود: **ليأتين على جهنم زمان ليس فيها أحد.** ولعلّ كلامهم مؤول بانقلاب طبيعتهم إلى النار حتى لا يصطبرون عنها كالسمك عن الماء فكأنهم قد خرجوا منها.

والحديث محمول على أنه ليس فيها أحد من أهل الإيمان(ب/ 42)، وإلا فالنصوص متظاهرة على التأبيد لا تقبل معارضاً ثم إن أهل النار تتعاظم أجسامهم حتى أن بين شحمة أذن أحدهم إلى عاتقه مسيرة سبعمائة سنة وأن غلظ جلده سبعون ذراعاً وأن ضرسه مثل أحد وأن أهل الجنة يتبدلون جرذاً مرذاً بيضاً مكحلين أبناء ثلاث وثلاثين سنة على خلق آدم طوله ستون ذراعاً في عرض سبعة أذرع ليس فيهم ذو لحية إلا هو لأنه لم يكن له لحية في الدنيا لما أن اللحى حدثت بعده ولأنه يكنى فيها بأبي محمد حتى أن أطفال المسلمين يردون إلى تلك الهيئة ويلحقون بآبائهم كما نطقت به آية الطور . وقد يلحق الآباء بالأبناء في ذلك فإن الذرية تطلق عليهما [458]
والأصحّ من أقوال في حقّ **أطفال الكفار** أنهم في الجنة خدم لأهلها كالملائكة فتمتعهم هذا. **وأما الحور والولدان** فأصناف مصنفة صغار وكبار على ما اشتهت أنفس أهل الجنة وليست دار تكليف لهم أصلاً لا يتنعمون بجميع أنواع النعم من الأكل والشرب واللباس والحليّ وأساور من ذهب وفضة ولؤلؤ حتى للرجال والجماع بقوّة كثيرة ونساء عديدة من نحو ألفين من الحور أو أكثر أو أقل فالأقل مرتبة من له سبعون ويعطى من القوة ما يطوفهن في غداة واحدة فلا يملّ ولا يملن وكلما أتاهن وجدهن عذارى أبكاراً ولكل اثنان أو أكثر من نساء الدنيا وهن أفضل

---

[452] النبأ:23

[453] الدخان:56

[454] النبأ:23

[455] هود:107،108

[456] الاعلى:7 الأنعام: 128

[457] الأعراف:40

[458] ب:عليهم أيضا

من الحور لعملهن وطاعتهن في الدنيا ولا بول ولا غائط ولا مخاط ولا منيّ بل لكل عرق مسك يسيل من تحت آباطهم[459] إلى أقدامهم

والمرأة التي تزوجت أزواجاً فهي لزوجها الأخير إن ماتت في عصمته بأن لم يطلقها ولم تتزوج بعد موته وإن طلقها هو أيضاً أو مات عنها لدى بعض فتخير بينهم فتختار أحسنهم خلقاً وذلك قوله عليه الصلاة والسلام لأم حبيبة لما سألته عن ذلك: «**ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة ومن ابتكر بامرأة فهي له هناك إن لم يأخذها أحد بعده** » ولا مطمع في حصر نعم الجنة ولذاتها فإنها لا تتناهى ولا تقف عند حدّ وقد تكفلت الأحاديث بتفاصيل كثير منها كما ضبطت أكثرها في آخر الزواجر ولكن أحسن ضابط لها نحو: « **اعدّ لعباده ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر** »[460]، وقوله تعالى: { **وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ**}[461]؛ قال أعرابي: **في الجنة خيل يا رسول الله فإني أحب الخيل. قال: بلى**[462] إلى آخر الحديث.

وروي: أنه لا توالد فيها لكن إذا اشتهي الولد كان حمله ووضعه في ساعة كما يحصل الزرع إن اشتهى، ولا زرع فيها في سائر الأوقات وفيها تحسر على التفريط فيما فيه نيل السعادات وحيازة أعلى الدرجات لكنه تعالى يرضي كلًّا بحيث لا يبقى في قلبه تألم وتشوش مما نال من هو أسعد منه فلا حسد فيها ولا تباغض، بل نزع ما في قلوبهم من غل{**وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ** }[463] يتحاكون ويتذاكرون أحوالهم الدنيوية ولا يفوتهم منها شيء فإن حياتهم هي الحياة الحقيقية يعرفون منازلهم وأهلهم وأمورهم أحسن مما يعرفونها هنا تستنظرهم نساؤهم من الحور حتى إذا أقبلوا استقبلتهم وتمرحبن بهم وطبن بهم نفساً وأكرمنهم عن فرح وسرور تذهب بهم سررهم والرفائف والمطايا والنجائب حسبما أرادوا(أ/43) وإلى أين ما شاؤوا

وقال تعالى: { **فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ *قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ** *}[464] أي جليس منكر البعث {**يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ** }[465]أي فيه {**أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ** }[466]أي مجزيون ومحاسبون

{**قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ** }[467]، أي معي إلى جهة النار لأريكم حاله { **فَاطَّلَعَ**}[468]، أي معهم ، أو دونهم {**فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ** }[469]{**قَالَ تاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ** }[470] أي قربت تهلكني وتوقعني في الكفر { **وَلَوْلاَ**

---

[459] ب:جوانبهم

[460] بخارى، تفسير 32؛ مسلم، جنة 52؛ ترمذى، تفسير 32؛ ابن ماجه، زهد 39؛ الدارمى، رقاق 105.

[461] الزخرف:71

[462] ترمذى، جنة 11؛ مسند، 352/5.

[463] الحجر:47

[464] الصافات:51،54

[465] الصافات:52

[466] الصافات:53

[467] الصافات:54

**نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ** }[471]،معك فيها. قيل: هما الرجلان اللذان حكى تعالى عنهما في سورة الكهف {**وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ**}[472] {**سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ**}[473] {**وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ وآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** }[474] { **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلاَ أَنْ هَدَانَا اللَّهُ**}الأعراف:43، وأغلب كلامهم هذا وتلاوة القرآن لمن يحفظه، أيّ قدرٍ كان والنعمة العظمى فيها هي التمتع برؤيته تعالى والنظر إلى وجهه الكريم فينالونها على العموم حين يدعوهم إلى الضيافة العظمى كما بّين في الأحاديث. ثم منهم من يتمتع بها كل غدوة وعشية ، ومنهم كل أسبوع. ومنهم كل سنة ومنهم من لا يراه غير تلك المرة ولا نوم فيها ولا ليل.

## الفرق بين الإيمان والإسلام

**والإيمان:** لغة التصديق، أي إذعان حكم المخبر وقبوله وشرعاً التصديق القلبيّ الإذعاني الانقيادي بما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام من عند الله بالضرورة إجمالاً في الإجمالي وتفصيلاً في التفصيلي على معنى أن الواجب أولاً وبالذات التصديق الإجمالي وهو كافٍ في الخروج عن عهدة الإيمان والأحكام الدنيوية والأحكام الأخروية إن مات عقب ذلك قبل علمه بالتفاصيل

ولذا كان النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه يقنعون من العوام بذلك إذا وجدت علامته التي هي التكلم بالشهادتين ولا تنحطّ درجته عن الإيمان التفصيلي ثم بعد ذلك كلما علم شيئاً من الدين بالضرورة وجب التصديق حتى يكمل التصديق بتفاصيل الدينيات اعتقادياتها وعملياتها فيكفر من أنكر شيئاً من ضروريات الدين المجمع عليها سواء الاعتقادية في نحو الواحدانية والتنزه عن الشريك وسمات الحدوث والإمكان وإرسال الرسل والنبوة والكتب والبعث والجزاء والتخليد في الجنة والنار وحدوث العالم وغير ذلك مما نص عليه القرآن أو السنة المتواترة نصاً لا يحتمل التأويل والعملية من نحو وجوب الوضوء والغسل والتيمم وانتقاض الطهارة والصلوات الخمس وعدد ركعاتها وأركانها وسائر ما نصّ عليه الشارع ووقع عليه الإجماع من الأحكام الشرعية والعملية الضرورية فمن أنكر واحداً منها أو اعتقد وجوب ما ليس بواجب كصلاة سادسة مثل الخمس أو أحلّ حراماً كالوطء في الحيض فقد كفر بخلاف ما لم يعلم بالضرورة، وإن كان فيه نص كاستحقاق بنت الابن السدس مع بنت الصلب وحرمة نكاح المعتدّة وفساد الحج بالوطء أو اختلف فيه، أي لم يكن مجمعاً عليه وإن كان فيه نص أيضاً كوجوب الوتر وحرمة الوطء بعد انقطاع الحيض وقبل الغسل ونحو كونه تعالى عالماً بعلم زائد على الذات وموجداً لأفعال العباد

---

[468] الصافات:55

[469] الصافات:55

[470] الصافات:56

[471] الصافات:57

[472] الأنبياء:103

[473] الزمر:73

[474] يونس:10

وغير متحيّز ولا في جهة مما لم يصرح النبي وأصحابه بها تصريحاً ضرورياً فإن الخطأ في ذلك لا يقدح في حقيقة الإيمان، ولذلك لا نكفر أحداً من أهل القبلة مع اختلافهم في منصوصات كثيرة وضابط الاعتقادي أن من نفى أو أثبت (ب/ 43)له تعالى أو لنبيّه ما هو صريح في النقض كفر أو ما هو ملزومه فلا لأن الأصحّ أن لازم المذهب ليس بمذهب كما سبق ما لم يكن في غاية الوضوح

وقد لخّصنا تحقيق المكفرات في القواطع في تلخيص الزواجر فراجعه. وقد ظهر لك مما مرّ أن العمل خارج عن الإيمان رأساً ينادى عليه {**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**}[475] (جاء في تسعة مواضع) و{**الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ** }[476] حيث عطف عليه الأعمال والجزاء لا يعطف على الكل، وأن الشهادة والإقرار باللسان الذي هو الإسلام، أي الاستسلام والانقياد ليس شطر الإيمان بل شرطه وعلامته التي يجري بها أحكام المؤمنين؛ لأنه قلبي كما نطقت به نصوص كثيرة فلا بدّ له مما يعلم به من الشهادتين ولو بالعجمية وإن أحسن العربية فكيتفي به ظاهرا، و يجري الأحكام فالقول بأنّ الإيمان هو التصديق بالقلب والإقرار باللسان اختيار بعض العلماء كالإمام شمس الملّة وفخر الإسلام

فالحقّ من اختلاف طويل بين الإيمان والإسلام أنهما مختلفان مفهوماً. ولذا قال تعالى: { **قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ**}[477] ومتحدان ما صدقاً إذ لا يوجد شرعاً مؤمن غير مسلم ولا عكسه. قال تعالى: { **فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ *فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ***}[478] فمن أقرّ بلسانه ولم يؤمن بقلبه فهو منافق إجماعياً اتفاقياً. قال تعالى: { **وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ***}[479] ، ومن آمن بقلبه وترك التلفظ بلسانه فهو جانٍ معاند.

نقل النووي الإجماع على خلوده في النار أيضاً لكن اعترض بأن كثيراً من المحققين على خلافه لما اختاروا من أنه ليس بشطر ولا شرط حقيقي فلا إجماع إلا ان يكون طولب بالتلفظ وامتنع.

## زيادة الإيمان و نقصه

ثم الإيمان لا يزيد ولا ينقص فإن حقيقة التصديق باقية على حالها غير متغيرة لمن حصلت له سواء أتى بالطاعة أو ارتكب المعاصي. والآيات الدالة على زيادته من نحو: { **وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً** }[480] محمولة على الزيادة بزيادة المؤمن به فإنه يتفاوت قلة وكثرة بتفاوت قلة متعلقة وكثرته ومن المحققين من قال: أن حقيقة

---

[475] يونس:9

[476] الأنعام:82

[477] الحجرات:14

[478] الذاريات:35،36

[479] البقرة:8

[480] الأنفال:2

التصديق تقبل الزيادة والنقصان بظاهر الأدلة وقلتها للقطع بأن تصديق آحاد الأمة ليس كتصديق النبي عليه الصلاة والسلام.

ولذا قال علي رضي الله تعالى عنه في مقام التمدح والتحدث بالنعمة: لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً. وقال إبراهيم عليه السلام: {**وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي**}[481]. والفرق واضح بين ما قامت عليه أدلّة كثيرة وما قام عليه دليل واحد والظاهر أنه وجيه وإن ردّ بأن الجزم الحاصل في دليل واحد لم يقبل النقيض فلا يكون ما دلت عليه دلائل أقوى منه وإن قبله لم يكن دليلاً بل أمارة. والنتيجة مظنونة لا معلومة. وقول إبراهيم لم يكن بالنظر إليه بل إلى غيره. وقول النبي عليه الصلاة والسلام: «**ونحن أحقّ بالشك من إبراهيم**» [482] ظاهره خبر بوجود الشك في إبراهيم والمراد إنكار التردد في المعتقدات ونفي الشك عن إبراهيم ومثله كثير في القرآن والأخبار وغيرهما وبه بذلك يندفع ما يتوهم من التناقض بينه وبين قول علي رضي الله عنه والمحال الذي هو مزيته عليه ولك أن تقول أن إبراهيم عليه السلام طلب زيادة الطمأنينة برؤية العيان ولا شك أن عين اليقين أقوى من علم اليقين وحق اليقين(أ/44) أقوى من عين اليقين.

وعليّ رضي الله عنه إنما نفى زيادة اليقين لا زيادة ثمراته كزيادة الطمأنينة. نعم قد ذهب جمهور المحدثين المعتزلة والخوارج إلى أن الإيمان مجموع أمور ثلاثة التصديق بالجنان والإقرار باللسان والعمل بالأركان فالمخلّ بالاعتقاد منافق وبالإقرار كافر مجاهر وبالعمل فاسق وفاقاً إلا أنه فاسق مؤمن عند المحدثين وفاسق كافر عند الخوارج وفاسق خارج عن الإيمان غير داخل في الكفر عند المعتزلة [483] وإن حكموا بخلوده أيضاً فزيادته ونقصانه على هذا ظاهر ولا يخفى أن الركن الأعظم عند الكل الاعتقاد فالإقرار كما يفهم من تفصيلهم.

وأن المحدثين جعلوا كلاً منها إيماناً على حدة لكن جعلوا العمل مشروطاً بالاول ومرتباً عليه كما هو الواقع فلم يجعلوا الإتيان به مفيداً بدونه ولا تركه موجباً للجحود. ولذا تأتى لهم القول بأن الفاسق مؤمن فيرجع إلى ما هو مذهب الشافعي أو السلف الصالحين من أهل السنة على أن العمل ركن للإيمان الكامل وأجزاء عرفية له، فهو الذي يزيد وينقص لا نفس التصديق بالقلب والإقرار باللسان عند القدرة وإذا وجد من العبد التصديق والإقرار صحّ واستحسن أن يجزم ويقول: أنا مؤمن حقاً لتحقق الإيمان منه فلا ينبغي ويليق أن يقول: أنا مؤمن إن شاء الله؛ لأنه يوهم الشك والتعليق وهو كفر لا محالة. ولذا منعه أبو حنيفة وغيره لكن رد بأن إيهام الشك والتعليق إنما يقتضي خلاف الأولى ومع أن الظاهر منه أنه للتأدب وإحالة الأمور إلى مشيئة الله أو للتبرك بذكر الله والتبرؤ عن تزكية النفس والإعجاب أو للشك في العاقبة والمآل لا في الآن والحال. فإن الإيمان المنوط به النجاة أمر خفي له معارضات خفية من الأهواء والشياطين[484] فمع الجزم بحصوله لا أمن من أن يشوبه شيء من منافيات النجاة من

---

[481] البقرة:260

[482] بخارى، انبياء 11؛ مسلم، ايمان 238؛ مسند، 326/2.

[483] ب:فإنهم أثبتوا الواسطة منهما كما مر

[484] ب:والوساوس

غير علم بذلك فإن العبرة في الإيمان المنجي والكفر المهلك والسعادة والشقاوة المعتدّ بهما بالخواتيم كما يشير إليه قوله عليه الصلاة والسلام: «**السعيد من سعد في بطن أمه والشقي من شقي في بطن أمه**» [485]، أي على وفق ما قدر الله في الأزل فلا يتبدل. ولذا جرى على جوازه كثير من السلف حتى الصحابة والتابعين وهو المحكي عن الشافعي. وروي[486] عن ابن مسعود: أن الإيمان يدخله الاستثناء.

وعن الأشعري: أنه لا يدخله التقليد فإن صحّ يحمل على الشكي والوهمي الخالي عن الجزم لا ما عن عقد جازم مع أنه لا يخلو عن فكر ونظر وإن لم يكن بترتيب مقدمات تنطبق على القواعد المدونة كما مرّت الإشارة فالتشنيع عليه بأنه يلزمه تكفير العوام وهم أغلب المؤمنين توهم محض.

---

[485] مسلم، قدر 3؛ ابن ماجه، مقدمة 7.

[486] ب:مع الرواية

## فصل في النبوة

وفي إرسال الرسل حكم ومصالح عديدة وعواقب حميدة فأرسل الله تفضلاً ورحمة رسلاً من البشر لا الملك لعدم إمكان الرؤية والتلقي من غير الجنس مبشرين لأهل الطاعة بالجنة وجزيل الثواب ومنذرين لأهل الكفر والعصيان بالنار والعقاب ومبيّنين للناس ما يحتاجون إليه من أمور الدنيا والدين وتفصيل أحوال الجنة والنار وطريق الوصول إلى الأولى والاحتراز(ب/44) عن الاحتراز عن الثانية وتعريف واجبات الأحكام وممتنعاتها وممكناتها وكل من ذلك لا طريق للعقل فيه إلا بعد نظر دائم وبحث كامل وصرف العمر الرابح وتفويت أكثر مهمات المصالح مع بقاء القصور والاحتجاج على الله بالجهل [487] الواضح. قال تعالى: { **لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ**}[488] وألجأ إلى قبول قولهم وجزم صدقهم بظهور المعجزات الخارقات عند تحدي المتكبرين عن قبول مجامع الدعوات على وجه عجزوا عن الإتيان بأمثال تلك الخوارق الوهبيات.

### صفات الرسول

والرسول من البشر ذكر حرّ أكمل معاصريه غير الأنبياء عقلاً وفطنة وقوة رأي وخلقاً بالفتح وعقدة موسى أزيلت بدعوته عند الإرسال كما في الآية معصوم ولو من صغيرة سهواً وخطأ اجتهاد على الأصحّ سيما الكذب فيما يتعلق بالشرائع وتبليغ الأحكام وإرشاد الأنام خلافاً لمن جوز منه الصغائر مطلقاً والكبائر سهواً أو قبل النبوة وما نقل منهم مما يوهم ذلك مصروف عن ظاهره أو محمول على خلاف الأولى كما نقلنا عن **القاضي عياض** في أواخر ما انتخبنا من **شرح الشمائل** سليم من خنائة أم ودنائة أب حتى الكفر، وأن علياً إلى آدم وآذر كان عم إبراهيم سمّي أبا على عادة العرب لما أن العمّ صنو الأب ومن منفّر كعمًى وبرص وجذام ولا يرد بلاء أيوب وعمى يعقوب على أنّه حقيقي لطرئه بعد الأنباء والكلام فيما قارنه، فإنه المنفّر دون الطارىء بعد استقرار النبوة ومن قلّة مروة ودناءة صنعة كأكل بطريق وحجامة أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه وإن لم يكن له كتاب كيوشع وإن كان كذلك ولم يؤمر بالتبليغ فنبيّ فحسب . وقيل: النبي أيضاً مأمور بالتبليغ والفارق الشرع الجديد أو الكتاب فيوشع نبي. وقيل: الرسول من يأتيه جبرائيل بالعيان والنبي أعمّ. وقيل: بالمساواة ويرده خبر أنّ عدد الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً والرسل منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر أو خمسة عشر تخرج من أسماء حروف لفظ محمد. ولا ينافي ذلك آية { **مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ** }[489] ، لأن هذا إخبار عمّن قصّ عليه أو أنّه قصّ عليه الكلّ بعد نزول الآية وبه يجاب عن تخالف الروايتين في عدد الرسل فإنه يحتمل قصّ آخرين بعد الرواية الأولى فأولهم آدم وآخرهم محمد عليهم الصلاة والسلام . وأول أنبياء بني إسرائيل، أي بعد أولاد يعقوب

---

[487] ب:بجهلهم

[488] النساء:165

[489] غافر:78

موسى وآخرهم عيسى وأربعة منهم الآن في قيد الحياة. اثنان في السماء: إدريس في الجنة وعيسى في السماء الرابعة. واثنان في الأرض: الخضر ومسكنه الأصليّ مجمع البحرين وإن كان يدور الأرض كلها ويغيث الخلق ويحضر الأولياء وقد يتزوج ويأكل. وإلياس في فضاء يدعو للخلق . قيل: يجتمعان في موسم الحجّ بعرفة ويشربان شربة من ماء زمزم تكفيهما إلى السنة القابلة. والمذكور منهم باسم العلم ثمانية وعشرون.

## الأفضلية بين الرسل

وأفضلهم خمسة: أولو العزم: محمد على الإطلاق فإبراهيم فموسى فعيسى فنوح . قال تعالى: { **كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**(أ/45) }[490] الآية. وكمال الآية بكمال نبيها { **فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ** }[491] إذ لا يكون ممتثلاً بهم إلا إن حوى جميع كمالاتهم.

ولذا قال الأشعري: كلّ آية أوتيها نبيّ من الأنبياء فقد أوتي نبينا عليه الصلاة والسلام مثلها وخص من بينهم بتفضيل، بل آياتهم كلها من محض فضله كما قيل:

**وكل أي أتى الرسل الكرام بها    فإنما اتصلت من نوره بهم**[492]

قال في **شرح الهمزية**: إن كمال الخلق إنما ينشأ عن كمال العقل، وعقله عليه الصلاة والسلام وصل في الكمال إلى غاية لم يصل إليها ذو عقل ومن ثم روى أبو نعيم وابن عساكر عن وهب أنه وجد في سبعين كتاباً أن الله لم يعط جميع الناس من بدىء الدنيا إلى انقضائها من العقل في جنب عقله عليه الصلاة والسلام إلا كحبة رملة من رمال الدنيا جميعاً .ومن ههنا يعلم أفضليته عليه الصلاة والسلام على جميع الخلق من حيث المجموع كهي على فرد فرد. قال عليه الصلاة والسلام: «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر آدم فمن دونه تحت لوائي**»[493]

وقوله عليه الصلاة والسلام: « **ولد آدم للتأدب مع الأبوة**» لا لأفضلية آدم. كيف وقد قال : «**أنا سيد الناس يوم القيامة**»[494] . وفي رواية: «**أنا سيد العالمين، أنا أول من تنشق عنه الأرض فألبس الحلة من حلل الجنة ثم أقوم عن يمين العرش ليس أحد من الملائكة يقوم ذلك المقام غيري، أنا حبيب الله ولا فخر وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول شافع وأول مشفع يوم القيامة ولا فخر وأنا أول من يحرك حلق الجنة فيفتح الله له ومعي فقراء المؤمنين، وأنا أكرم الأولين والآخرين، قال لي جبرائيل: أبشر فإنك خير خلقه وصفوته من البشر حباك الله بما لم يحب به الله أحدا من خلقه لا ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلاً، ولقد**

---

[490] آل عمران:110

[491] الأنعام:90

[492] من قصيدة البردة للإمام البوصيري رحمه الله في مدح النبي صلى الله عليه وآله وسلم البيت: 24

[493] ترمذي، تفسير 17؛ مناقب 1؛ ابن ماجه، زهد 37؛ مسند، 5/1، 281.

[494] بخارى 4712؛ مسلم الفضائل 2278؛ المسند الجامع 15267

**قربك الرحمن إليه من قرب عرشه مكاناً لم يصل إليه أحد من أهل السموات ولا من أهل الأرض فهنّاك الله بكرامته وما حباك به»[495]**

قال ابن عبد السلام: إنما الملائكة خلق كخلق السموات والأرض وخلق الرياح والسحاب والجبال وسائر الخلق الذي لا يعظم على الله منها شيء وإن أكرم الخلق على الله أبو القاسم .

وعن كعب الأحبار: أن آدم أوصى ابنه شيث فقال: كلما ذكرت الله فاذكر إلى جنبه اسم محمد، فإني رأيت اسمه مكتوباً على ساق العرش وأنا بين الروح والطين ثم إني طوفت فلم أر في السماء موضعاً إلا رأيت اسم محمد مكتوباً عليه. ولم أر قصراً ولا غرفة إلا رأيت اسم محمد مكتوباً عليه . ولقد رأيت اسم محمد على الحور العين وعلى قضبان أجان الجنة وعلى ورق شجرة طوبى وعلى ورق سدرة المنتهى وعلى أطراف الحجب وبين أعين الملائكة فأكثر ذكره فإن الملائكة تذكره كل ساعتها: لولاه ما خلقت السماء والأرض ولا الطول ولا العرض إلى غير ذلك من الآيات والأخبار والآثار

والكل صريح ناطق بأنه أفضل الخلق كلهم حتى الملائكة بلا ريب فقاصر، أي قاصر من اعترض على من قال: اللهم صلّ أفضل صلواتك على أشرف مخلوقاتك محمد إلخ. وعلى من قال: لولاه ما كان لا مُلْكٌ ولا مَلَكٌ محتجاً بأنه لم يرد في الكتاب والسنة ما يدل عليه ومسألة تفضيل البشر على(ب/ 45) الملائكة أجاب فيها **أبو حنيفة**[496] رضي الله عنه وغيره بـ: لا أدري. ولم يصرح في الآية إلا { **وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً**}[497] ولم يقل على الخلق جاهلاً بأن له رواية أخرى بتفضيل الأنبياء على الملائكة أجاب فيها أبو حنيفة رضى الله عنه وغيره بلا أدرى ولم يصرح في الآية الا وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ولم يقل على الخلق جاهلا بأن له رواية أخرى بتفضيل الأنبياء على الملائكة وبأن غالب علماء مذهبه موافقون لغيرهم في أنّ الأنبياء أفضل من جميعهم وما عداهم من الصلحاء أفضل من غير خواصهم وهو معنى عوامهم أفضل من عوامنا وقيل: عوامنا أفضل من عوامهم

وأما التفضيل في الآية فمن جهة الغلبة والاستيلاء أو الثواب والجزاء ولا تعرض فيها للخلاف في التفضيل بين بني آدم والملائكة ولا يبعد أن يقال: إدراج الكثير لما سمعت في الأفضلية من التفصيل كما يقال في فائدة إدراج من في قولهم: **الاشتغال بالعلم من أفضل الطاعات** مع أنه أفضلها وآية { **لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ** }[498] محمولة على أن منشأ رفع النصارى لعيسى عن رتبة العبودية لما كان ولادته من غير أب وإخباره عن المغيبات ورفعه إلى السماء ردّ الله عليهم بأن الملائكة الذين هم أعلى مرتبة في هذه الخصال لا

---

[495] ترمذى، تفسير 17؛ مناقب 1؛ ابن ماجه، زهد، 37؛ باختلاف المتن.

[496] اسمه نعمان بن ثابت إمام مذهب الحنفية ولد سنة 699/80، كان من اهل كابل ومات سنة 767/150، سمع ثمانية من الصحابة، وروى عنه العلماء العظام مثل محمد بن حسن الشيباني، وابو يوسف القاضي، من مؤلفاته الفقه الاكبر، الرسالة، العالم والمتعالم . راجع: الجواهر المضية فى طبقات الحنفية لمحي الدين القرشي، 1/49-63؛ والأصول المنيفة للإمام أبي حنيفة لبياض زادة 82-88

[497] الإسراء:70

[498] النساء:172

يستنكفون عن عبادة الله فكيف بعيسى فدلالتها على علوّهم في هذه الخصال لا على الأفضلية . وأما نهيه عليه الصلاة والسلام عن التفضيل بين الأنبياء وعن تفضيله عليهم فهو فيما يؤدي لخصومة أو تنقيص بعض أو هو تواضع منه أو قبل علمه بأنه الأفضل.

ثم باقي أولي العزم وهو مرسل لكافة الثقلين: الإنس والجن إجماعاً معلوماً من الدين بالضرورة فيكفر منكره وكذا للملائكة كما رجحه المحققون وردوا على من خالف ذلك بل قيل إلى الحور العين والولدان والجمادات بعد جعلها مدركة وفائدة الإرسال إلى المعصوم وغير المكلّف طلب إذعانهما لشرفه ودخولهما تحت دعوته واتباعه تشريفاً له على سائر المرسلين.

## إرسال الرسل إلى الجن وخواصُّهم

فمما يصرح برسالته إلى الجن وأنهم مكلفون قوله تعالى حكاية عنهم: { **يَاقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ** * }،[499] { **أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ** }[500] أي رسل الأنبياء ومنكم للتغليب { **يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا** }[501] فإنه لا يوعد بالمغفرة والإجارة من العذاب ولا يخوف بالعقاب إلا مكلف فهم مكلفون قطعاً يجري عليهم ما يجري علينا من أحكام المعاملات والطاعات حتى نفقة الزوجات ويجب علينا نفقة الزوجة منهم إن جاز لنا نكاحهم جرياً على المرجوح لكن لا يسقط عنا ما كلفنا به في نحو إقامة الجمعة وفروض الكفايات بفعلهم لاختصاصهم بتكاليف لا يعلم تفاصيلها وإنما يسقط بهم نحو دفن الميت؛ لأن المقصود المواراة لكن جرى غير واحد على أنه تنعقد بهم الجمعة معنا وتصح إمامتهم لنا ومثلهم في كل ذلك الملائكة ومؤمنوهم يثابون ويدخلون الجنة ويعاقب كفارهم بالنار كما هو ظاهر الآي ومقتضى التكليف؛ لأنه يستدعي الثواب والعقاب ودارهما في الآخرة الجنة أو النار ومكث أهل الأعراف بها إنما هو عقاب يعقبه دخول الجنة كما يشير إليه { **لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ** }[502] ولم يرسل إليهم إلا نبينا عليه الصلاة والسلام وإن اجتمعوا مع الأنبياء الأخر وآمنوا به كما في بعض الأحاديث(أ/ 46)؛ ويفهم من قوله تعالى: { **قَالُوا يَاقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى** }[503] وهو لا يقتضي إرساله إليهم؛ لأن إيمانهم به كان تبرعاً كإيمان بعض العرب بالإنجيل مع اختصاصه ببني إسرائيل وكان وفدهم يأتي إلى النبي عليه الصلاة والسلام لسؤال آيات القرآن والأحكام وجاء إليه ببطن نخلة تسعة من جن نصيبين. وفي واقعة: اثنا عشر ألفاً بل جاءوا إليه بمكة والمدينة مرات مختلفة وطلبوا منه الطعام والعلف فأباح لهم العظام فيجدونها أوفر ما كانت لحوماً ولدوابهم روث دوابنا فيصير شعيراً وعلفاً وقد يأكلون من أكل الكفار وما لم يذكر اسم الله عليه ومن ثم أمر به في أخبار كثيرة لدى الأكل

---

[499] الأحقاف:31

[500] الأنعام:130

[501] الأنعام:130

[502] الأعراف: 46

[503] الأحقاف:130

والجماع وغيرهما درأ لمشاركة شياطينهم ونهى عن نحو الاستنجاء بالعظام . وعن بعض التابعين: أن منهم صنفاً روحانياً لا يأكل ولا يشرب وهم مع طول عمرهم كثيراً بلا حدّ منهم من ينظر دواماً كإبليس. ومنهم من يموت . فقد حكي في وقائع كثيرة أنهم ماتوا وكفّنوا ودفنوا وكان بعض أولئك بصورة الحية ويقدرون [504] على الأعمال الشاقة بأسرع زمن وعلى التشكل بأشكال مختلفة كشكل الطيور والغول والحيات ومن ثم سن في حية الدار وغيرها أن لا تقتل إلا بعد الإنذار ثلاث مرات بلفظ: أنشدكن العهد الذي أخذ نوح عليكن، أنشدكن العهد الذي أخذ عليكن سليمان أن لا تؤذونا وقيل يكفي الالتفات عنها ثلاثاً وقيل: مرة وبعد ذلك تقتل للأمر به والوعيد لمن تركه خشيةً منهن والجنّي المتشكل بعد ذلك الإنذار مهدد حتى الأبيض الذي جاء فيه: «**اقتلوا الحيات إلا الجان الأبيض الذي كأنه قضيب فضة**» **[505]** إلا أنه لا حاجة إلى إنذار ذي الطفتين والأبتر لما في الصحيحين من الأمر بقتلهما؛ لأنهما يطمسان البصر ويسقطان الحبالى فأخذ من ذلك أن الجنّي لا يتصور بصورتهما فيسن قتلهما مطلقاً ولا حصر لكثرة الجن وإنما تكون الأنس تسعهم لا يلد منهم ولد إلا ويلد من الجن تسعة . واختصم مسلموهم ومشركوهم عنده عليه الصلاة والسلام فأسكن المسلمين القرى والجبال والمشركين ما بين الجبال والبحار وبطون الأودية والأمكنة القذرة وما أحد إلا وكّل به قرينه منهم كقرينه من الملائكة إلا أنه عليه الصلاة والسلام سلط على قرينه فأسلم فكان لا يأمره إلا الخير.

وأما قوله عليه الصلاة والسلام: «**وأنه ليغان عن قلبي فأستغفر الله في النهار سبعين مرة**» **[506]** فمحمول على غين الترقي والأنوار لا غين الوسوسة والأغيار كما بينا ذلك مع زيادة تحقيق ما قالوا في آية: { **وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ** }[507]. في أواخر منتخب الشمائل أيضاً: «وما من مولود إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخاً إلا مريم وابنها لقول أمها: { **وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**}[508]

قال بعض: أن ذلك خاص بهما، وقال آخرون: يشاركونهما فيه جميع الأنبياء سيّما(ب/ 46) إن كان المراد من المسّ الطمع وأهل السنة والجماعة على أنهم يجرون من الإنسان مجرى الدم فيوسوسونه بل قد يلقون ما وقع في القلب بعض إلى بعض فلذا يرى كثيراً ما يشتهر ما أضمره المرء في قلبه من غير أن يجري على لسانه أصلاً ويصرعون الناس كثيراً كما هو ظاهر نحو: { **إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ** }[509]. وجاء من

---

[504] ب:وقد يصرعون الناس خلافا لمن أنكر ذلك

[505] أبو داود قتل الحيات 4577. قَالَ أَبُو دَاوُد فَقَالَ لِي إِنْسَانٌ الْجَانُّ لَا يَنْعَرِجُ فِي مِشْيَتِهِ فَإِذَا كَانَ هَذَا صَحِيحًا كَانَتْ عَلَامَةً فِيهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ

[506] رواه البخارى الدعوات فى باب استغفار النبى صلعم فى اليوم والليلة 6307؛ مسلم فى الذكر والدعاء 2702 ، باب استحباب الاستغفار والإكثار منه .

[507] الحج:

[508] آل عمران:36

[509] البقرة:275

طرق متعددة أنه عليه الصلاة والسلام جيء إليه بمجنون فضرب ظهره وقال: «**اخرج يا عدو الله**» [510] فخرج وتفل في فم آخر وقال: «**اخرج يا عدو الله فإني رسول الله**»

وقرأ ابن مسعود في أذن مصروع: { **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا** } [511] إلى آخر السورة فأفاق، ثم أخبر النبي عليه الصلاة والسلام فقال: «**والذي نفسي بيده لو أن رجلاً مؤمناً قرأها على جبل لزال**» . وأمثال هذه مع الأصل في مشروعية العزائم إن فهم معناها كما مرّ وهم يروننا ولا نراهم. وفي الآخرة [512] ينعكس الأمر وقد وردت آثار كثيرة في رؤيتهم بل في مجالستهم الناس في المجالس ومنازعتهم القرآن وقراءته عليهم.

وأخبر **سفيان الثوري** [513] رجل كان يراهم أنه رأى قاصاً يقصّ في مسجد الحنيف فتطلبه فإذا هو شيطان. ولذا أول بعضهم قول الشافعي: من زعم أنه رآهم ردت شهادته وعزر لمخالفته القرآن على زعم رؤية صورتهم التي خلقوا عليها. لكن الأصحّ: أن الله تكفّل لهذه الأمة بعصمتها عن أن يتشكلوا لها بصورة نحو: الولد والقريب حذراً عن الريبة في الدين ورفع الثقة بعالم وغيره وقد ثبت غالب ما مر بأحاديث صحيحة فحمل البيضاوي نحو ذكر خبط الشيطان على زعم العرب واستدلاله بقوله: { **قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ** } [514] إلخ أنه عليه السلام لم يرهم ولم يقرأ عليهم وإنما اتفق حضورهم في بعض أوقات قراءته فأخبره تعالى بذلك وهمٌ مخالف لها وغيرها لما صحح وحقّق ومما يستدل به على إرساله للملائكة ما اختير من أنه مرسل إلى الأنبياء بدليل أخذ المواثيق عليهم بنحو قوله تعالى: { **وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ** } [515] الآية

**قال السدي:** لم يبعث الله فيها نبياً قط من لدن نوح إلا أخذ الله ميثاقه ليؤمنن بمحمد ولينصرنه لو بعث وهو حي وأخذ هو العهد على قومه بل أعطاه النبوة إلى كافة الخلق قبل خلق آدم كما صرح به خبر: « **كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد** » [516]؛ وفي رواية: « **ولا آدم ولا ماء ولا طين** » [517]، ولذا كانت الأنبياء أيضاً تحت لوائه يوم القيامة وفي الدنيا كذلك ليلة الإسراء فبالطريق الأولى

---

[510] دلائل النبوة للبيهقي 2280

[511] المؤمنون:105

[512] ب:قيل

[513] هو ابن سعيد الثوري ابو عبد الله أمير المؤمنين فى الحديث كان سيد اهل زمانه فى علوم الدين . ولد بالكوفة سنة 715/97،وتوفي سنة 777/161 من مؤلفاته الجامع الصغير ، والجامع الكبير راجع الأعلام للزركلي، 158/3

[514] الجن:1

[515] آل عمران:81

[516] أخرجه الطبراني في الكبير (834-833) وأحمد في المسند (20596) وابن أبي عاصم في السنة (410) والفريابي في القدر (17) والآجري في الشريعة (945-944-943) كلهم من طريق بديل بن ميسرة، عن عبد الله بن شقيق، عن ميسرة الفجر، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَتَى كُتِبْتَ نَبِيًّا؟ قَالَ: «وآدَمُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ وأخرجه الحاكم في المستدرك (4209) وقال هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ وَشَاهِدُهُ حَدِيثُ الْأَوْزَاعِيِّ الَّذِي ووافقه الذهبي.

[517] هذه الرواية ضعفت من قبل ابن تيمية

## إرسال الرسل إلى الملائكة وخواصُّهم

مرسل إلى الملائكة وهم أيضاً، أي كالجن مركبون من العناصر الأربعة إلا أن الغالب فيهم النور الناري . وقيل: أنهم من مجرد النوى والجن من مجرد الهواء وشياطينهم من النار الدخانية. وبالجملة هم جواهر نورانية لطيفة لا تتزاحم كسراجين ادخل أحدهما على الآخر فلا إشكال في نحو ما روي: أن لله ملكاً يملأ ثلث الكون وملكاً يملأ ثلثي الكون وملكاً يملأ الكون كله. وهم ذو أجنحة مثنى وثلاث ورباع . بل روي: أنه عليه الصلاة والسلام **رأى جبرائيل ليلة المعراج** (أ/ **47**)**وله ستمائة جناح** . ويقدرون أولى من الأجنة على التشكل بصور مختلفة إما بالكيفية التي قالت الصوفية حيث أثبتوا عالماً متوسطاً بين عالمي الأجساد والأرواح ألطف من الأول وأكثف من الثاني وسموه عالم المثال وقالوا على ذلك: تجسد الأرواح وظهورها في صور مختلفة من عالم المثال كما يقع ذلك لكثير منهم سيما الأبدال ولذا سميت أبدالاً وقد يتمسك لذلك بقوله تعالى: {**فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا**}[518]
وإما بما قال كثيرون: أن جبرائيل مع كون جسمه الأصلي مما يسدّ الأفق كما رآه النبي عليه الصلاة والسلام مرة عليه كان يأتيه غالباً في صورة دحية الصحابي باندماج بعضه في بعض كالقطن بعينه فقد وقعت رؤيتهم كثيراً إلا أنها على صورهم الأصلية لا تمكن لغير الأنبياء وهم نفوس قدسيّة لا يوصفون بذكورة ولا أنوثة وتسميتهم بنات الله كما للوثنية كفر وضلال منزهة عن ظلمات الشهوات طعامهم التسبيح وشرابهم التقديس أنسهم بذكر الله وفرحهم بطاعة الله ولا يغفلون طرفة عين ولا ينامون ولا يفترون.

عن ابن عساكر: أنه عليه الصلاة والسلام قال: «إن الملائكة قالوا: ربنا خلقتنا وخلقت بني آدم فجعلتهم يأكلون الطعام ويشربون الشراب ويلبسون الثياب ويأتون النساء ويركبون الدواب وينامون ويستريحون ولم تجعل لنا من ذلك شيئاً فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة، فقال عزّ وجل: لا أجعل من { **خَلَقْتُ بِيَدَيَّ** }[519] { **وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي**}[520]كمن قلت له: { **كُنْ فَيَكُونُ** }[522521] (جاء في ثمانية مواضع) وهذا الحديث أيضاً من الأدلة الدالة على تفضيل جنس البشر على جنس الملك وإن كان كلهم معصومين فإبليس لم يكن منهم وما وقع لهاروت وماروت كما صحّ من قصتهما المشهورة خلافاً لمن أنكرها من أصلها وقال: أنها من رموزات الأوائل لا يخفى حلها وتأويلها على أهل الذوق والبصائر أو قال كانا جنيين بين الملائكة إنما وقعت تأديباً لهما عن طعنهما في بني آدم وخوضهما فيما لا علم لهم فلا تنافي عصمتهما.

وأول من خلق منهم حملة العرش فالفضل لهم ومنهم: إسرافيل وقيل: هو جبرائيل وميكائيل وعزرائيل أول من خلقهم من الخلق وآخر من يميتهم وأول من يحييهم وهم المدبرات إمراً والمقسمات إمراً فهم أفضل الكل وأفضلهم

---

[518] مريم:17
[519] ص:75
[520] ص:72،الحجر:29
[521] ب:فكان
[522] البقرة:117

إسرافيل وقيل جبرائيل ثم ميكائيل أفضل من عزرائيل ولكل من ذلك شواهد من الأحاديث فعلم: أنهم لم يخلقوا دفعة واحدة بل يخلقون دائماً[523]

فقد روي: أن لجبرائيل كل يوم انغماساً في الكوثر ثم ينفض فكل قطرة تقطر منه يخلق منها ملك وإن لله نهراً في الهواء يسع الأرضين كلها سبع مرات فينزل على ذلك النهر ملك من السماء فيملؤه ويسد أطرافه ثم يغتسل منه فإذا خرج منه قطر منه قطرات من نور فيخلق الله من كل قطرة ملكاً يسبح الله بجميع تسبيح الخلائق كلهم. وعن كعب: لا تقطر عين ملك منهم إلا كانت ملكاً يطير (ب/ 47)من خشية الله. وعن حكم: بلغني أنه ينزل مع المطر من الملائكة أكثر من ولد بني آدم وولد إبليس يحصون كل قطرة وأين تقع ومن يرزق ذلك النبات فلهم من الكثرة ما لا يحيط بها إلا بارؤهم وكل منهم موكل بأمر كرضوان وأتباعه بالجنان، ومالك وزبانيته بالنار والحملة بالعرش وإسرافيل منهم بالنفخ أيضاً. وجبرائيل بالوحي وميكائيل بكيل الأرزاق والأمطار وعزرائيل بقبض الأرواح إلى غير ذلك فهو القابض لأرواح جميع الحيوانات من بني آدم وغيرهم حتى البعوض والبراغيث لا تشغله واحدة عن أخرى، ولو اتفقت [524] في آن واحد بالآلافات فقد جعلت له الدنيا كوارة درهم فله أعوان يعالجون الأرواح ويجذبونها من أجزاء البدن وهو يقبضها والله يزهقها كما هو مقتضى آية {**اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا**}[525] وبهذا تتوافق الآيات والأحاديث المختلفة وإنما أضيف التوفي لملك الموت؛ لأنه الواسطة وذلك كثير في القرآن وغيره. وأما حديث: أن البهائم كلها يتوفى الله أرواحها دون ملك الموت كأنه [526] يعدم أرواحها فعلى تقدير صحته مؤول بأن المقصود أنه لا يعاني في قبض أرواح غير بني آدم بل غير المؤمنين من الرعاية ما يعاني في قبض أرواح المؤمنين أو نفي التوفي عنه حقيقة فإن الموجد في الحقيقة هو الله.

وقد مرّ الخلاف في أن الأرواح أين تكون بعد الخروج ولكل إنسان ملكان بالليل وآخران بالنهار واحد عن يمينه يكتب الحسنة بعشر وأكثر إلى نحو سبعمائة بغير شهادة صاحبه وإذنه، وواحد عن يساره يكتب السيئة بواحدة بشهادة صاحبه وأمره له بالتأخير إلى ثلاث ساعات أو أكثر لعلّه يستغفر الله ويتوب فيكتبون كل ما صدر عنه حتى أنينه في مرضه. قلمهم لسانه ومدادهم ريقه ولم يرد في البطاقة التي يكتبون عليها شيء لكن قال تعالى: {**وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا**} [527] الآية، ويطلعون على عمل القلب بالريح الطيب والكريه وإذا مشى كان أحدهما أمامه والآخر خلفه فإذا رقد فأحدهما عند رأسه والآخر عند رجله يحفظانه من الجن والإنس والهوام والسباع والحرق والغرق والتردي وسقوط نحو جدار عليه لكن إذا جاء الكتاب خلوا بينه وبين القدر وكل ذلك قوله تعالى: { **مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ** *}[528] ، { **وَإِنَّ**

---

[523] ب: على الدوام

[524] ب: حضرت

[525] الزمر: 42

[526] ب: بمعنى أنه

[527] الإسراء: 13

[528] ق: 18

**عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ *كِرَامًا كَاتِبِينَ *يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ *}**[529] {**لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ**}[530] أي بإذن الله فمن بمعنى الباء . ونحو حديث: **أنه عليه الصلاة والسلام سمع رجلاً قال في اعتدال الصلاة: ربنا لك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه فلما سلم قال: لقد رأيت بضعة وثلاثين ملكاً يبتدرون أيهم يكتبها اولا** [531] يدل على أن من الأعمال ما يكتبه غير الحفظة مع الحفظة على المقرر [532] بأنهم اثنان كما أن حديث: «**فيم يختصم الملأ الأعلى يا محمد؟ قلت: في الكفارات** »[533] إلخ يدل على أن الملأ الأعلى يختصمون ويستبقون إلى كتابتها ورفعها مع أن المعروف أن الكتابة والرفع كليهما وظيفة الحفظة(أ/ 48). وكذا عرضها على الله على الخصوص كل صباح ومساء وعلى الاجتماع كل اثنين وخمسين. ثم جملة ليلة النصف من شعبان كل سنة ويمكن الجمع بأنهم يبتدرون ويختصمون في ذلك لكثرة فرحهم بأعمال المؤمنين وإن لم يكن من وظيفتهم أو ذلك مبني على أن الحفظة أكثر من اثنين فقد ورد في بعض الأحاديث: ان على كل إنسان عشرة بالليل وعشرة بالنهار. اثنان بين يديه واثنان خلفه واثنان على شقيه لا يحفظان عليه إلا الصلاة على النبيّ عليه الصلاة والسلام واثنان على عينه للذبّ عن البصر وواحد على فمه يحفظه عن دخول نحو حيّة وأخر على ناصيته إذا تواضع لله رفعه وإذا تجبّر عليه خفضه[534]

وفي بعض: وكّل بالمؤمن ستون وثلاثمائة يدفعون عنه ما لم يقدر منها للبصر خاصته سبعة يذبون عنه الشياطين كما يذب الذباب بالصف عن قصعة العسل . ولو وكّل العبد على نفسه طرفة عين لاختطفه الشياطين ولعل تعبيره عليه الصلاة والسلام بالقليل للحفظ الخاص وبالكثير للحفظ العام أو أنه أعلم بالقليل ثم بالكثير منه أو أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص الموكل عليهم وتلك الحفظة وغيرهم يتأذون مما يتأذى به بنو آدم من الروائح الكريهة حتى نحو الفجل إلا أنهم يفارقونه فيما لا يتحملون كحالة دخول الخلاء والجنابة ومع فرط تأذيهم لا يدعون على آدمي بل يدعون له : قال تعالى: { **الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ** }[535] إلى قوله: { **ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** }[536] وقال: { **وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الأَرْضِ** }[537] وقد يقولون لمن أصرّ على

---

[529] الإنفطار:10،11،12

[530] الرعد:11

[531] بخاري، اذان 126؛ مسلم، مساجد 149؛ ابو داود، صلاة 119؛ ترمذي، صلاة 179؛ نسائ، تطبيق 22؛ موطأ، قرآن 25؛مسند، 106/3، 158.

[532] ب:ما قرر من أنهم اثنان

[533] دارمي، رؤيا 12؛ مسند، 3\29.

[534] ب:قصمه

[535] غافر:7

[536] المائدة:119

[537] الشورى:5

معصية أراحنا الله منه { **فَبِئْسَ الْقَرِينُ**}[538] ما أقل مراقبته لله وأقل استحيائه منه لكنه دعاء لأنفسهم لا دعاء عليه.

وحديث: **لا تدخل بيتاً فيه كلب أو صورة ولا تصحب رفقة فيهم جرس** [539]، محمول على ملائكة الرحمن الذين يتغشون بني آدم ويسلمون عليه لا الحفظة وهم بعد موت المؤمن يستأذنون أن يصعدوا إلى السماء فيقول الله: سمائي مملوءة من ملائكتي قوموا على قبر عبدي فسبحوني واحمدوني وكبروني واكتبوا ذلك لعبدي إلى يوم القيامة: الحمد لله على جزيل نواله ولطفه . وأما الكافر فيقال لملكيه: ارجعا إلى قبره والعناه إلى يوم القيامة. نعوذ بالله من سطوة قهره.

## خصوصيات محمد صلي الله عليه وسلم

ومن جملة فضائله عليه الصلاة والسلام وخصوصياته التي لم ينلها نبي[540] أنه بعث إلى كافة الخلق لا إلى ملّة فقط ككل من الأنبياء

والقول باختصاص نبوته بالعرب كذب النصارى والعيسوية من اليهود وأظهر الله دينه على سائر الأديان وخصّ أمته باسم الإسلام لما اشتمل على فواضل العبادة المختصة بأمته من الصلوات الخمس وصوم رمضان والغسل من الجنابة ودوام الجهاد ونحوها، فلم يطلق على الأمم السابقة سوى الأنبياء وأمة محمد فخصت بالاشتراك مع الأنبياء فيما وصفوا به تشريفاً لها وتكريماً . قال تعالى: { **وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً**( ب/48) } [541] ، { **هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ**}[542] أي الله أو إبراهيم ودعاؤه بقوله: { **رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا** }[543] له ولولده إسماعيل ولهذه الأمة بقرينة تعقيبه { **رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً** } [544]إلخ. فإنه نبينا بالإجماع . وقال عليه الصلاة والسلام: «**هو السلام وسمى أمتي مسلمين فادعوا بدعوة الله التي سماكم بها الله المسلمين والمؤمنين** ولا تعارض ذلك نحو: { **فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ** *} [545]وقول الحواريين: { **وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**}[546] لعدم ورود شيء من ذلك الابإعتبار تغليب الأنبياء لكن جرى كثيرون على خلاف ذلك تمسكاً بظواهر هذه وترجيحها وجعله عليه الصلاة والسلام آخر الأنبياء وخاتمهم وناسخ أديانهم كما قال: { **وَلَكِنْ**

---

[538] الزخرف:38

[539] بخارى، بدأ الخلق 7؛مغازى 12؛ لباس 88؛ مسلم، لباس 81 ، 82، 83؛ ابو داود، طهارة 89؛ ترمذى، ادب 44؛ نسائ، طهارة 167؛ ابن ماجه، لباس 44؛ دارمى، إستئان 34؛ مسند، 80/1، 83.

[540] ب:أحد

[541] المائدة:3

[542] الحج:78

[543] البقرة:128

[544] البقرة: 129

[545] الذاريات:36

[546] آل عمران:52

رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ }[547] وأبقى دينه إلى يوم القيامة حتى أن عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام ينزل ويمكث سبعاً عاملاً بشريعته عليه الصلاة والسلام كما قال: « **ألا إن ابن مريم ليس بيني وبينه نبي ولا رسول إلا أنه خليفتي في أمتي من بعدي**»[548] ، أي نبي مشهور يعرفه كلّ أحد فلا ينافي ما في البيضاوي: كان بينهما أربعة أنبياء: ثلاثة من بني إسرائيل وواحد من العرب: خالد بن سنان العبسي. ولعلّه عرف شريعته مما أوحى إليه في الإنجيل ويمكن أن يأخذها من القرآن وأن يكون تلقاها منه في حياته وأن يتلقاها منه بعد نزوله وأن يأتيه الوحي الحقيقي بها على لسان جبرائيل عليه السلام.

فقد ورد: أنهما تلاقيا في حياته عليه الصلاة والسلام وأنه من أصحابه وأن ناداه على قبره أجابه وما اشتهر أن جبرائيل لا ينزل إلى الأرض بعد النبي عليه الصلاة والسلام لا أصل له كحديث: «لا وحي بعدي فإنه ينزل ويحضر كل مؤمن يتوفى على الطهارة من الجنابة فيطرد عنه الشيطان وينزل ليلة القدر في الملائكة مسلماً على محييها وإبطاله الجزية وعدم القبول من النصارى إلا الإسلام ليس نسخاً لشريعته عليه الصلاة والسلام بل وفاء بما صرح به فهو من شريعته على أنه يحتمل ان يكون من قبيل انتهاء الحكم لانتهاء علته، فإنها كانت تؤخذ لشبهة النصارى ولإعانة عساكر المسلمين على الجهاد و تزول شبهتهم وتقرب الساعة وتكثر الأموال فلا يبقى إليها حاجة.

والظاهر أنّ المذاهب في زمنه لا يعمل منها إلا ما يوافق ما يراه؛ لأنه لا مجال للاجتهاد مع وجود النص واجتهاد النبي لا يخطيء وأيده بالقرآن الذي تحدى به البلغاء مع كمال بلاغتهم فعجزوا عن معارضة أقصر سورة منه مع تظاهرهم على ذلك حتى خاطروا مهجتهم وأعرضوا عن المعارضة إلى المقارعة بالسيوف فإنه تعالى جعل لكل قوم هادٍ، أي نبيّ يهديهم إلى الحق بما يعطى من المعجزات أغلبها وأقواها من جنس ما هو الغالب لا بما اقترحوا إعلاماً بأنه إذا لم يؤمنوا بما هو أقرب إلى طريقهم وأليق بطباعهم فبأن لا يؤمنوا بسائر المعجزات . فأعطى العصا موسى لكون الغالب في زمنه السحر وإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص لعيسى (أ/ 49)عليه السلام لكون الغالب في زمانه الطب.

## الكتب المنزلة على الرسل

وعلى هذا القياس: فلما كان الغالب في زمان نبينا عليه الصلاة والسلام الفصاحة والبلاغة جعل أعلى معجزاته القرآن الذي في غايتهما بحيث تخرج عن قدرة البشر معارضته فهو تعالى وإن أنزل مائة وأربعة كتب الأربعة الكبار وخمسين صحيفة على شيث ابن آدم وثلاثين على إدريس وعشرين على إبراهيم أو بغير تلك الكيفية كما قيل: كان أنزل على موسى عشر صحائف قبل التوراة وأعطى لآدم عشرة والكل كلامه بيّن فيه وعده ووعيده وأمره ونهيه وهو واحد لا تعدد فيه لكن يتعدد ويتفاوت في نظم المقروء والمسموع.

---

[547] الاحزاب:40

[548] كنز العمال 14./399.

وبهذا الاعتبار كان الأفضل القرآن فالتوراة فالإنجيل فالزبور كما أن القرآن كلام واحد لا يتصور فيه تفضيل مع أنه باعتبار الكتابة والقراءة يجوز أن يكون بعض السور أفضل لكونه أنفع أو ذكر الله فيه أكثر، كما ورد في الأحاديث وسائر الكتب قد نسخت به تلاوتها وكتابتها وأحكامها الفروعية دون الأصول الإسلامية. فإن الكلّ متفق فيه وإن لم يرد إطلاق اسم القرآن على غيره وإن كان هو اسماً مشتركاً بين كلّه وبعضه . ولهذا أمرنا بالتصديق بها أيضاً {**قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ** }[549] إلى قوله: { **لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ**}[550]على أن المراد من الإيمان بها الإيمان بأن كلًّا من تلك الشرائع من عند الله وأنه كان حقاً في زمانه ولا نوقع فيها فرقاً كما فعل اليهود والنصارى فادعى كلٌّ حقية دينه ورسوله وأنه لا دين إلا دينه وكفر بما سواه وذلك لا يناقض نسخ تلك الشرائع وانتهاء حكمها مع أنه ذهب كثيرون أنّ شريعة عيسى مخصصة لشريعة موسى لا ناسخة ويؤيده { **وَلأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ** }.[551] وقال بعضٌ: الحكم الثابت لا يرتفع بل ينتهي فلا يكون نسخاً لكنه اختلاف لفظيّ وقد زاده الله قدراً وشرفاً وتفوقاً قبل الهجرة بسنة بالمعراج والإسراء في اليقظة لا المنام كما ذهب إليه بعض وأيّد بإنكار عائشة وابن مسعود وقوعه روحاً وجسداً إلى البيت المقدس ومنه إلى السماء ثم إلى سدرة المنتهى أو فوق العرش حيث أتاه جبرائيل وهو بالحجرة عند البيت أو في بيت أم هانيء بنت عمّه أبي طالب بالبراق من الجنة، وهو دابّة أبيض فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه فركبه وسار به إلى بيت المقدس فمثل له النبيون وصلى بهم ركعتين واطلع على مقاماتهم ومنها عليه أو بنصب معراج له رفرف من سماء إلى سماء تدرجاً إلى أن انتهى إلى السدرة وقربه منه رتبة ومنزلة وتناولاً وحسن قبول قاب قوسين أو أدنى ورأى ربه بعين رأسه وسمع كلامه بالمكافحة وأوحى إليه ما أوحى ونال من العجائب والآيات الكبرى ما لم ينل ويطلع عليه أحد وفرض عليه هناك الصلوات الخمس، بل فرض (ب، 49)عليه أولاً خمسين صلاة فنزل حتى انتهى إلى موسى عليه السلام بالسماء السادسة، فلم يزل يرجعه إلى ربه ويقول له: أمتك لا تطيق ذلك فإني بليت بني إسرائيل وجربتهم وكان عليهم صلاتان فما قاموا بهما وهو يحطّ عنه خمساً خمساً إلى أن أبقى خمساً ووعد قبولها بخمسين فأراد أن يرجعه مرة أخرى فقال: استحييت من ربي وكل ذلك مع ما فيه من قطع مسيرة نحو ثمانية آلاف سنة مقدار ثلث الليل نطق بإجماله صريح آية الإسراء وسوق آية النجم على المشهور وبتفصيله عين حديث الصحيحين ومن أعلام نبوته أنه لم يجعل له من قبل سمياً كما قال في حق يحي عليه السلام فلم يسمّ أحد من قبله باسم محمد صيانة من الله لهذا الاسم حيث سماه به في الكتب المتقدمة وبشر به الأنبياء

فلو جعل اسمه مشتركاً فيه لوقعت الشبهة إلا أنه لما قرب وبشر أهل الكتاب بدنوه سمّى نحو خمسة عشر امرأ أولادهم بهذا الاسم رجاء أن يكون هو هو و{ **اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ** }[552] فمع عدم مألوفيته ألهم الله

---

[549] البقرة:136

[550] البقرة:136

[551] آل عمران:50

[552] الأنعام:124

جده فسماه به إشارة إلى أكثر خصاله الحميدة [553] ورجاء أن يحمده أهل السماء والأرض لا سيما إن صحّ ما نقل عن جدّه أنه رأى سلسلة بيضاء أخرجت منه أضاء لها العالم فأولت بولد منه يكون كذلك فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي، بالهمزة، وتركه بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان .
فهذه أحد وعشرون أباً مجمع عليها وليس فيما فوق عدنان إلى آدم طريق صحيح في قدرهم وكيفيتهم خلافاً لمن نسبه إلى[554] آدم متمسكاً بأن أكثرهم مصرح به في التوراة، فلم يبق إلا أمر قليل قد ضبط أيضاً والكل بريئون من الكفر والسفاح.
غاية الأمر أن بعضهم كان من أهل الفترة وكذا أمهاته من أمه آمنة بنت برة زوجة وهب بن كلاب من بني زهرة إلى حواء. وقد أتاه الوحي في رأس الأربعين كسائر الأنبياء إلا يحيى وعيسى. ففي الصغر فأقام بمكة بعد ذلك ثلاث عشرة سنة أخر ثم هاجر إلى المدينة وبنى المسجد وأمر بمجاهدة أعداء الله وفيها توفي بعد عشر سنين.

---

[553] ب: المحمودة

[554] ب:إدعى معرفتها إلى

## فصل الخلافة

ولم ينص على خلافة أحد من الأربعة لا لأبي بكر كما ادعت البكرية ولا لعليّ كما هو رأي الشيعة لئلا تهلك الأمة برد[555] كلامه واستصعابه والتشاجر فيه لكن صدر منه ما يشير إلى خلافة أبي بكر إشارة قريبة من التصريح فاتفق الصحابة بعد نوع اختلاف بينهم على خلافته رضي الله تعالى عنه يوم موته قبل دفنه لكونها أهمّ فأقام بها نحو سنتين فلما أيس من نفسه دعا عثمان وأملى عليه كتاب العهد لعمر رضي الله عنه فختمه وأخرجه للناس فبايعوه بذلك حتى علي رضي الله عنه فأقام بها نحو عشر سنين ولما استشهد جعل أمر الخلافة(أ/ 50) شورى بينهم لستة فاختاروا منهم عثمان رضي الله عنه، فأقام بها نحو اثنتي عشرة سنة . ولما استشهد هو أيضاً اجتمع كبار المهاجرين والأنصار على عليّ رضي الله عنه والتمسوا منه قبول الخلافة فقبلها بعد مدافعة طويلة وامتناع بليغ منه وما وقع بينه وبين معاوية وعائشة رضي الله عنهم لم يكن عن نزاع في خلافته، بل لطلب دمّ عثمان عن اجتهاد. فأقام بها ست سنين لكن بتعب ومكابدة. ثم استشهد فاستخلف ابنه الحسن فنزل عنها لمعاوية بعد ستة أشهر. قيل: وبه تمت مدة الخلافة ثلاثين المشار إليها بقوله عليه الصلاة والسلام: « **الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم تكون ملكاً عضوضاً**». [556]

وتفصيل كيفية خلافتهم وإقامتهم بها وما ورد في مناقبهم وفضائلهم وفضائل بقية العشرة المبشرة وأهل بيته[557] عليه الصلاة والسلام وسائر الصحابة على الإطلاق والخصوص وتوضيح ما له عليه الصلاة والسلام من عُلى الخصائص وما حلّ فيه من حلي الشمائل وعدد أولاده وأزواجه وفضائلهم وأول من آمن به وبيان ما وقع له من ابتداء أمره إلى أن بعث وما جرى له بعد البعث وظهر على يده من المعجزات وقمع الضلالات موكول إلى منتخبنا من شرح الشمائل فعليك به قناعةً واكتفاء وإن لم يبلغ ذروة الكمال بهاء وجلاء، لكن يجب الإمساك عما جرى بعده عليه الصلاة والسلام بينهم بمعنى أنه يجب على من تأهل إعطاء كل منهم ما يستحقه شرعاً وغيره يلزمه اعتقاد ما عليه أهل السنة فيهم تفصيلاً إن سهل عليه وإلا فإجمالاً كما هو لا بمعنى الكفّ عن معرفة أخبارهم وسيرهم إلا لمن خشي عليه من الاطلاع عليها أن يعتقد في بعضهم ما لا يليق بهم كما هو الغالب على العوام عند سماعها ممن لا يتبين لهم الحق عند أهل السنة في مشكلها فتأمله، فإنه الحق الذي تشهد له القواعد ولهذا لم يبالوا بإطلاق بعضهم الوجوب وسدّ هذا الباب بالكلية فإنه موهم وإن [558] كان أيضاً ناظراً[559] لمن ليس أهلاً لحمل المشكلات على محاملها فكلهم عدول مأجورون. وَرَدَ أن قتيلهم وقاتلهم في الجنة إلا قاتل الزبير ونظم الشيباني في معنى ذلك:

---

[555] ب:بنحو رد

[556] مسند، 220/5، 221.

[557] ب:البيت

[558] ب:وهذا هو

**ونسكت عن حرب الصحابة فالذي جرى بينهم كان اجتهاداً مجردا**

**وقد صح في الأخبار أن قتيلهم وقاتلهم في جنة الخلد خلدا[560]**

فنحو الطعن فيهم وسبهم وتنقيضهم بدعة وضلالة وفسق إلا أنا كما لا نشهد بالجنة والنار لأحد بعينه، لا نكفّر أحداً من أهل القبلة بذنب ولا بدعة لشبهة تأويلهم ما لم ينضم إلى ذلك كفر صريح لا لزومي غير بيّن بأن يخالف النصوص القطعية كقذف عائشة وإنكار صحبة أبيها وكتكفير الصحابة جميعاً؛ لأنه صريح في إنكار فروع الشريعة الضرورية ومتضمن لإنكار صحبة أبي بكر

ومن ثم قال الشافعي: أقبل شهادة أهل الأهواء والبدع إلا الخطابية لاعتقادهم(ب/ 50) حلّ الكذب مطلقاً أو لموافقيهم وما نقل عنه وعن غيره من تكفير القائل بخلق القرآن مؤول بكفران النعم . وحديث من قال أن القرآن مخلوق فهو كافر بالله العظيم[561] آحاد فلا يفيد علماً أو المراد بالمخلوق المختلق، أي المفترى وكل ذلك لما أن باب التكفير خطر يصعب الغلط فيه. فإن إدخال الكافر في الملة وإخراج مسلم أمر عظيم موبق.

ولذا قال المحققون: الخطر في ترك ألف كافر أهون من سفك محجمة من دم مسلم فلا يجوز لعن معاوية وأعوانه أصلاً؛ لأنه من كبار الصحابة وغاية أمرهم البغي والخروج على الإمام بشبهة ترك القصاص عمن قتل عثمان رضي الله عنه، فهو خطأ في الاجتهاد وهو لا يوجب اللعن وإنما الخلاف في ابنه يزيد . فالأكثرون على أنه لا يجوز لعنه أيضاً ولا لعن غيره من الظلمة كالحجاج ابن يوسف وغيره؛ لأنه عليه الصلاة والسلام نهى عن لعن المصلين ومن كان من أهل القبلة سيما إن صحّ أنه لما أتوه برأس الحسين عزّر قاتله وتأسف عليه أسفاً شديداً فأكرم رأسه وغسله وكفّنه وبعثه إلى المدينة المنورة فدفن في قبة عثمان بالبقيع ، ومنهم من جوز اللعن عليه محتجاً بأنه قد كفر بإهانة أهل بيت النبي عليه الصلاة والسلام حيث أمر بقتل الحسين رضي الله عنه وحين جاءوا برأسه ألقاه على الأرض وكان بيده قضيب من خيزران فضربه على أسنانه ، والحق أن ذلك غير متحقق فلا يجوز اللعن عليه على التعيين، بل بلفظ من قتله أو أمر به أو أجازه أو رضي به . كما يقال: لعنة الله على الظالمين أو الكافرين، بل الحق التوقف فيه والإعراض عنه بالكلية، فإنه من جملة المؤمنين وأمره في مشيئة الله ثم ما مر عنه عليه السلام من أنّ الخلافة ثلاثون محمول على الخلافة الكاملة التي لا يشوبها زيغ عن الحق والسبل الناصحة، فلا ينافي ما اتفقوا عليه من القول بخلافة الخلفاء العباسية وبعض المروانية كعمر بن عبد العزيز ومعاوية رضي الله عنهما وإن كانت من جهة الحسن، وأياً ما كانت فهي من واجبات الدين البتة لقوله عليه الصلاة والسلام **من مات ولم يعرف إمام زمانه، مات موتة جاهلية** [562]ولاهتمام الصحابة بها حتى قدموها على دفنه عليه الصلاة والسلام كما مرّ.

وللإجماع المنعقد على أنه لا بدّ للناس دائماً من إمام قرشي من أهل الولاية المطلقة الكاملة، مسلم حرّ ذكر بالغ

---

[559] ب:بالنظر لغير الأهل

[560] بيان المعاني في شرح عقيدة الشيبانية؛للسيد الشيخ علوان ابن السيد عطية الحسيني الحموي،ص: 164،165،166.

[561]ما وجدناه في كتب الحديث.

[562]مسند، 96/4 بلفظ من مات بغير إمام إلخ

ذي سياسة وشوكة قادر مستيقظ ليقوم بتنفيذ أحكامهم وإجراء حدودهم وتجهيز جيوشهم وسدّ ثغورهم وأخذ صدقاتهم وقهر المتغلبة والمتلصصة وقطاع الطريق وانتصار المظلوم من الظالم وقطع المنازعات الواقعة بين العباد وقبول الشهادات وإقامة الجمع والأعياد وتزويج اليتامى وقسمة الغنائم ونحو ذلك من الأمور التي لا يتولاها آحاد الأمة وكونه قرشياً، هو صريح قوله عليه الصلاة والسلام: «**الأئمة من قريش**» [563]

وهو وإن كان خبر واحد(أ/51) إلا أنه رواه أبو بكر محتجاً به على الأنصار لما ادعوا الإمامة ولم ينكره أحد فصار مجمعاً عليه لم يخالفه إلا الخوارج وبعض المعتزلة.

نعم يجوز أن ينزلوا عنها لغيرهم كما آل الأمر الآن إلى ذلك وقد يغلب ذو شوكة فينفذ أحكامه ويطاع أوامره، ويصحّ القضاء بتوليته ولو نحو رئيس قرية في عشيرته كما ينفذ الأحكام إن بلينا بإمامة امرأة . ولا يشترط في الإمام أن يكون أفضل زمانه بل المفضول ربما كان أعرف بمصالح الإمامة ومقاصدها وأقدر على القيام بمواجبها خصوصاً إن كان نصبه أدفع للشرّ وأبعد عن إثارة الفتنة. ولا أن يكون معصوماً إذ لا عصمة إلا للأنبياء عليهم السلام. ولا دليل في { **لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ** }[564] ؛ لأن غير المعصوم لا يلزم أن يكون ظالماً مرتكباً لمعصية مسقطة للعدالة مع إمكان التوبة ولا ينعزل بالفسق والجور على الأصحّ لتعلق المصالح بولايته بخلاف نحو الأمير والقاضي والولي والوصي، فإنه ينعزل، ولو بنحو أخذ رشوة لزوال أهليته بذلك حتى أنه إن ولى ذو شوكة فاسقاً مع العلم بفسقه فطرأ منه مفسق آخر أقبح أثر؛ لأن موليه قد لا يرضى به بخلاف ما إذا رضي ولو بالقرائن ويحرم الخروج عليه وإن عمّ جوره دراً للفتنة والفساد المرتب على ذلك.

وجوّزه المعتزلة على الجائر لانعزاله عندهم بالجور وخروج نحو الحسين رضي الله عنه كان قبل استقرار الأمر مع أنه مجتهد ولم يكن الإجماع حينئذ على حرمة الخروج على الجائر، وقد زعمت الشيعة خصوصاً الإمامية منهم أن الإمام الحق بعد رسول الله عليه الصلاة والسلام عليّ رضي الله عنه ثم ابنه الحسن فأخوه الحسين فابنه عليّ زين العابدين فابنه محمد الباقر فابنه جعفر الصادق فابنه موسى الكاظم فابنه عليّ الرضى فابنه محمد النقي فابنه عليّ التقي فابنه الحسن العسكريّ فابنه القائم محمد المنتظر المهدي

وقد اختفى خوفاً من أعدائه وسيظهر فيملأ الأرض قسطاً كما ملئت ظلماً وجوراً فجوزوا كون الإمام مخفياً خاملاً ويبطله أن اختفاء يفوت الغرض المطلوب من الإمامة خصوصاً لدى الاحتياج إليه وهيجان الفتن بين يديه مع أن الخوف من الأعداء لا يوجب الاختفاء بحيث لا يوجد منه إلا الاسم، بل اختفاء دعوى الإمامة كما في حق آبائه ويستجب للإمام بل قالوا: يجب أن ينصب محتسباً يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وإن كانا لا يختصان به لما صحّ أن آحاد الصحابة والتابعين كانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر من غير إذن. وذلك لأن كلمته أنفذ إلا أنه لا يجوز أن يحمل أحداً على غير مذهبه بل يأمر المسلمين بالمحافظة على الفرائض والسنن وجوباً كصلاة العيد والجماعة وغيرهما، وينهاهم حتى عن المكروهات ويأمر بما يعمّ نفعه كعمارة سور البلد ومؤنة المحتاجين ويجب

[563] مسند، 129/3

[564] البقرة:124

ذلك من بيت المال، فإن لم يكن فيه شيء أو منع ظلماً لزم كل من له قدرة على ذلك من الأغنياء(ب/51) وفي الواقع[565] الأمر يتبع المأمور به فإن كان واجباً فواجب أو مندوباً فمندوب، والمنكر إن كان حراماً وجب النهي عنه وإن كان مكروهاً ندب ولا يشترط فيهما أن يكون هو بنفسه متمثلاً ولا ظن القبول لما أنه شعار الإسلام. فيأمر إن أمن ازدياد عناد المرتكب والتأدية إلى الفتنة وإن أدى لضرر ولو نحو فوات وظيفة وجاه لم يجب ولم يندب، بل ربما كان حراماً

فاللازم حينئذ الاعتزال وعدم الخروج إلا لضرورة لا مفارقته البلدة إلا إن كانت عرضة للفساد فالضابط في إزالة المنكر أنه يجب أولاً باليد وإن أدى [566] إلى قتل وكسر متقوم، فإن لم يمكن فباللسان لكن برفق ولطافة وبشاشة وعدم تخجيل سيّما في نصح الوالدين لا [567]كمن يغسل الدم بالبول وإن لم يمكن فبالقلب؛ لأن كراهة المعصية واجب على كل مسلم وإن أفاد نحو تعبيس وجه ونظر بغدر وهجر وجب ذلك ولزم رفع الأمر إلى الإمام إن لم يخف مفسدة.

ولا دليل في آية { **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ** }[568] على رخصة ترك الأمر والنهي؛ لأنهما أيضاً من الاهتداء وكماله بهما فيلزمان. أو المراد: عليكم أنفسكم بعدهما. يدل على ذلك حديث أبي بكر رضي الله عنه: يا أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية، وإني سمعت رسول الله يقول: «**إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده**» [569] لكن في حديث أبي ثعلبة الخشني: سألت عنها رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم فقال: «**ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحًّا مطاعاً وهوًى متبعاً ودنيا مؤثرةً وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك نفسك**»[570]. رواه الحاكم وغيره فعليه هي مخصوصة بوقت تعذّر فيه الأمر والنهي ولم يبق لهما تأثير

ولذا شرط بعضهم ظنّ القبول ومع ذلك لا يسقط الإنكار بالقلب وليس لآمر ولا ناهٍ التجسس والبحث ولا اقتحام دار بالظن وإن كثرت القرائن ما لم يخبره نحو ثقة معتمد لقوله تعالى: { **وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا** }[571]

ولقوله عليه السلام: «**من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته، فضحه على رؤوس الأشهاد الأولين والآخرين**» [572] وأيضاً علم من سيرته عليه الصلاة والسلام المطهرة: أنه كان ينكر إظهار المنكرات

---

[565] ب:في التحقيق

[566] ب:وإن كان بالهجوم إلى مكان المعصية

[567567] ب:والا كان كمن يغسل الدم بالبول

[568] المائدة:105

[569]ابو داود، ملاحم 17؛ ترمذى، فتن 8؛ ابن ماجه، فتن 20.

[570]ابو داود، ملاحم 17؛ ترمذى، تفسير 5؛ ابن ماجه، فتن 21.

[571] الحجرات:12

[572]ترمذى، بر 83؛ ابو داود، ادب 35، 36.

الصادرة عن المسلمين ويرشدهم إلى الإنكار لكمال شفقته وعظم أخلاقه ورأفته وقد صرح الفقهاء بأنه يستحسن للشهود الكتمان في المعاصي دون الكفر. روي: أن عمر رضي الله عنه دخل من سطح دار رجل فوجده على حالة منكرة فأنكر عليه فقال: يا أمير المؤمنين إن كنت عصيت الله من وجه فقد عصيته من وجوه ثلاثة. قال: ما هي؟ فقال الرجل: قال الله تعالى: {**وَلاَ تَجَسَّسُوا**}[573]، وقد تجسست. وقال: {**وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا**}[574] وقد دخلت من السطح. وقال: { **لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا** }[575] وما سلمت. فتركه عمر رضي الله(أ/52) عنه وشرط عليه التوبة . فما أعظم اهتمامه بالدين وأوفر حلمه للمعتذرين بسائر من سرى إليهم بركة نور اليقين رضوان الله تعالى ورحمته عليهم أجمعين وعلى كل من اقتفى أثرهم من الراشدين ويليهم في حيازة الفضل وكمال الخصال

## مبحث الولاية

الأولياء قدس سرهم : والولي لغة ضد العدوّ أي المحب وكل من ولي أمر أحد فهو وليّه. واصطلاحاً هو العارف بالله وصفاته بحسب ما يمكن المخلوقات المواظب على الطاعات المجتنب عن المعاصي والمنهيّات المعرض عن الانهماك في الشهوات واللذات وبعبارة أوجز القائم بحقوق الله وحقوق العباد على وجه ينال به الرشاد. ولهم كرامات تقع بخوارق العادات كلها حتى طيّ الأرض والوسعة في الزمان والطيران في الهواء وتفجير الماء ونزول قطر السماء وإطاعة الأشياء لهم كبراً وصغراً وسكوناً وتدحرجاً واضطراباً وكلام الحيوانات والجمادات وإحياء الأموات والاطلاع على حالهم وتكلمهم معهم وخدمة الجان لهم بل الملائكة أيضاً واجتماعهم بالنبي عليه الصلاة والسلام والتلقي منه يقظة وتعدد صور جسدهم في أمكنة مختلفة في آن واحد وأكل السموم من غير تأثير وإيجاد الولد بدون أبٍ وقلبه ذكر أو أنثى خلافاً لمن خصصها بغير هذا. ولا مانع من كل ذلك عقلاً؛ لأنها من جملة الممكنات وقد وقعت نقلاً مفيداً لليقين من جهة مجيء القرآن والسنة بها ووقوع التواتر عليها في الأعصار قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل فمما في القرآن مجيء رزق مريم إليها من الجنّة وهزها جذع النخلة حتى تساقط عليها منه الرطب الجنيّ في غير أوان الرطب وعجائب الخضر بناء على المرجوح أنه وليّ لا نبيّ. وقصّة ذي القرنين وأصحاب الكهف وكلام كلبهم وقصة آصف بن برخيا في إحضاره لعرش بلقيس قبل رش العين من مسيرة أكثر من شهرين ومما في السنة تكليم الطفل لجريح وانفجار الصخرة عن الثلاثة الذين في الغار بدعائهم وعليهم حمل بعضهم أصحاب الرقيم فيكون من القرآن وتكثير طعام أبي بكر رضي الله عنه في قصته مع ضيفه حتى صار بعد الأكل أكثر مما كان قبله بثلاث مرات . ورؤية عمر وهو يخطب جيشه بنهاوند من بلاد العجم حتى قال لأمير جيشه: يا سارية الجبل الجبل تحذيراً له من وراء الجبل بمكر العدوّ وسماع سارية كلامه وجريان النيل بكتابه إليه رضي الله عنه وأكل خالد رضي الله عنه السمّ مع عدم التضرر به

---

[573] الحجرات:12

[574] البقرة:189

[575] النور:27

وتسليم القصعة وما فيها بين يدي سلمان وأبي الدرداء ومجيء العنقود من العنب في غير أوانه لحبيب لما أريد قتله بمكة إلى غير ذلك مما وقع لعثمان وعليّ وغيرهما. ولو لم يكن إلا حديث: **رُبّ أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبرّه**[576] وقوله عليه الصلاة والسلام: «**اتّقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر من نور الله**[577]». لكفى شاهداً من السنة ومما اشتهر وتواتر ما ضبط من مناقب سيدنا (ب/ 52) الأشهب الكيلاني وغيره مما لا يحصى من الصالحين قبله وبعده أدناها أنه خطر في قلب واحد الإنكار على سائل منهم فقرأ له السائل في الحال: **{وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ }**[578] ، فتاب بباطنه . فقال: **{ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ }**[579] وحضر ذات مرة واحد من العلماء الكبار مسجداً يصلّي المغرب فإذا بفقير منهم يلحن في الفاتحة كثيراً فقال في نفسه: جئت لحاجة إلى التاجر الفلاني يذهب غداً وتفوتني لكن تعليم هذا الفقير ألزم فأنا أشتغل به وأتجاوز عن حاجتي فسلم الفقير قبله وقال: يا فلان اذهب إلى حاجتك بسرعة وإلا تفوتك وما عليك في لحني. فتعجب من ذلك ووقع على يديه يقبلهما واعترض فقيه على واحد منهم ببادية بأنك لَحِنٌ لا تصحّ صلاتك. فقال: إن غلطت أنا في الفاتحة فأنت غلطت في الإيمان فتركه الفقيه وبعد عنه قليلاً ثم ولّى هارباً فقال: ما بك يا فقيه؟ فقال: استقبلني أسد فقال: ألم أقل لك أنك غلطت في الإيمان فلو كان إيمانك صحيحاً بربك لتيقنت أنه لا ضارّ دون إذنه وإرادته والمخلوق مأمور بأمره. فوقع قدامه ومرّ به على الأسد فما التفت إليه[580]

ومن كبارها ما روي: أنّ واحداً من كبراء المغاربة بعث نحو ثلاثة نفر من مريديه إلى سيدنا الكيلاني ليقولوا له: أنت قلت قدمي هذا على رقبة كل ولي وأنا ما رأيتك باب الحضرة أصلاً داخلاً ولا خارجاً فاطلع [581] قدس سره على ذلك وقال لبعض مريديه: قد استقبلكم نفر من مريدي الشيخ الفلاني صفاتهم كذا وكذا ومقصودهم كذا وكذا فالحق بهم ورجعهم إلى شيخهم وأقرئه مني السلام وقل له من لساني: أني أدخل وأخرج من باب السر وأنت لا تطلع عليّ ولا تعرفه بأمارة أنه خرجت لك خلعة الرضى الفلانية وخلعة التشريف الفلاني وخلعة الولاية وهي فرجية خضراء طرازها بسورة الإخلاص كلها على يدي خرجت لك فانته فتعجب من ذلك وقال: صدق صاحب الوقت والتصرف والكرامات والولاية العظمى.

ولا دليل لمنكريها كالمعتزلة والزيدية ومن يحذو حذوهم في نحو آي: **{ قُلْ لاَ يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ }**[582] **{وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ }**[583] ، **{ عَالِمُ الْغَيْبِ**

---

[576] مسلم، بر 138؛ جنة 48.

[577] ترمذي، تفسير 15.

[578] البقرة:235

[579] الشورى:25

[580] ب: وتنحي عن الطريق

[581] ب:قبل أن يأتوه

[582] النمل:65

**فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا *إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا *** }[584]أي حراساً من الملائكة يحرسونه من اختطاف الشياطين وتخاليطهم؛ لأن الاستثناء في الأخيرة منقطع فلا حصر حتى يدل على عدم إظهار غيره عليه بدليل فإنه آه بل يعينه أن غيبه مفرد مضاف فهو للعموم واستغراق النفي لكل فرد من المخلوقين فلم يبق مجال الاستثناء إذ الغيوب كلها لم يطلع عليها أحد وإن لا بعد في الاطلاع على الجزئيات المخصوصة ولو من الخمسة التي استأثرها بعلمه ويقرب من ذلك إلا أنه لا يمنع الاستثناء ما يقال أن المراد من الثلث(أ/53) أنه لا يشاركه فيما تفرد به من صفة علمه القديم الأزلي الدائم المنزه عن التغير والنقص والانقسام

بل هو علم واحد علم به جميع الكليات والجزئيات فلا يعلم الغيب إلا هو ومن سواه علموا الجزئيات التي أراد منه الأنبياء بإعلامه لهم والأولياء بإعلام الأنبياء فلا يطلق أنهم يعلمون الغيب إذ لا صفة لهم يقدرون بها على الاستقلال بعلم.

## الفرق بين الوحي والإلهام وبين المعجزة والكرامة

والحاصل أن خطاب النبي عليه السلام بواسطة الملك أو بلا واسطة أو بالرؤيا الصادقة أو بالنفث في الروع. وكل ذلك يسمى وحياً وكلاماً نسب إلى الله حقيقة وهو أمر علم من الدين ضرورة وإنكاره كفر.

وخطاب الولي الذي عليه ينبيء نحو قولهم: حدثني قلبي عن ربّي أو خاطبني ربي بكذا أو علمت من ربي شيئاً يلقى في القلب يثلج به الصدور وهو المسمى حديثاً وإلهاماً، فهو وإن لم يكن حجة عند الفقهاء لعدم الثقة بخواطر غير المعصوم الذي يجوز وقوع الذنب منه وإن لا يناف الولاية ولا يقع إلا نادراً بحفظ الله، فقد صار عندهم حجة ينسب إلى الله بمعنى أنه ملقًى منه في القلب كرامة للوليّ وإنعاماً عليه بما يكون سبب المزيد له وإصلاحاً لغيره ولهم أيضاً في المغيبات نحو رؤيا صالحة وتلقٍّ من اللوح وكشف خطاب، لكن بواسطة النبي عليه السلام والتحلي بسيره وعدم الانحراف عن شريعته بأدنى شيء فببركة عظم اتباعه له يؤيده الله بملائكة وروح منه ويظهر بعض خواص النبوة على يده فهي في الواقع معجزة النبي عليه السلام ظهرت على يد واحد من أمته بها يظهر أنه ولي محق في دينه وديانته واتباع سيرة نبيه إلا أنه ليس معها دعوى [585] للمعارضة فإنهم قالوا: إن الأمر الخارق للعادة إن اقترن بدعوى النبوة والتحدي والمعارضة، أي باعتبار الجنس أو من شأنها وإن لم يكن في أغلبها دعوى حال الظهور فمعجزة، أو بدعوى الولاية ولو فرضاً فكرامة.

ومنها ما وقعت للأنبياء قبل النبوة كإنتاج غنم شعيب عليه السلام نتاجاً بيضاً أسود الناصية. وفي أخرى سوداً أبيض الناصية لما وعد لموسى في كل منهما ما ينتج كذلك. وكتكلم عيسى في المهد وكإظلال الغمام وشق الصدر وسلام الجماد لنبينا عليه الصلاة والسلام، فإنها مقدمة على تحدي النبوة فليست بمعجزات بل كرامات وتسمى

---

[583] الاعراف:188

[584] الجن:26،27

[585] ب:تحدٍّ

إرهاصاً، أي تأسيساً للنبوة. وقد تعرض على عوام المؤمنين تخليصاً لهم من المحن والمكاره فتسمى معونة، وإن كان مبنياً على نحو حيل أو ممن لا يتأدب بآدابه عليه السلام فسحرٌ أو من كافر على وفق دعواه كتمتعه بمتاع الدنيا مع إصراره على الكفر فاستدراج ونقمة يزداد بها عذابه كالعسل المسموم او على خلافه فإهانة كما وقع لمسيلمة الكذاب حيث دعا لأعور أن تصحّ عينه العوراء فاعورّت الصحيحة، وإنما كانت الكرامات بعد زمن(ب/ 53) الصحابة أكثر؛ لأن الصحابة ببركة صحبة النبي عليه الصلاة والسلام ومشاهدته مع نزول الوحي تنورت بواطنهم وتزكت نفوسهم وانصقلت مرآة قلوبهم فاستغنوا عن رؤية الكرامات واستماع أنوار القدرة بخلاف من بعدهم، فإن بهم البتة ضعف يقين وهمة فكوشفوا رحمة ناجزة وثواباً معجلاً فقروا بذلك. ويقرب من ذلك قول اليافعي: الكرامة نور والنور إنما يظهر حسن بهائه في الظلمة والزين إنما يظهر كمال حسنه بحسب الشين. والظلمة والشين إنما وجد بعد الصحابة ويظهر من ذلك أن ليس أولوا الكرامة منهم أفضل من غيرهم بل قد يؤتى الضعيف كالزاهد والمحبّ عنايةً له ولا يؤتى العارف لمتانته وقوة يقينه وربما منعت عن بعض لئلا تبطله عن الترقي وقد تصدر عنه وهو لا يعلم بها. لذلك فهي مختلفة نفعاً وضراً بحسب الأشخاص وإظهارها من غير المأذون بالتصرف قبيح كالحيض للنساء. قال بعض الأساتيذ لتلميذ شكى إليه أنه كان يجد كرامة ثم عدمها: يا بني إن الصبي إذا دخل المكتب أعطي خشخاشة يلعب بها فإذا تمرن عليه رمى بها وتركها وربما أخذت منه لئلا يلتهي بها وقالوا: ذرة استقامة خير من ألف كرامة. وقال الجنيد سيد الطائفة: مشى رجال باليقين على الماء ومات بالعطش من هو أفضل منهم يقيناً وبهاء

## مراتب الأولياء

وبالجملة: منشأ الأفضلية كمال المعرفة وقوّة اليقين فكل من كان أكمل معرفة وأقوى يقيناً كان أفضل . واليقين نهاية المعرفة والمعرفة شهود في حيرة وفناء في حبّه ومراتبه ثلاثة: علم اليقين الناشىء من النظر والاستدلال. وعين اليقين الحاصل من طريق الكشف والنوال. وحق اليقين الذي هو مشاهدة الغيب كما نشاهد المرئي بالكمال وهو خاص بالأنبياء. واختص بحقيقته نبينا وفاق بها على الأمثال، والأول للعارفين والثاني لخواصهم: ومنهم رجال الغيب وهم طائفة من خواص الأولياء رئيسهم الخضر عليه السلام، استخصهم الله لمصالح عباده إلى يوم القيامة. بهم يدفع البلاء وينزل القطر من السماء ويقوّى عضد الإسلام ويدبر ما يشاء من بديع النظام سموا بذلك لعدم معرفة أكثر الناس لهم ولأنهم يغيبون عن الأعين دائرون غالباً، أو لأن توليهم الأمور وقيامهم بالمصالح غيب لا يطلع عليه. وقد نطق بوجودهم وتحقق أمرهم إلى قيام الساعة الأحاديث واتفق عليه معاشر الصالحين خلافاً لمن أنكرهم لجهله وقصور اطلاعه والمشهور أنهم في كل يوم من أيام الشهر العربيّ في طرف من الأطراف الثمانية: المشرق والشمال والمغرب والجنوب وما بين كل اثنين منها. فمن كان له مهم فسلم عليهم ودعا منهم(أ/ 54) وانصرف إليه مسنداً ظهره إليهم ظفر به البتة بإذن الله كبيرهم القطب الغوث الفرد الجامع الدائر في الآفاق الأربعة للدنيا كدوران الفلك في أفق السماء، وقد ستر الله أحواله عن الخاصة والعامة غيرةً عليه غير أن يرى عالماً كجاهل

وأبله كفطن وتاركاً آخذاً قريباً بعيداً سهلاً عسيراً [586]آمناً حذراً. مكانته من الأولياء كالنقطة من الدائرة التي هي مركزها به يقع صلاح العالم: **فالأوتاد**: وهم أربعة لا يطلع عليهم إلا الخاصة، واحد باليمن وواحد بالشام وواحد بالمشرق وواحد بالمغرب **فالأبدال**: وهم سبعة على الأصح. وقيل: ثلاثون. وقيل: أربعون ومنشأ الخلاف اختلاف الأحاديث **فالنقباء**: وهم أربعون **فالنجباء**: وهم ثلاثمائة فإذا مات القطب أبدل بخيار الأربعة أو أحد الأربعة أبدل بخيار السبعة أو أحد السبعة أبدل بخيار الأربعين أو أحد الأربعين أبدل بخيار الثلاثمائة أو أحد الثلاثمائة أبدل بخيار الصالحين. فإذا أراد الله قيام الساعة أماتهم جميعاً.

وعن الكنانيّ أنه قال: **النقباء** ثلاثمائة **والنجباء** سبعون **والبدلاء** أربعون **والأخيار** سبعة **والعمد** أربعة **والغوث** واحد. فمسكن النقباء المغرب ومسكن النجباء مصر ومسكن الأبدال الشام والأخيار سياحون في الأرض والعمد في زوايات الأرض ومسكن الغوث مكة. فإذا عرضت الحاجة من أمر العامة ابتهل فيه النقباء ثم النجباء ثم الأبدال ثم الأخيار ثم العمد فإن أجيبوا وإلا ابتهل الغوث فلا يتم مسألة حتى يجاب دعوته . وقيل: مجموعهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً عدد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وفيهم روايات كثيرة وتصنيفات عديدة.

---

[586] ب:عصيرا

## فصل في مسارة التصوف

ومما ينبغي أن يعلم أنّ حدوث اسم الصوفية لزمرة العارفين كان في نحو المائتين من الهجرة على ما قال القشيري : أن المسلمين بعد رسول الله لم يسمّ أفاضلهم في عصرهم بتسمية علم سوى الصحابة إذ لا فضل فوقها ثم من أدركهم التابعين ثم من أدركهم تابع التابعين . ثم تباين المراتب فقيل: لخواص الناس ممن لهم شدة عناية بأمر الدين **الزهاد والعباد** ثم ظهرت البدع وحصل التداعي من الفرق فكل فريق ادعى فيهم زهداً فانفرد خواص أهل السنة المراعون أنفسهم مع الله الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم التصوف واشتهر لهم هذا الاسم . وقيل: حدث في زمان التابعين فقد نقل عن الحسن البصري: إني رأيت صوفياً في المطاف فأعطيته شيئاً فقال: مع أربعة دوانق تكفيني وعن سفيان الثوري: لولا هاشم الصوفي ما عرفت دقائق الرياء ويؤيده ما قال جماعة واختير أن(ب/ 54) الحسن سمع من علي رضي الله عنه ولذا تمّ للسادة الصوفية سند خرقتهم وتلقينهم الذكر المرويّ عنه عن علي رضي الله عنه وإن أنكره الأكثرون حيث قالوا: أن الحسن كان صغيراً في زمن عليّ لم يسمع عنه ولم يُرْوَ أنه عليه السلام ألبس الخرقة على الصورة المتعارفة بين الصوفية لأحد من أصحابه ولا أمر أحداً بفعلها نعم ورد لبسهم لها مع الصحبة المتصلة إلى كميل بن زياد وهو صحب علياً اتفاقاً وفي بعض الطرق اتصالها بأويس القرني رحمه الله وهو قد اجتمع بعمر وعلي رضي الله عنهما وقد يستدل لها بإلباسه أم خالد خميصة سوداء ذات علم كما يستنبط جواز استدعاء المريد إياها من الشيخ تبركاً بما روي: أن امرأة كسته عليه السلام بردة فلبسها محتاجاً إليها فسأله فيها بعض أصحابه فأعطاه إياها وكثير منهم يكتفي بمجرد الصحبة وتلقين الذكر وهو الذي أوثر عن أكثر عارفيهم. وقد اختلف عبارة المحققين في حقيقة التصوف على أكثر من ألف قول نظراً إلى شروطه وآدابه وثمراته فحده سيد الطائفة الجنيد بأن يكون المرء مع الله تعالى بلا علاقة وبأنه ذكرٌ مع اجتماع ووجدٌ مع استماع وعملٌ مع اتباع . وقيل: الأخذ بالحقائق واليأس عما في أيدي الخلائق وقيل: التحلي بكل ثني والتخلي عن كل دنيّ .وقيل: تحرير القلب مع الله واحتقار ما سواه. وبالجملة هو اسم جامع لمعان الفقر والزهد مع مزايا وإضافات لا يكون الرجل بدونها صوفياً وإن كان زاهداً أو فقيراً وبناء على ذلك اختلفوا في حد الصوفي، فحده الجنيد بأنه كالأرض يطرح عليها كل قبيح ويخرج عنها كل مليح . وقيل: من صفا عن الكدر وتسلى من الفكر وانقطع عن الشر. واستوى عنده الذهب والمدر وهو من الصوف؛ لأنه لباسهم غالباً لكونه أقرب إلى الخمول والتواضع والزهد ولباس الأنبياء وقيل: إلى الصفة التي كانت بمسجد النبي (ص) لفقراء المهاجرين. وقيل: إلى الصف الأول بين يدي الله . وقيل: إلى الصفاء وما أحسن من قال: هو الذي يضع كل شيء موضعه ويدبر أوقاته وأحواله كلها بالعلم ويقيم الخلق مقامهم وأمر الحق مكانه ويسر ما ينبغي سره ويظهر ما ينبغي إظهاره كل ذلك مع حضور عقل وصحة توحيد وكمال معرفة ورعاية صدق وإخلاص وذلك أمر صعب لا يدرك بالهوينا لولا التوفيق فكم من مجاهد لم يدن نحو ساحل بحره. وكم من مسارع لم يبلغه إلا أواخر عمره وكم مستعيد قطعه لسرعة من وقته بحسب معونة الله ولطفه وكثير ممن يدعونه وهم بمراحل عن ديار أنسه نعم من أحبهم عن صميم قلب وتشربهم عن صدق نية

وجاهد ولو مع قصور عن الالتباس بما هم فيه من النزهة فالمرجو أن لا ينحرم من أن يعود عليه بركة هممهم العلية ويحشر في جوار زمرتهم البهية . وقد ورد: « **أن المرء مع (أ/ 55) من أحبّ** »[587]. وقال أبو ذر: يا رسول الله الرجل يحب القوم ولا يستطيع يعمل كعملهم. قال: «**أنت يا أبا ذرّ مع من أحببت**». **قال: فإني أحبّ الله ورسوله، قال**: «**فإنك مع من أحببت**»[588] وأما من تشربهم بمجرد الزي والصورة والسيرة فلا يعدّ من زمرتهم لكن مع ذلك هم القوم لا يشقى بهم جليسهم. وقد جاء: **من تشبه قوماً فهو منهم**[589] وينبغي لمن له عقل ودين أن لا يقع في ورطة الإنكار عليهم ولو بدعوى الغيرة على الدين أن يلحقه زيغ مبين فإنه سمّ قاتل وسيف قاطع ومرض هائل، فلا أقل من أن يوجب الحرمان من بركتهم والطرد عن حقيقة قرب الله بجوارهم ويكفي في الزجر عن ذلك: **من آذى ولياً لي فقد آذنته بحرب** [590] ، أي أعلمته أني محارب ومن حاربه الله قصمه وأهلكه فلا يفلح أبداً

وقد قال العلماء: لم يحارب الله عاصياً إلا منكراً على الأولياء وآكل الربا وكل منهما يخشى عليه خشية قريبة من سوء الخاتمة إذ لا يحارب الله إلا كافراً

وكم رأى منكروهم كابن تيمية والبقاع وابن السقا كرامات باهرة وطعنات قاهرة حتى من متأخريهم كابن عربي وابن الفارض إلا أنهم لم يعتبروا. وقد مات ابن السقا على النصرانية

وكيف يتأتى الإنكار عليهم وحركاتهم كلها موافقة للشريعة الغراء عند من له نظر وبصيرة سراء ولذكرهم وأورادهم جهرها وسرها أصل أصيل من الكتاب والسنة. فقد روي: أن جعفر الطيار ابن أبي طالب رقص بين يدي رسول الله لما قال له: «**اشهبت خَلْقي وخُلُقي**»[591]، أي من لذة هذا الخطاب ولم ينكر عليه وقد صحّ القيام والرقص في مجالس الذكر والسماع عن كثير من أكابر الأئمة منهم: عز الدين بن عبد السلام. ويجوز ضرب نحو الدفّ تشويقاً عليه وإن لم يجز لدى قراءة القرآن؛ لأنه يخلّ بالتوقير. لكن ما في بعض كتب التصوف من أنه أنشد بين يديه عليه السلام:

**لسعت حية الهوى كبدي فما لها طيب ولا راق**
**هذا الحبيب الذي شغفت به فعنده رقيتي ترياقي**[592]

البيتين المشهورين. فتواجد حتى سقطت البردة عن كتفيه فلم يرد بل اتفق أهل الحديث: أنه كذب باطل.

---

[587] بخارى، ادب 96؛ مسلم، بر 165؛ ترمذى، زهد 50.

[588] بخارى، فضائل الصحابة 6؛ لدب 95؛ دارمى، رقاق 71 ، عن انس برواية اخرى.

[589] ابو داود، لباس 4؛ مسن، 50/2.

[590] بخارى، رقاق 38.

[591] مسند أحمد 860 وإن لم يقبله السلفيون

[592] لم أجد قائله في المراجع لكنه جاء في مجموع الفتاوي، 58/11 بلا تعيين القائل.

## شطحات الصوفيين

وأما شطحاتهم من نحو قول عليّ رضي الله عنه في ''خطبة البيان'': أنا الله وأنا الرحمن وأنا الرحيم اهـ وقول الحلاج: أنا الحق

وقول أبي يزيد: سبحاني ما في الجبة غير الله. فلها محامل صحيحة لدى العارفين: **منها** أنها على معنى الحكاية عن الله، يعني أنهم يحكون عن حضرة الحق وينطقون بما يليق وشاهدوا من أنوارها وغلبة الوجد في نحو ذلك من مقامات المحبة والقرب يبسط لهم العذر ويرفع عنهم الإصر. وتفصيل ذلك: أن لهم أوقاتاً وحالات يغلب عليهم شهود الحق تعالى بعين العلم والبصيرة فإذا تم [593] ذلك الشهود ذهلوا عن نفوسهم ولم يبق لهم شعور بغير الحق فحينئذ يتكلمون على لسان ذلك القرب الأقدس الموهوب بحكم **فإذا أحببته كنت سمعه وعينه ويده ورجله** . [594] الحديث(ب/55) ويثبتون لأنفسهم بطريق الإيهام لا بطريق الحقيقة ما أثبته الحق لنفسه لا بمعنى الاتحاد الذي هو عين الكفر والإلحاد حاشاهم عن ذلك الإبعاد، بل بمعنى اتحاد الشهود الذي صيّر الحكم ليس إلا ذات الحق تعالى وتقدّس فمعنى: أنا الله أنا الحق سبحاني أنه قد تجلّى عليَّ الحق حتى صرت كأني هو . والوحدة الذاتية التي يقول بها الصوفية مشهورة.

**ومنها** أن الظاهر أن أغلب ذلك وقع منهم حال الغيب والسكر والمحو الناشئة عن الفناء في المحبّة والشهود لموارد الأحوال المزعجة للقلب المعطلة له عن التميز المذهلة عن كل وجد عزيز فلا يدار عليه حكم العزيز تعالى وتقدس. وقد صدر من الحلاج حالة حبسه لأجل القتل ما يشعر بأنه قد كان بهذه الحالة وإن كان الظاهر منه الحال الاول ومما يحمل على هذه الحالة قول أبي يزيد: خضت بحراً وقف الأنبياء ساحله أو يؤول بما يليق بجلالة الأنبياء بأن يقال: وقفوا ساحله ليعبروا من فيه أهلية العبور ويمنعوا من ليس أهلها وليدركوا من أشرف على الغرق ونحو ذلك مما فيه نفع للغير أو يقال: وقوف صدود لا ورود، يعني انهم كانوا قطعوه وأعرضوا عن الخوض وحصلوا بالساحل الآخر.

**ومنها** أنهم قد يشيرون بذلك إلى الخلافة من الحق بالإذن في التصرف في الكون المشار إليها بقولهم: إذا تم الفقر فهو الله.

قال الشيخ أبو الغيث:

**وحباني الملك المهيمن خلعة فالأرض أرضي والسماء سمائي**[595]

ولهم أقوال كثيرة من هذا المشرب، تعيي عقول الفحول. ومع ذلك كله لا يبلغون رتبة النبيين أصلاً كيف وهم مع العصمة يتصفون بالمرتبتين

---

[593] ب:كمل

[594] بخارى، رقاق 38.

[595] الفتاوى الحديثية لابن حجر الهيتمي،ص:226

ودعوى الكرامية ذلك كفر صريح كقول بعض المتصوفة الجهلة: تفوق رتبة النبوة. وإن صحّ أن ولاية النبي عليه السلام لكونها اشتغالاً مع الحق أفضل من نبوته. وزعم أن الولي قد يبلغ رتبة من كمال المحبة والصفاء تسقط عنه التكاليف بلا امتراء

قال الغزالي: من زعم أن له مع الله حالاً سقط عنه نحو الصلاة أو حرمة شرب الخمر وجب قتله وقتل مثله أفضل من قتل مائة كافر؛ لأن ضرره أكثر وكل ما يصدر عنهم مما يوهم خلاف الشرع فمع ما يرون فيه من المصلحة وصرف الشهرة عن النفس له محامل تخرجه عن ذلك كما يقال فيما فعل لص الحمام أن لبس ثياب الغير ساعة أخف من فتنة الشهرة وعروض العجب ونحوه من قبائح النفس مع أنه يجوز استعمال مال الغير على ظن رضائه ولو على فرض الاطلاع على الغرض فحاشاهم أن يرتكبوا ما فيه هتك الشريعة الغراء أو ينفروا بمجرد ما قد نالهم من الآلاء مع وخم عاقبته ما تعتري حالتهم السراء كيف وإن أكمل الناس في المحبة والإيمان هو الأنبياء خصوصاً حبيب الله مع أنّ التكليف فيهم أتمّ وأكمل وغلبة الخوف من مكر الله فيهم وفي الملائكة والمبشرين بالجنة أكثر وأهوال. قال تعالى: { **فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ** (أ/56) **الْخَاسِرُونَ** } [596]{**وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ** }[597] { **وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ** }[598] أي عقله فلا يدري ما يصنع

وكان عليه السلام يكثر أن يقول: «**يا مقلّب القلوب ثبت قلبي على دينك**» فقالوا: يا رسول الله أتخاف؟ قال: «**وما يؤمنني أن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء**»[599] أي بين مظهري إرادته: الخير والشر فهو يصرفها أسرع من ممرّ الريح على اختلاف في القبول والردّ والإرادة والكراهة وغير ذلك من وأخرج ابن أبي حاتم الأوصاف: **أن الله تبارك وتعالى قال للملائكة: ما هذا الخوف بلغ بكم وقد أنزلتكم المنزلة التي لم أنزلها غيركم قالوا: ربنا** {**فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ**}[600]

وقال العلماء: إذا كانت الهداية مصروفة والاستقامة موقوفة والعاقبة مصيبة والإرادة غير معلومة فلا تعجب بإيمانك وصلاتك وجميع قربك فإنها من محض فضل ربك فلا تنفعك دون لطف يزينك وربما سلبتها فوقعت في هوة الندم حيث لا ينفع الندم. والانسلاخ عن نحو النبوة والملكية وإيمان المبشرين وإن كان مأموناً لكن انطواء العلم عن العاقبة أوجب لهم الخوف حتى على أصل كمالهم

---

[596] الأعراف:99

[597] فصلت:23

[598] الأنفال:24

[599] ترمذي، قدر 7.

[600] الأعراف:99

قال عليه السلام: «**والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي ولا بكم**» [601]. وإن ذهب جماعة إلى أن ذلك قبل علمه ما يفعل به من نصره على جميع من عاداه بمقتضى { **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِيناً** }[602] الآية. وإلى أن ذلك في الدنيا، وأما في الآخرة فقد حقق وعلم أنه في الجنة مع أن تحقق الجنة له لا ينافي الخوف المضاعف عن الوفاء بما يليق بجنابه تعالى وبمقام الخائف وممن هم على هدى من ربهم بل بالطريق الأولى من سائر الأولياء أئمة المذاهب المشهورة وسائر أئمة المسلمين من أهل السنة والجماعة كالأشعري والماتريدي والمقتفين أثرهم **كأبي إسحاق الإسفرائيني وإسحاق بن راهويه وداود الظاهري والسفيانين الثوري وابن عيينة** و **الأوزاعي**[603] و **الباقلاني والباجي** و **ابن فورك** وغيرهم سواء قلنا أن المجتهدين كلهم مصيبون كما جرى عليه بعض ودلّ عليه ظاهر كلام بعض أهل الكشف أو بما عليه الجمهور من أن المصيب واحد في أيّ ما وقع الاختلاف فينبغي لكل مقلد اعتقاد أن مذهبه صواب يحتمل الخطأ. ومذهب المخالف خطأ يحتمل الصواب كما سيأتي التفصيل في أصول الفقه ومما لا يرتاب في وجوبه حمل النصوص من الكتاب والسنة على ظواهرها؛ لأنهما مأخذ الشريعة وأساسها إلا أن يصرف عنها دليل قطع كما في الآيات التي يشعر ظواهرها بالجهة والجسمية كما مرّ.

والعدول عن الظاهر إلى معان يدعيها الباطنية الزاعمون أن النصوص ليست على ظواهرها بل لها معانٍ باطنية لا يعرفها إلا المعلم وقصدهم بذلك إلى نفي الشريعة بالكلية إلحاد وميل(ب/ 56) وعدول عن الإسلام إلى الكفر لكونه تكذيباً للنبي عليه السلام فيما علم مجيئه بالضرورة ولذا سمّوا ملاحدة وأما استنباطات الصوفية ورموزاتهم التي في كلامهم وتفاسيرهم كتفسير **السلمي والقشيري** فمبني على اعتقاد أن النصوص محمولة على ظواهرها. ومع ذلك يتخذ منها إشارات خفية إلى دقائق تنكشف على أرباب السلوك يمكن التطبيق بينها وبين ظواهرها المرادة من باب أن الشيء يتذكر بذكر ما له به نوع مشابهة وإن بعدت فهو كمال الإيمان ومحض العرفان.فالظاهرية القائلون بالظواهر فقط منكرين أن يكون لها بواطن وإشارات قاصرون أيضاًوكذا الجهمية المدّعون . أنه تعالى قد يخاطب بالمهمل تمسكاً برؤوس بعض السور المؤداة بحروف الهجاء، والظاهر أنها أسماؤها أو أسرار بين الله ورسوله إلى غير ذلك مما تكلموا عليها ومما ينفع الميت الدعاء له بنحو المغفرة والصدقة عنه والقراءة بنيته، فإن الرحمة التي تنزل على قلب القارىء تعمّه من حيث حضوره في قلبه وإن كانت على القبر. فبالطريق الأولى وتنزل عليه الرحمة والدعاء عقبها بتبليغ مثل الثواب له يورث الثواب، وإن كان غائباً غير ملاحظ بالقلب حين القراءة، والدليل على ذلك الأحاديث الصحيحة الواردة في الدعاء للأموات خصوصاً في صلاة الجنازة وبعد الدفن. وقد توارثه السلف فلو لم يكن لهم فيه نفع لما كان له معنى وقال عليه السلام: «**ما ميت يصلى عليه أمة من المسلمين يبلغون**

---

[601] لم نطلع على هذا الحديث فى كتب الأحاديث

[602] الفتح:1

[603] اسمه عبد الرحمن بن عمر الاوزاعي إمام ديار شام فى الفقه، والتقوى، ولد فى بعلبك سنة 706/88، وقطن فى بيروت، وتوفي بها سنة 773/157، من مؤلفاته :كتاب السنن فى الفقه راجع: الأعلام للزركلي، 94/4

**مائة كلهم يشفعون له إلا شفعوا فيه»** [604] وعن سعد بن عبادة أنه قال: يا رسول الله إن أم سعد ماتت فأيّ الصدقة أفضل؟ قال: «الماء»، فحفر بئراً وقال: هذه لأم سعد وقال عليه السلام: «**الدعاء يرد البلاء والصدقة تطفيء غضب الرب**» [605] إلى غير ذلك من الأحاديث والآثار القاطعة بانتفاع المرء بدعاء غيره وقراءته وشفاعته وعتقه عنه وصدقته له واستغفار الملائكة وعمل الآباء والأولاد وإن لم ينووا عن آبائهم وغير ذلك مما لا يحصى ولا ينافي ذلك نحو: { **وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى** } [606] ، وكل نفس مرهونة بما كسبت. والمرء مجزى بعمله لا بعمل غيره كما ادّعت المعتزلة؛ لأن العامل بنية الغير كالوكيل له فيكون ما عمل له سعيه وعمله حكماً مع أن علقه الإيمان وصلة وقرابة كما قال عليه السلام: « **مثل المؤمنين في توادّهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالصحة والسلامة**» [607]

وقال أيضاً: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً** [608]» **وشبك بين أصابعه فإذا سعى أحد في الإيمان والعمل الصالح فكأنه سعى بتأييد أخيه فكان سعيه سعيه**» وقيل: الآية منسوخة أو في حق الكافر.

## تأثير الدعاء

والدعاء كالدواء في أنه من القدر، أي تقدير الله فقد يقدر الدواء دون الشفاء وقد يعكس فهو المؤثر الموهب للشفاء دون الدواء ولا ينافي التوكل(أ/ 57) بل هو منه اغلق واعقل دابتك وتوكل على الله . فكذا القول في الدعاء، أي التوسل إلى الله تعالى في قضاء الحوائج فالله تعالى يجيب الدعاء للدّاعي ولمن دعا له ويقضي الحاجات لمن اهتمه تفضلاً حسب ما قدّر قال: { **ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ** } [609] ، { **أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ** } [610] { **ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا** } [611] { **قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلاَ دُعَاؤُكُمْ** } [612] والفعل في مقام الامتنان للعموم وإن كان في حيز الإثبات كما قالوا به في النكرة في سياق الامتنان. وفي بعض الآثار: أن الله قال لموسى عليه السلام : **اسألني كل شيء حتى ملح عجينك** [613] وقال عليه السلام: «**يستجاب العبد ما لم يدع بإثم أو قطعية رحم ما لم يستعجل** وقال: **إن ربكم حي كريم يستحي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صفراً** [614]

---

[604] مسلم، جرائز 61؛ ترمذى، جنائز 40؛ نساءي جنائز 78.

[605] مناوى، فيض القدير، 725/3، رقم 4265.

[606] النجم:39

[607] بخارى، صلاة 88؛ ادب 36؛ مسلم، بر 65؛ ترمذى، بر 18؛ نسائ، زكاة 67.

[608] المراجع السابقة

[609] غافر:60

[610] البقرة:186

[611] الأعراف:55

[612] الفرقان:77

[613] ما وجدناه فى كتب الأحاديث.

[614] ترمذى، دعوات 104؛ ابو داود، 23؛ ابن ماجه، دعاء 13.

والمقدرات على قسمين: مبرم وهو المعبر عنه بأمّ الكتاب الذي لا يقبل تغييراً ولا تبديلاً ومعلق بفعل شيء، وهو المعبّر عنه باللوح المحفوظ القابل للتغيير والتبديل وأصل ذلك قوله تعالى: { **يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ**}[615] فمن ذلك **حديث أن زيارة الرحم تزيد في العمر** [616] وحديث **الصدقة تدفع البلاء وتزيد في العمر** [617]وحديث **الدعاء يردّ البلاء والصدقة تطفىء غضب الرب** . فكذا المدعو به قد يتعلق بالدعاء فينجز وقد صرحت أحاديث لا تحصى في أذكار مخصوصة من قالها عصم من البلاء ومن الشيطان ومن الضر ومن السم ومن لدغة العقرب ومن أن يصيبه شيء يكرهه كما في أذكار النووي وغيره

وصحّ في لا حول ولا قوة إلا بالله أنها تدفع سبعين باباً من الضر أدناها الفقر وفي رواية: أدناها الهمّ. وصح لا يرد القدر إلا الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل وأن البلاء لينزل فيتلقاه الدعاء فيتعالجان إلى يوم القيامة. وأنه من لزم الاستغفار جعل الله له من كل همّ فرجاً ومن كل ضيق مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب وأن الدعاء مخ العبادة والدعاء سلاح المؤمن وعماد الدين ونور السموات والأرض والدعاء مفتاح الرحمة. ومن ثم قال بعض الأفاضل: لا ينكر الدعاء إلا كافر أو مكذب بالقرآن؛ لأنه تعبد عباده به في غير ما آية ووعدهم الاستجابة على ما سبق من علمه من أحد ثلاثة أشياء على ما ورد في الحديث استجابته له أو تبديله بمثل ما دعا به أو أفضل منه على ما يليق بجوده وكرمه إن لم يقدّر إنجازه بعينه أو ادخار للآخرة أو تكفير عنه. وقد يكون في علمه القضاء تعلق بذلك الدعاء ولا يكون إلا هو كقوله عليه الصلاة والسلام: «**اعملوا فكل ميسر لما خلق له**» [618] فإبطال بعض المبتدعة الدعاء من أصله مدعياً أنه لا فائدة فيه؛ لأنه إن سبق وصول المدعو له للداعي فالدعاء بوصوله عبث وإلا فهو عبث أيضاً أزيد جهل، أي جهل وكذلك إنكار بعض الدعاء بنحو: اللّهمّ كما حسنت خلقي فأحسن خلقي محتجاً بحديث: «**فرغ ربك من ثلاث: رزقك وأجلك** (ب/57) **وشقيّ أم سعيد**[619]» لأنه يلزم إبطال الدعاء من أصله؛ لأن كل ما سيقع لك قد فرغ منه.

نعم يحرم الدعاء بالاستعفاف في ذاته عن الإعراض ليسلم طول عمره من الآلام والأنكاد والمخاوف وغير ذلك لاستحالته عقلاً مما شوهد من عادة الله وطلب ما استحاله العقل منه تعالى سوء أدب وتلاعب وضحك من المطلوب منه وتخالف لما يجب له من الإجلال وعليه فإذا قال الداعي: اللّهمّ سهل لي وأعطني ما أحبّ واصرف عني ما أكره، فإن أراد العموم الذي مرّ ذكره حرم وإن أراد عطاء ما يحبّ من أنواع مخصوصة جائزة وصرف ما يكرهه من أنواع كذلك أوأطلق فلم يعيّن شيئاً لم يحرم . وكذا يحرم بل يوجب الكفر الدعاء بعدم دخول أحد من المؤمنين النار لما فيه من تكذيب النصوص الدالة على أن بعض العصاة يدخلها البتة. وأما الدعاء بالمغفرة لجميعهم

---

[615] الرعد:39

[616]ما وجدناه فى كتب الأحاديث.

[617]الجامع الصغير، 1/ 675.

[618]بخارى، تفسير 92؛ ادب 120؛ مسلم، قدر 8،6؛ ابو داود، سنة 16؛ ترمذى، قدر 3؛ ابن ماجه، مقدمة 10.

[619] بعبارة مختلفة بخارى البخاري:6595،3208 ؛ومسلم:2643؛ صحيح / الجامع الصغير للسيوطي 4200

فإن أراد به مغفرة تستلزم عدم دخول أحدهم النار فحكمه ما مرّ، وإن أراد مغفرة تخفف عن بعضهم وزره وتمحو عن بعض آخرين منهم فلا مانع منه.

وكذا إن أطلق فظهر أن من أطلق حرمة ذلك لمخالفة ظاهر النصوص مخطىء كمن أطلق الجواز متمسكاً بما ذكر الأئمة من أنه يسنّ للخطيب أن يدعو للمؤمنين والمؤمنات وبأمر الله له عليه السلام { **وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ** }[620] وبدعاء نوح، وبما روي عن أبي هريرة مرفوعاً **ما من دعاء أحب إلى الله من قول العبد: اللّهمّ اغفر لأمة محمد رحمة عامة** [621] وذلك لأن الأولين غير صريحين والرحمة العامّة لا تستلزم مغفرة الذنوب بالمعنى السابق. وأما دعاء المرء بمغفرة ذنوبه كلها فلا كلام فيه فإنه تعالى قادر أن يرضى من له عليه حق ويخلصه ولا يجوز الدعاء بعدم الوقوف بين يدي الله للحساب؛ لأنه طلب محال بل يسأل الله أن يلطف به في ذلك الوقوف

## استجابة دعاء الكافر

واختلف في القول باستجابة دعاء الكافر. فمنعه الجمهور بقوله تعالى: { **وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ** }[622] ولأنه لا يدعو الله لأنه لا يعرفه وإقراره منقوض بوصفه بما لا يليق به وحديث: «**إن دعوة المظلوم وإن كافراً ليس دونها حجاب**» [623]، أي فتجاب، محمول على كفران النعمة.

وجوزه كثيرون بل قيل به يفتى لقوله تعالى حكاية عن إبليس: { **قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ *قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ** *}[624] فهذا إجابة. وقد يردّ بجواز أن يكون إخباراً عن كونه من المنظرين في القضاء الأزلي دعا أو لم يدع. وقيل: توفيقاً بين الآية والحديث يستجاب دعاؤه في أمور الدنيا ولا يستجاب في أمور الآخرة فهو كصدقة تنفعه في الدنيا بزيادة نحو المال والأولاد ولا تنفعه في الآخرة

وقيل: تنفعه بتخفيف العذاب لظاهر { **فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ *وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ** *}[625]

---

[620] محمد:19

[621] ما وجدناه في كتب الأحاديث.

[622] الرعد:14

[623] مسند، 153/3.

[624] الأعراف:14،15

[625] الزلزلة:7،8

## فصل في الساعة وشرايطها

ويجب التصديق بكل ما أخبر به النبي عليه الصلاة والسلام من أشراط الساعة وعلاماتها؛ لأنها أيضاً أمور ممكنة أخبر بها الصادق ونصَّ[626] بعضها القرآن. قال **حذيفة**[627](أ/58): اطلع علينا النبي عليه السلام ونحن نتذاكر فقال: «**ما تذاكرون**» قلنا: **نذكر الساعة فقال**: «**إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات. فذكر الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى ويأجوج ومأجوج وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب. وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس محشرهم**». والأحاديث الصحاح في هذه الأشراط كثيرة جداً ولكن اختلفت الروايات في كيفياتها وتفاصيلها وتقديمها وتأخيرها. والمختار الذي جرى عليه الأكثرون في حق المهديّ وما بعده أنه إذا تولى السفياني على الشام وأظهر بعدما يعرف أولاً بالعدل والجود ومحبة العلماء والعفاف الفسق والفجور وفساد الدين وحيث يشرب من عين التمر فينثقب وسط كفّه ويذهب الإيمان من قلبه حتى يأمر بقتل العلماء فيذبح نحو ثلاثمائة من أهل العلم على عتبة جامع دمشق لما يعظونه وينهونه واتباعه عن الفاحشات ويغلب عساكره على بلاد المسلمين فيقطعون سبلهم وينهبون أموالهم ويسبون ذراريهم ونسائهم ويبطل طريق الحجّ ويقع الناس في حيرة وعجّ فيخطر ببالهم المهدي ويتذكرون ما فيه من النصوص وأنه لا تهتدي هذه الأمة ولا تنقطع المفاسد إلا بنور هدايته وما احتوى عليه من الخلوص وتخرج طائفة من فضلائهم في طلبه فيجدونه في المدينة وهو مولودها أو مولود مكة أو المغرب وفي رواية: بمكة. فيقولون له: أنت المهدي وعلى يديك هذه الأمة تهتدي نريد أن تبايعنا على تولي أمرنا ونصرة دين الإسلام فينكر ويهرب منهم مراراً إلى أن يؤول الأمر أن يبايعهم بعد أن يوعدوه بالقتل بين الركن والمقام ويجتمع عليه السملمون بالاهتمام فيبلغ الخبر السفياني فيبعث جيشاً عظيماً في طلبه فينخسف بين مكة والمدينة فلا يبقى منهم إلا رجلان أو أكثر فيقدمان السفياني ويخبرانه ثم يتوجه إلى الشام فيقابله السفياني بعدما ييأس من قبول المهدي له خادماً فإذا تقابلا للحرب نادى مناد من السماء: ألا إن أولياء الله أصحاب المهدي فاتبعوه فينهزم السفياني بجيشه فيتبعه المهدي ويذبحه على بلاطة بيت إيلياء

كما يذبح الشاة ثم يذهب إلى بني كلب أخوال السفياني ويسبيهم حتى تباع البكر من نسائهم بثمانية دراهم ويخرج من السجن بني هاشم وسائر المسلمين ثم يسير بعد مدة إلى الروم لفتح قسطنطينية لما يغلب عليها الروم في أيام السفياني فيفتحونها وحصون الروم بالتكبير؛ فإذا قالوا: لا إله إلا الله والله أكبر سقط جانبها الذي في البحر ثم يقولون ذلك فيسقط جانبها الآخر ثم يقولون مرة (ب/ 58) أخرى فيفرج فيدخلونها ويقتلون نحو أربعمائة ألف ويخرجون كنوز ذهبها وجواهرها ويقسّمونها بالأترس فبينما هم كذلك إذ أصابهم الشيطان أن المسيح الدجال قد

---

[626] ب:نطق

[627] هو حذيفة بن اليمان العبسي أبو عبد الله كان صاحب سر النبي في المنافقين توفي في المدينة سنة 656/36. راجع الأعلام للزركلي 2/180-181

خلفكم في أهلكم بالشام فيجيئون في طلبه فإذا الأمر باطل ولكن عن قليل يسمعون بخروجه من طرف أصفهان يتبعه من يهودها ويهود خراسان سبعون ألفاً بل أكثر فيقابلونه ويقاتلون معه مقاتلة عظيمة لا يقدرون عليه فيهزمهم إلى بيت المقدس ويحاصرهم فيه حتى يأكلون أوتار قسيهم من الجوع فيغيثهم الله تعالى بعيسى عليه السلام فينزل إذ ذاك عند المنارة البيضاء شرقي دمشق وحديث أنه ينزل ببيت المقدس فهو باعتبار استقراره فيه حين قاموا ليصلوا الصبح فيرجع المهدي القهقرى ليصلي بهم عيسى فيضع يديه على كتفيه ويقول: تقدم وصلّ فلك أقيمت فيقتدي به عيسى عليه السلام فإذا فرغوا أمر بفتح الأبواب فإذا رآه الدجال ذاب كما يذوب الملح بالماء وولى هارباً، فيقول: زعمت أنك إله فلم لا تمنع عن نفسك أن لي فيك ضربة لا تخلص من يدي فيضربه ضربة يخرّ ميتاً ويضعون السيوف في أتباعه فيقطعون دابرهم

ثم يسلم المهدي الأمر إلى عيسى فيكسر الصليب ويبطل الجزية ولا يقبل من النصارى إلا الإسلام ويملأ الأرض عدلاً أكثر من زمن المهدي حتى تحجّ المرأة بخمس نسوة ليس معهم رجل، ولكن بينما هو في أمره أيضاً إذا انفتح السدّ وخرج يأجوج ومأجوج وملؤوا الأرض ونفوا خضرتها ونباتها ونشّفوا أنهارها وبحيراتها فينهزم منهم عيسى والمسلمون إلى جبال بيت المقدس ويقعون في مضيقة لم ير مثلها، قوتهم التسبيح والتهليل فيدعون الله ويتضرعون في هلاكهم فيسلط عليهم دوداً في أعناقهم فيصبحون قتلى ولا يبقى منهم أحداً أصلاً فلا يقدرون ينزلون الأرض من نتن جيفهم، فيأمر الله الطيور فترمي بهم البحار ثم تمطر الأرض فتنظف من نتنهم وزهوماتهم، ثم بعد سبع سنين من نزوله يتوفى عيسى عليه السلام ويدفن في روضة نبينا عليه السلام إذ بها وسعة قبر أخرى قد بقيت له.

ثم بعده بقليل مدة تطلع الشمس من مغربها فيغلق باب التوبة فلا ينفع بعد ذلك إيمان كافر ولا تقبل توبة عاص وذلك قوله تعالى: { **يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ** }[628] الآية. وقوله: {**فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَيهُمْ** }[629] ثم تخرج دابة الأرض من بين الصفا والمروة أو بين الركن والمقام نحو ثلاثة أيام تكملة من الحق لإغلاق باب التوبة، فلا تدع أحداً إلا تمسح وجهه بيدها فيتنور منه وجه المؤمنين ويسود بأقبح ما يكون وجه الكفرة. وروي: أن معها عصا موسى(أ/59) وخاتم سليمان فتختم أنف الكافر بالخاتم وتجلو وجه المؤمن بالعصا . وقيل: الأقرب أخذاً من قوله تعالى: { **أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ** }[630] أنها إنسان يناظر أهل البدع والكفر { **لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ** }[631] ومن القريب ما قيل أنها من تقتل إبليس.

وبالجملة: أنها تميز الكافر من المؤمن حتى لا يبقى التباس أصلاً ثم يرفع القرآن من المصاحف والصدور، ثم يسلّط الله نسيماً طيباً على المؤمنين فيموتون كلهم ويبقى الكفار الخلّص وذلك قوله عليه الصلاة والسلام : «**لا تزال**

---

[628] الأنعام:158

[629] محمد:18

[630] النمل:82

[631] الأنفال:42

**طائفة من أمتي قائمين بالحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله»** أي ريح طيبة تقبض أرواحهم . وفي رواية: **حتى تقوم الساعة** ، أي قرب قيامها وبكليهما يجمع مع قوله: « **لا تقوم الساعة وعلى وجه الأرض من يقول الله الله، فلا تقوم الساعة حتى ما شاء الله؛ لأن علمها عنده إلا على الكفار»** [632] هذا هو الإجمال في ذلك وأما تفصيل كل بخصوصه وبيان الروايات المختلفة في ذلك والجمع بين أكثرها وتحقيق أن الصحابة أفضل من المهدي لشرافة الصحبة، وإن كان فيه مزايا من جهات أخر وبيان أنه من ولد فاطمة اسمه محمد بن عبد الله واسم أمه آمنة يحكم تسع سنين أو أكثر وهذا أصح مما ورد أنه من نسل عباس رضي الله عنه مع أنه يمكن الجمع بأن فيه ولادة من الحسن والحسين والعباس. وتوضيح الدجال وأنه ممسوح العين اليسرى أو اليمنى كأنها عنبة طائفة. ولذا سمي مسيحاً أو لأنه يمسح الأرض ويدورها كلها كعيسى المسيح وأنه يمكث أربعين يوماً، يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامنا وفي رواية: أيامه في غاية القصر وتقدر أوقات الصلاة في كل من الطوال والقصار وأنه يسرع في الأرض كغيث استدبرته ريح لا يترك أرضاً إلا مكة والمدينة وبيت المقدس ولم يثبت ما جاء في دمشق وعسقلان والمساجد الأخر كلها، وأنه لا فتنة أعظم من فتنته. لم يبعث نبي بعد نوح إلا حذر أمته منه وأورد لهم علاماته ينجو منه: من قرأ سبع آيات من أوائل سورة الكهف، وأن يأجوج ومأجوج من نسل آدم وحواء فيقال: أنهما ازدادوا من نسل يافث بن نوح وقال قوم من الترك خلافاً لمن قال أن آدم احتلم، أي من مجرد امتلاء آلة المني ودفقه لا رؤية جماع فإنه محال على الأنبياء فامتزجت نطفته بالتراب فخلقوا منها وأنهما أمتان كل أمة أربعمائة ألف أمة لا يموت أحدهم حتى ينظر إلى ألف ذكر من صلبه. كلهم قد عملوا السلاح ويجامعون من شأوا قصرهم شبر وأطولهم ثلاثة أشبار يقولون: قد قتلنا من في الأرض هلم فلنقتل من في السماء فيرمون نشابهم نحو السماء فترد مخضوبة دماً فكل ذلك في الرسائل المعمولة في حق المهدي، أقربها اعتماداً رسالة ابن حجر المسماة بالقول المختصر في علامة المهدي المنتظر.

ثم بعد هذه الآيات(ب/ 59) بما شاء الله يأمر الله تعالى إسرافيل عليه السلام بنفخ الصور. فمن مهابة نعرة الصور يظن جميع المخلوقات حتى الملائكة أن القيامة قد قامت فيقعون على وجوههم ويغمى عليهم وتقع الزلزلة فترتعد السموات والأرضون وتنتثر الكواكب والنجوم وتبيض شعور النساء ولحى الرجال وتضعن أحمالهن ويكون الناس كأمثال السكارى متحيرين بلا إدراك وشعور

فهذه هي النفخة الأولى وبعد مضي أربعين سنة على هذا المنوال يأمره بالنفخ مرة أخرى فينفخ نفخة أشدّ تندك منها جميع الجبال وتطير في الهواء وتكون غماماً مثل العهن المنفوش وتكون السموات السبع كالرمل وتذوب كالماء وتنصب وتنشف مع مياه الأبحر ويذهب ضياء الشمس ونور القمر وتميط العالم ظلمة شديدة فيهلك جميع المخلوقات من العرش الأعلى إلى أسفل السافلين إلا ثمانية ملائكة من المقربين الأربعة الذين هم حملة العرش وجبرائيل وميكائيل وعزرائيل ورضوان ، ثم يقبض عزرائيل أرواح السبعة الباقية ثم روح نفسه أو يقبضه الله بدون

---

[632] بخارى، اعتصام 10؛ مسلم، ايمان 247؛ امارة 170؛ ابو داود، فتن 1؛ ترمذى، فتن 27، 51؛ ابن ماجه، مقدمة 1.

دخل منه فيصيح صيحة لو كان سمعها أهل السموات والأرض لهلكوا من ساعتهم، فلم يبق في الكونين إلا الحي القيوم فينادي بجبروت وحدانيته: لمن الملك اليوم؟ ويجيب: يعزّ جلاله لله **الواحد القهار!!**.

ويمرّ أربعون سنة أخرى وهما خاليان عن ذوي الأروح ثم أنه تعالى يسوي وجه الأرض بريح شديدة بحيث لو وضعت بيضة في جانب الأرض لرؤيت من الجانب الآخر ويوسع مكان المحشر في حيز صحراء دمشق ألف مقدار هذه الأرض وذلك قوله تعالى: { **يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ** }[633] على ما قال ابن عباس. ثم ينزل مطراً مثل منيّ الرجال من بحر الحياة تحت العرش أربعين يوماً على التوالي فإذا امتلأ وجه الأرض كالبحر العميق يشرب أبدان الإنس والحيوانات التي صارت تراباً وتجذب ذلك البحر وتجتمع أجزاء كل جسد إلى أصلها وتكون كهيئتها الأولى وتنبت كأمثال البقلة على وجه الأرض ويصل كل جسد إلى كماله الذي كان عليه في الدنيا.

ثم يحيي الملائكة الثمانية فينفخ إسرافيل في الصور بأمره تعالى النفخة الثالثة برفق ولطف حتى تنتشر الأرواح منه فتجد كل روح جسده كما تجد النتاج أمهاتها من الأغنام الكثيرة فتجد المخلوقات من أولها إلى آخرها الحياة في آن واحد ويجتمعون في المحشر من جميع الأطراف عرايا حافين جائعين عطاشاً وتقرب الشمس بلا نور إلى سمت رؤوسهم مقدار ميل فيعرقون من حرارتها حتى أنه يغرق بعضهم في العرق إلى كعبيه وبعضهم إلى ركبتيه وبعض إلى صدره وبعض إلى الحلق وبعض بالكلية، إلا أن منهم من تصير أعمالهم مركباً يركبونها فقد جاء يحشر الناس واحد على بعير واثنان على بعير. الحديث.

ومنهم من يحشر كاسياً طاعماً ويأتي لكل من الأنبياء والأولياء والعلماء والصالحين حلل وبراق من الجنة يلبسون ويركبون(أ/60) ويذهبون إلى ظل العرش ويجلسون على المنابر والكراسي بالراحة والسلامة { **فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ** }[634] لا يحزنهم الفزع الأكبر ولا يطول عليهم فصل القضاء ويطول على غيرهم سيما الكفار نحو خمسين ألف سنة وجهنم محيطة بهم كالحلقة مخرجة لهم من تحت الأرضين عليها زبانية لا يعلم عددهم إلا الله فإلى أيّ نبي يذهبون ليشفع لهم في الخلاص من تلك الورطة فلا يشفع لهم ويعتذر باستحيائه من ربه بقصور بدا منه كآدم بالأكل من الشجرة وإبراهيم بالكذب في تعريضاته الثلاثة وموسى بقتل النفس وعيسى بما ادّعى النصارى فيه وفي أمه وافتتانهم بهما ويقول نفسي نفسي حتى يأتوا إلى نبينا محمد عليه الصلاة والسلام فيقول : «**أمتي أمتي**[635]» ويشفع لهم الشفاعة العظمى العامة بتنجيز القضاء والخلاص من تلك الضيقة والبلاء، ويكلم الحق تعالى كلهم بلا واسطة ويحاسب بعضهم بلين الخطاب وبعضهم بشديد العتاب ويأخذ حق المظلوم من الظالم بالحسنات والسيئات[636] فإن كان له حسنات يعطى منها للمظلوم وإلا تحمل عليه سيئاته وربما أرضاه هو

---

[633] إبراهيم:48

[634] القمر:55

[635] مسلم شفاعة202

[636] ب:لا القود كما في الحيوانات خلافا لمن حكى أن المقتول يقتله قاتله فلا يحي بعد ذلك أبدا

من مجرد فضله وكرمه ولا ينافي حمل السيئات { **وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى** }[637] فكأن ذلك وزره كسائر ما يدل عليه ويتسبب له. وبعد الفراغ من الحساب وتأدية الحقوق إلى أهلها حتى من الحيوانات كلها بالقود كأخذ قود الشاة الجلحاء من القرناء تعود الحيوانات تراباً فيغبطها الكفار ويقولون: يا ليتنا { **كُنَّا تُرَابًا** }[638] مثلها ولا نعذب بالنار، ثم القضاء بأمر العبور على الأجسار وإيصار كل إلى ما استوجبه من النشاط والأكدار نسأل الله تعالى العفو والعافية في هذه الدار وفي تلك الدار وأن يمتعنا بالنظر إلى نور جماله الكريم مع الأبرار[639]. إنه ولي كل توفيق ومن وجود وإيثار ومن محض كرمه الوصول لنيل ما فيه من الحبور والاستبشار والخلاص عما يوجب الخزي والبوار هذا غاية ما لخصنا من تحقيقاتهم في الأصول الدينية ونهاية ما فهمنا من تدقيقاتهم للعقائد الإسلامية وأقصى ما تراآى لنا من منار مواهبهم الجليلة الربانية راجين أن يعود من ميامين يعين أنفاسهم النورانية ولهم في ذلك مبسوطات وموجزات ومقتصدات لا يحيط بها عدّاً سوى عالم الأسرار والخفيات، فإن أردت خلاصته مجملاً ومختصراً خالياً عن الشاردات والتعميقات فعليك بنحو منظومة المولى **أحمد الشيباني** فنعم ما بها من الواضحات. ونحو المنثورة التي افتتح الإمام ابن عربي فتوحاته بها براءة له من وهم سوء الاعتقادات وإحالة عليها كل ما وجد في كتابه(ب/60) من الموهمات والمشكلات فلا يقع فيه القاصر عن درك اللغزات والرموزات. ومن الله الهداية والعصمة في البداية والنهايات. (أ/61)[640]

**فهرس الأشعار**

حرف الالف

ثماني صفات أثبتت لألهنا لدى الأشعري الحبر في العلم والتقى



ومن قال في الدنيا يراه بعينه فذلك زنديق طغى وتمردا

---

[637] الأنعام:164

[638] النمل:67

[639] ب:في زمرة الأبرار

[640] تم قسم أصول العقائد مما جمعه العالم العلامة والحبر الفهامة خاتمة المتأخرين مولانا الملا خليل أفندي العمري نسباً قدس الله سره وأفاض علينا بمنه وبرّه على يد حفيد حفيده أعني المذنب الذليل جنيد سنة الهم والحزن بوفاة تاج العلماء العاملين ولواء المشائخ الصالحين، أعني به حضرة الشيخ علاء الدين قدس سره ليت أمي لم تلدني

حرف الكاف



حرف اللام


حرف الميم

حرف الياء